غرفة يعقوب

تأليف: فرجينيا وولف

ترجمة: شاهر حسن عبيد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٩م

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

غرفة يعقوب

العنوان الأصلي للكتاب:

Jacob′s Romm

الكاتب: Virginia Woolf

الناشر: Hogarth Press

غرفة يعقوب/ تأليف فرجينيا وولف؛ ترجمة شاهر حسن عبيد. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٩م .- ٢٧٢ص؛ ٢٥ سم . (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية، ١٢).

١- ٨٢٣ إ ن و و ل غ ٢- العنوان ٣- وولف ٤- عبيد ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الفصل الأوّل

«أجل، بكل تأكيد»، كتبت بتي فلاندرز، وغرزت عُقبي قـدميها في الرمـل. «لم يبقَ ثمة مجال سوى الرحيل».

من رأس قلمها الذّهبي فاضَ حبرٌ أزرقٌ فاتح، وهي تُثبت النقطة في نهاية العبارة التي كتبتها. وتوقّف قلمها عند تلك النقطة. حملَقت في المياه بعينين مخضلّتين بالدمّوع. فغامت صورةُ الخليج كلّه في ناظرها، واهتزّت المنارة. خُيّل إليها أنَّ صاري يخت السيد كونورز الصغير ملتوٍ كما تلتوي الشمعة في أشعة الشمس. رمشَ جفناها بسرعة. «الحوادث أشياء مخيفة»، فكّرت بداخلها. رمشت ثانيةً، فنزلت الدموع من عينيها... واستعاد الصاري استقامته. كذلك انتظم تدفق الأمواج المُتعاقب. كذلك بسقَ شكل المنارة. لكن نقطة الحبر فشَتْ أكثر، واتّسعت.

قرأت بتي فلاندرز ما كتبته: «ما عاد ثمّة مجال سوى الرَّحيل».

«لا بأس. إذا كان يعقوب لا يريد اللَّعب؟»، قالت. في خلفية الورقة لاح لها طيف آرشر، ابنها البكر. بدا كئيباً على الرمال. أحست بقشعريرة – وكان ذلك هو يوم الثالث من أيلول. عادت لتقول «إذا كان يعقوب لا يريد اللَّعب» – يا لها من نقطة مرعبة! «لا بدَّ أنّ الوقت أصبح متأخراً».

«أين اختفى ذلك العفريت الصغير؟»، تساءلت. «ماعدت أراه. هيا. أسرع وابحث عن أخيك. قل له أن يأتي في الحال.». «... لكن كن رفيقاً حين تخاطبه». تناولت القلم، وخربشت على الورقة أمامها، متجاهلةً نقطة التوقّف «كل شيء بدا

محضّراً بشكل مقبول. ونحن مكدّسون في العلبة كسمك الرنكة، ومضطرون لاحتمال مشاقّ التّجوال مع العربة، التي لن توافق مالكة الأرض طبعاً على...».

هذا نموذج من رسائل بتي فلاندرو إلى الكابتن بارفوت – صفحات مدبّجة، ما تزال تحمل آثار دموعها.

مدينة سكاربورولا تبعد عن كورنوولأكثر من مسافة ٧٠٠ كيلومتر. الكابتن بارفوت يعيش في سكاربورو. ولقد مات سيبروك.

دموع بتي فلاندرز المتلألئة في عينيها جعلت نبتات «الدَهلية» الحمراء كلّها في الحديقة تتماوج، وزجاج البيت متوهِّجاً، وجدران المطبخ تبدو مضلّعات موشّاة ولامعة كالسكاكين. دموع بتي أثارت السيدة غارفز، زوجة الكاهن، ودفعتها مع انسياب ترنيمة القدّاس في الكنيسة، لاسيما وهي تشاهد السيدة فلاندرز تنحني لتحتضن بيديها رؤوس صغارها، دفعتها للتفكير بأنّ الزواج ملاذٌ حصين، وانَّ الأرامل المسكينات يبقين منشغلات دوماً في الحقول الفسيحة إمّا باقتلاع الحجارة أو التقاط السنابل الذهبية، وحيدات وبلا حماية. والسيدة فلاندرز فقدت زوجها قبل سنتين تماماً.

«يع... قوب! يع... قوب!»، نادى آرشر.

على غلاف الرسالة خطّت السيدة فلاندرز بقلمها اسم المدينة الموجّهة إليها: «سكاربورو»، ووضعت تحت الاسم خطّاً عريضاً. فسكاربورو مدينتها أصلاً، وهي في نظرها مركز الدنيا. لكن أين الطابع؟ فتّشت عنه في حقيبتها. فقلّبتها رأساً على عقب لتتأكد من كلّ زاوية فيها – ثمّ نفضَت حضنها بحركةٍ قويةٍ، فتنبّه لها السيد تشارلز ستيل، الرسّام، بقبعته البنميّة.

رفع الرّسام ريشته عن اللوحة أمامه، لكنّه بقي يثبتها في وضع عمودي، فاهتزّت في يده كقرن استشعارٍ برأسِ حشرةٍ نزقةٍ. تململت المرأة – إذ كانت في الحقيقة تبذل جهداً واضحاً لتنتصب على قدميها – وذُهلت لِما يحدث أمامها! وعاد السيد ستيل ليضرب بقوة لوحة الكنفا أمامه بريشته عدّة ضربات مُتلاحقة، زارعاً عليها لوناً بنفسجياً غامقاً، وهي لمساتٌ رأى أنّها تَنقُص لوحته. بدا اللون لحظتّها باهتاً جداً – بسبب تداخل الظّلال الرمادية مع ألوان الخُزامى، وأشكالِ نجمة أو طائر نورس أبيض معلّق كيفما اتفّق – إنّه منظرٌ كئيب كالعادة. ولو أنَّ مغموراً، يعرض لوحاته في غموض، كمناظر تروق لأولاد صاحبات النزل. وكان يزيّن صدره بصليب يعلّقه على طرف سلسلة الساعة. وكان في غاية الرضا إذا ما استحسنت صاحبات النُزل لوحاته – وهو ما كان يحدث في أكثر الأحيان.

«يع... قوب! يع... قوب!» صاح آرشر.

شعر ستيل بالغضب، على الرغم من حُبّه الصّغارَ. وفي عصبية بادية أخذ ينقر بأصابعه التمعّجات اللّونية العاتمة على زاوية مَلْوَنْ الرسم أمامه.

«أنا رأيت شقيقك – آي نعم، رأيته»، قال الرسام ستيل مشيراً برأسه لآرشر الذي كان يجتاز المكان خلفه على مهل وبوجه مقطّب، وبيده مجرفة يجرجرها، ويرمق هذا الرجل الذي يضع النظّارة.

«إنه هناك – إلى جانب الصخرة»، دمدم الرّسام ستيل والفرشاة بين أسنانه، ليتسنى له أن يعصر قليلاً من اللون الطحيني في الملون، وعيناه تحدّقان بإمعان في ظهر بتي فلاندرز.

«يع... قوب! يع... قوب!» كرر آرشر نداءه بعد لحظة واحدة، وهو يجتاز المكان.

صوت أرشر، كما تلقّفته أذن ستيل، كان مفعماً بحزن غير عادي، نابعاً من أعماق كيانه، ويخلو من أي انفعال، لينطلق في أرجاء الفضاء. فبدا صوتاً معزولاً، بعيداً، وكأنّما ابتلعت قراره صفحاتُ الصخور الصُّمّ.

قطَّب ستيل جبهته. لكنَّه سرعان ما عاوده السّرور نتيجة للأثر الذي تركه اللون الأسود في اللوحة – باعتباره الظلّ اللوني الوحيد الذي أضفى على بقيّة ألوان اللوحة معناها. «أجل. المرء قد يتعلّم الرسم حتى في سن الخمسين! إنّه مثل تيتيان...» (الفنان الإيطالي من القرنين الخامس والسادس عشر، اشتهر بألوانه الصارخة) ...وها هو ستيل يعثر أخيراً على اللون المناسب. أرسل ناظره إلى الفضاء. ارتعب إذ رأى سحابة تُغلِق أفق الخليج.

نهضت السيدة فلاندرز، وراحت تنفض بكفّها شقّي معطفها لتنظّفه ممّا علق به من رمال، ومن ثمّ حملت مظلّتها السوداء، استعداداً للعودة.

الصخرة العملاقة في المكان تُشكّل أحد أضخم المعالم الأرضية البنيّة أو القاتمة. وهي تشطأ نابتة من عمق الرمال، مثل جلمودٍ أزليّ. كانت صخرة خشنة الملمس، لكثرة ما علق بجنباتها من هياكل القواقع البحرية. بين هياكل الأصداف على صفحتها الصلدة هنا وهناك، كنت ترى بقعاً هي عبارة عن ضمائم صغيرة متناثرة من أعشاب البحر الجافة. ولو أراد أحد الصبيان المتعفرتين أن يتعمشق عليها مزهوّاً ببطولته، فإنه سيضطر لفتح رجليه حد أقصى، ليتمكن من الوصول أعلاها.

سطح الصخرة فيه جرن حفرته الأيام، مليء بالماء حتى الجمام. كان الرمل يغطي أرضه، وتلتصق على جوانبه لطخات هلامية الشكل وعدد من حيوانات بلح البحر. فجأة وثبت سمكة صغيرة في مياه الجرن، فاضطربت نهايات بقع الحشائش البحرية المصفرّة والضاربة إلى البني، واندفع من إحدى الزوايا سرطان بحريّ له قوقعة متغيرة اللون...

«هذا سرطان ضخم!» هتف يعقوب... فيما تابع السرطان بأرجله الضعيفة رحلته المحدودة على أرضية الجرن الرملية. هيا الآن! مد يعقوب يده بسرعة داخل مياه الجرن. شعر ببرودة قوقعة السرطان وخفّة وزنه، ولزوجة المياه المليئة بالعوالق الرملية. زحف السرطان نازلاً. أوشك يعقوب ان يقفز فرحاً، وهو يمسك بدلو أمامه، لكنه فوجئ بجسدين آدميين ضخمين ومتصلّبين تماماً يتمدّدان جنباً إلى جنب على الرمال. جسدان لرجل وامرأة، بوجهين محمرّين جداً.

رجل وامرأة ضخما الجثّة (في هذا الوقت المبكر من النهار) يسترخيان هناك بلا حراك، رأساهما متجاوران، على بُعدِ أقدامٍ قليلة من حافّة مياه الخليج. وبالقرب منهما كان طائرا نورس (أو ثلاثة) يبحثان عن رزقهما برشاقة بين أمواج البحر المُتهادية، عند حذائي الشخصين.

كان صاحبا الوجهين الحمراوين والعريضين، يتوسدان علبتي محارم ورقيَّة، فانتبها لوجود يعقوب ونظرا إليه. فبادلهما النظر. تشبث يعقوب بدلوه وقفز بخفة وحذر مبتعداً. شعر بالرهبة في بداية الأمر، لكنه سارع خطواته أكثر فأكثر، متحاشياً موجات البحر المزبدة المقبلة صوبه. وفي غمرة ارتباكه اضطر إلى الانحراف قليلاً مغيّراً مساره. فأجفلت النوارس وابتعدت

لتحطّ على مسافة خطوات قليلة. شاهد امرأة سوداء ضخمة تجلس على الرمال، فأسرع نحوها.

أماه! أماه! قال وهو يلهث، ويتأتىء في كلامه.

في تلك الأثناء أدركت الموجة المرأة، وغمرتها بالمياه، لكنّها لم تتزحزح. بقيت ثابتة كالصخرة. أمّا يعقوب فسحبته الموجة بعد انحسارها إلى الداخل، وظهرت المرأة مغطاة بالأعشاب البحرية.

نهض يعقوب ووقف هناك بوجه متقبّض، كما بدا على ملامحه. تابع الموجة المنحسرة، وأوشَكَ أنْ يصرخَ من الفرح. فقد لفَتَهُ فجأة منظرُ جمجمة كاملة بين العيدان وأكوام القشّ المتجمّعة تحت الصخرة... ربّما كانت لبقرة، أو نعجة. كانت أسنان الجمجمة كانت لا تزال في مكانها، فشهقَ يعقوب في ذهول، وركض مسرعاً. أمسك بالجمجمة واحتضنها بكلتا يديه.

«ها هو ذا يعقوب!» هتفت السيدة فلاندرز، ودارت حول الصخرة، قاطعةً المسافة على الشاطئ في ثوان قليلة فقط. تساءلت: تُرى، ما ذاك الشيء الذي يحمله؟. نادته: «يعقوب، ارمِ ذلك الشيء الذي في يدك. هيا، ارمه فوراً وتعال إليَّ! واضحٌ أنه شيء مرعب. لماذا لم تبقَ معنا؟ يا لكَ من ولدٍ شقيّ! والآن، ارم ذلك الشيء الذي تحمله بسرعة وتعال معي أنت وشقيقك، أسرع». استدارت السيدة فلاندرز. أمسكت آرشر بإحدى يديها، وهي تتلمّس ذراع يعقوب باليد الأخرى. لكنَّ يعقوب تملّص منها وانحنى ليلتقط فكّ النعجة الذي سقط من الجمجمة.

حملت السيدة فلاندرز حقيبتها ومظلتّها، وأمسكت بيد آرشر. صعدت السَّفح مع طفليها، وأخذت تحكي لهما قصة السيد كورناو المسكين، الذي ذهب

بإحدى عينيه انفجار جسم غامض مليء بالبارود. كانت في أعماقها تفكّر فيما يمكن أن يبيّته القدر من مفاجآت هنا أو هناك في الطريق.

جمجمة النعجة الهرمة التي وجدها يعقوب مصادفة على رمال الشاطئ، على بعد خطوات من مكان العاشقين، سقط فكها الأسفل، فأصبحت مجرد عظمة بيضاء، جمجمة نظيفة، وأشدُّ نقاءً مما يمكن العثور عليه في كورنوول. ومن الممكن ذات يوم أن تنمو في محجريها أعشاب «البهشية» الشوكية (وهي شبيهة بالعكّوب). أو ربما تحولت مع الأيام ذرور، أو مضرب غولف تقلبه يد لاعب في صباح يومٍ صافٍ...، تثير ضربته الطابةَ الصغيرة زوبعة خفيفة من الغبار. إذّاءَ ذلك فكرت السيدة فلاندرز: لكن لا. ليس بين المنازل. وخطر لها أنَّ خروجها برفقة الصغار هي تجربة عظيمة الشأن. ذلك «أنني وحيدة، ليس معي رجل ليمدّ لي يد المساعدة، كأن يدفع معي عربة الأطفال. أمَّا يعقوب، فهو ولد صعبُ المِراس، وشديد العناد».

«هيا يا عزيزي، اِرمها بعيداً، كرّرت السيدة فلاندرز القول ليعقوب حين وصلوا الطريق. لكن يعقوب بقي يحايلها، ولم يمتثل لندائها. هبّت ريح خفيفة. فتمهّلت بتي فلاندرز لتفكّ دبوس قلنسوتها. أرسلت ناظريها بعيداً صوب البحر، وأعادت الدبوس إلى مكانه. لكن قوة الريح تزايدت، فهيّجت أمواج الخليج، كثورٍ حرون يتّقد حماسة قبل أنْ يتلقّى ضربةً موجعةً بالسوط. السيدة فلاندرز تعلم علم اليقين أنّ ثورة الموج هي إنذارٌ بحلول العاصفة، وهو ما يفهمه الصيادون أيضاً. ولهذا فإنَّهم يعودون بقواربهم الشاطئ. لاحَ على صفحة الماء الأرجوانية ضوءٌ مصفرٌّ باهت، لكنه سرعان ما انحسر. كان ذلك أوانٌ إضاءة المنارة. لهذا حسمت بتي فلاندرز أمرها. «هيا بنا يا أولاد، لنَعُد البيت»، قالت

لأطفالها. وكانت الشمس عندئذ تتوهج في وجوههم، وتوشّي بصفرتها الذهبية أشجار التوت البري الضخمة التي تتراقص مع هبوب الريح داخل السياج، تلك التي كان آرشر يتلهّى بسلخ بعض قشورهاعند مرورهم بالمكان.

«لا تتسكعا يا أحبائي!. ليس هناك ما يمَكنكما تغييره»، قالت، وهي تشدّهما لحثّهما على مواصلة المشي. كان في دخيلة السيدة فلاندرز شعور متعاظم ومقلق أيقظه منظر الأرض المصفرّة، لاسيما مع توهج مصابيح الإنارة فجأة في بيوت الدفيئة، وما تتركه الأضواء ساعة الغروب من تبدلات لونية بين الصفرة والسواد، وما ينتج عنها من إثارة وحيوية في الألوان، وهو ما جعل بتي فلاندرز تستشعر مزيجاً من المسؤولية والرهبة معاً. أمسكت يد آرشر بقوة، وتابعت طريقها صاعدةً سفح التلة.

«ألا تتذكّران ما أوصيتكما به؟» سألت ولديها.

«أنا لا أتذكّر»، أجاب آرشر.

«ولا أنا أيضاً»، قالت بتي بمرح وبساطة يميّزان سلوكها. ومن ذا الذي يمكنه إنكار عفويتها وخلو بالها، لاسيما حين يخالط ذلك ما يميز النساء عادة من انطلاق، وما نعرفه من ذكاء الأم، وحكايات الزوجات المسنّات، والطرق العشوائية، والجرأة المُدهِشة، والفكاهة والوجدانية – ثم من الذي يجرؤ على إنكار أن المرأة في هذه المجالات أكثر طرافة من الرجل؟.

حسنٌ. إذن، دعونا نحكي لكم قصة بتي فلاندرز من البداية.

وضعت يدها على مزلاج بوابة الحديقة.

«اللّحمة!» قالت وهي تتذكر، وتشدّ المزلاج للأسفل.

بتي أصبحت كثيرة النسيان هذه الأيام. وها قد نسيت إحضار اللّحمة.

في تلك الساعة كانت ربيكا تقف عند النافذة.

ضوء قنديل الزّيت القوي الذي احتلَّ وسط الطاولة في غرفة السيدة بيرس الأمامية عند الساعة العاشرة ليلاً كشف عُريّ تلك الغرفة. كان ضوؤه ينير جنبات الحديقة، ويغمر بقعة العشب المخضوضرة، ويسقط على دلو الأطفال، ونبات «زهرة النجمة» ذات اللون الأرجواني، ويصل حتى شجرات السياج. وعلى ضوئه كنت تميّز بوضوح عدّة الخياطة التي تركتها السيدة فلاندرز على الطاولة، والعديد من كراكر الخيطان القطنية البيضاء الكبيرة، ونظّارتها المعدنية، وعلبة الإبر، وبعض خيوط الصوف البنية الملفوفة حول بطاقة بريدية قديمة. كذلك كانت تظهر ورقات نبات الأسل، ومجلّات مُتخصّصة بصناعة الحبال، ومشمع اللينوليوم الملوّث بالرمل من أحذية الأطفال، والعنكبوتيات طويلات الأرجل التي تشابكت خيوطها من زاوية الغرفة إلى زاويتها الأخرى، ومنها إلى اللمبة المعلَّقة؟ كانت الريح العاصفة تدفع المطر فينسكب مدرارا على النافذة، فيبدو حبائل فضية لامعة في ضوء القنديل، وتجعل أوراق الشجر أحياناً تلتصق بقوة على زجاج النافذة، ويزيد من زمجرة وهياج العاصفة.

لم يستطع آرشر النوم.

أكبّت السيدة فلاندرز على صغيرها بحنان وقالت: «بنيّ، يجب أنْ تنام. لماذا لا تفكّر في قصص الجن، أو بالعصافير الجميلة في أعشاشها. أغمض عينيك، وتخيّل كيف تعود العصفورة الأمّ صغارها حاملةً دودة بمنقارها لتطعمهم. هيا، استدِر هكذا وأغمض عينيك». ثم كررت عبارتها همساً: «أجل. أغمض عينيك ونَمّ».

بدا النُزل صاخباً، ومليئاً بالفوضى. مياه الخزان تُخرخِر وتفيض داخل الأنابيب، ثمَّ تنسكب بقوة على النوافذ.

«من أين تأتي تلك المياه المنسكبة على الشبابيك؟» غمغم آرشر.

«هذه مياه الحمّام يا حبيبي، تنساب إلى الخارج»، ردت السيدة فلاندرز.

فجأة سمعت طقطقة في الخارج.

«والسخّان، هل ستفيض مياهه؟» سأل آرشر، وهو يفتح عينيه قليلاً.

«لا طبعاً، ردّت أُمّه، السيدة فلاندرز. ثمَّ أكملت: «الكابتن نائم منذ مدّة طويلة. هيا أنت أيضاً، أغمض عينيك، وفكر في الجنيات، اللاتي يغفين بين الزهور».

«حسبتُ أنَّه لن ينجو، آرشر – كان الإعصار مُخيفاً - همست بتي لربيكا المنحنية فوق موقد الكاز داخل الغرفة الصغيرة المجاورة لتتدفّأ قليلاً.

من حُسن الحظّ أنّ موقد الكاز صمد على الرغم من الريح التي لم يتوقف عواؤها الشديد في الخارج. ظلّ مشتعلاً على مهل بقربِ السّرير، ولا يفصله عن الطفل سوى كتابٌ مرمّي جانباً.

«هل تَقبّل الدواء جيداً؟» عاودت السيدة فلاندرز لتهمس في أذنها. فهزت ربيكا رأسها علامة الإيجاب، وهي تخطو نحو السّرير، لترفع اللّحاف عن آرشر. وأحنت السيدة فلاندرز رأسها لتطمئن عليه. بدت قلقة على الطفل الذي هجع أخيراً، وإنْ ظل وجهه مقطّباً. ارتجّت النافذة من الريح، فهرعت ربيكا كقطة رشيقة وسندتها بإسفين. عادت السيدة فلاندرز لمجالسة ربيكا حول موقد الكاز،

وشرعتا تتهامسان عن حالة الطفل. وفي الخارج جددت الريح العاصفة هبوبها بصورةٍ مفاجِئة، مقتلعةً كل ما لم يكن مثبتاً تماما في موضعه.

التفتت المرأتان سوّيةً إلى الطفل النائم في سريره، بشفتين مزمومتين، وقفزت السيدة فلاندرز صوب السرير تحسّباً، لمساعدة صغيرها.

«نائم؟»، همست ربيكا، وعيناها شاخصتان إلى السرير.

فهزّت السيدة فلاندرز رأسها بالإيجاب. وتمتمت: «تصبحين على خير، يا عزيزتي ربيكا». وكعادتها، ردّت ربيكا عليها متمنّيةً لها ليلة هانئة، وأتبعت عبارتها بكلمة «سيدتي».

بقيت الغرفة الأمامية في البيت مُضاءة، والستائر مفتوحة كما تركتها السيدة فلاندرز. وما تزال نظّارتها وأدوات الخياطة في مكانها المعهود، وبجانبها رسالةً ممهورة بخاتمِ سكاربورو.

كان ضوء اللمبة يتجاوز بقعة الحشائش في الحديقة، ويغمر حتى دلو الأطفال المُؤطّر بخطٍ ذهبّي، ونبتةِ «النجميّة» المُتراقصة بقوة مع الريح التي لا تني تزأر على الشاطىء، وتندفع بعنف ولامبالاة فوق المرتفعات. كانت الريح تصول في هبات مباغتة شرسة ثمَّ تتعولب وتأكل نفسها بنفسها. الريح الهوجاء في ثورتها تلك تجتاح أحياء المدينة المستلقية في بطن الوادي! وتجعل أضواء المصابيح في أرجاء الميناء كلها تتراقص وترتعد، كالكثير جداً من المصابيح المعلّقة، المتوهّجة في شبابيك غرف النوم! وفي الخليج عينه كانت تسوق أمامها موجات قاتمة هادرة، مكتسحةً مياه الأطلسي، وتهزُّ بعنفوانها البواخر المسافرة، وتُعكس صور النجوم في الماء قبالة الأفق.

سمعت تكّة من غرفة النوم الأمامية. لقد أطفأ السيد بيرس ضوء المصباح. وغرقت الحديقة في الظّلام، وتحوّلت إلى بقعة سوداء. وغرقت أرضية المكان بمياه المطر، ما جعل الأعشاب تُطأطئ رؤوسها وتذعن لقدرها. وسرعان ما ارتوت التربةُ وبدت مهيّأة لاحتضان الغراس مهما كانت طرية. لو أنك استلقيت على ظهرك وأمعنت النظر لما رأيت في العتمة غير الأرض السوداء وفوضى المكان... والغيوم التي تلفّ وتدور، والظّلال المشوبة بالكبريت في جوف الظلام.

وفي غرفة النوم الأمامية رمى الأطفال أغطيتهم، مكتفين بالشراشف، فقد كان الجو خانقاً، بسبب الرطوبة اللَّزجة. آرشر وحده كان مستلقياً بلا غطاء، وقد فرد ذراعه الصغيرة على المخدّة. وجهه كان متورّداً. وما إنْ انفرجت الستارة السميكة قليلاً بسبب الريح المتسلّلة من النافذة حتى استدار بنصف إغماضة. لفحت الريح الستارة فأودعتها ظهر خزانة الأدراج، فسمحت لشعاع الضوء الشفيف بكشف جانب من الخزانة، حتى برز بوضوح شكل أبيض، انعكست صورته كخطٍّ فضيّ على صفحة المرآة.

كان يعقوب يشغل، السرير الآخر الملاصق للغرفة وهو يغطّ في نوم عميق، كما لو أنه كان قد فقد وعيه. كان فكُّ النعجة بأسنانها المصفّرة محشوراً بين قدميه وحاجز السرير.

في الخارج لم يتوقف هطول المطر، كان مدراراً سخياً، حيث هدأت العاصفة مع ساعات الفجر الأولى. مياه المطر جعلت شجيرات النجميّة تتّكئ على الأرض، وملأ دلو يعقوب حتى نصفه، فأخذ السرطان المسكين، يدور ويدور في قاعه، محاولاً تسلّق حائط الدلو بأرجله الضعيفة، دون يأس أو استسلام.

الفصل الثاني

«السيدة فلاندرز»... أعني بتي فلاندرز المسكينة... بتي العزيزة... لا تزال تحتفظ بجاذبيتها الكبيرة «... والغريب أنّها ترفض أن تتزوج ثانية»... «صحيحٌ أنَّ الكابتن بارفوت... كان يزورها بشكلٍ مؤكّد في وقت محدد يوم الأربعاء من كل أسبوع، لكنّه يأتي بمفرده، دون مرافقة زوجته».

هذا بعض ما كانت نساء سكاربورو يردّدنه، ولكنها «خطيئة زوجته، إيلين بارفوت»، فهي لا تُجامل أحداً أبداً. وبعض النساء يقلن إنَّ «الرجل عموماً يفضّل أن يخلفه صبي».

إحدى النسوة تجرّأت وقالت: «بعض الأورام ينبغي استئصالها، لكن الورم الذي عانت منه أمّي بإمكانك تحمّله لسنوات وسنوات، حتى ولو لم يتح الاستمتاع بكأس من الشاي وأنت في السرير».

(ذلك أنَّ السيدة بارفوت كانت عاجزة).

هذه الثرثرات وغيرها الكثير لاكتها الألسن سابقا بحقِّ إليزابيث فلاندرز، ولن تتوقّف مستقبلاً، لاسيما أنّ إلزابيث ترمّلت وهي في منتصف الأربعينيات. فعاشت سنوات مليئة بالأسى، بعد موت زوجها، السيد سيبروك، مع أطفالها الثلاثة. فتحمّلت مسؤوليتهم، وعانت شظف العيش

والحرمان، لاسيما أنّها كانت تسكن في منزل على أطراف مدينة سكاربورو. أمَّا شقيقها المسكين، مورتي، فقد انهارت أعماله وقضى نحبه. وإلا أين هو مورتي الآن؟ وماذا كان يمثل؟ على أي حال، وقفت السيدة فلاندرز، رافعة يدها اتقاءً لضوء الشمس، وأرسلت ناظرها في الطريق، في انتظار الكابتن بارفوت. أجل، ها هو ذا الكابتن مقبل. إنه كعادته لا يخلف موعداً. واهتمام الكابتن بارفوت بها لم ينقطع أبداً، وهو السبب في تليين عريكتها، ودعم شخصيتها، وصبغ وجهها بلون الفرح، الذي كان يبكيه ليس أقل من ثلاث مرات في اليوم، بلا سبب واضح.

ليس مدهشاً أن يُبكي المرء زوجه. فهذا وارد، كما هو صحيح أنَّ شاهدة القبر، رغم بساطتها، ليست أكثر من قطعة فنية مجسّمة. ولكن حين كانت هي، هذه الأرملة المسكينة، تصطحب أولادها في أيام الصيف ليقفوا جميعا أمام شاهدة قبر الزوج، كان منظرهم يقطع نياط القلب أسى. كانوا يقفون هناك في انكسار، رافعين قبعاتهم بأعلى مما يفعله الآخرون. أكثر الزوجات كنَّ يأتين لزيارة أحبَّائهن الموتى وأيديهن في أيدي أزواجهن. لكن سيبروك منذ سنوات كان راقداً على عمق ستة أقدام تحت الأرض، محاطاً بتابوت من ثلاث طبقات، شقوقه مغلقة جيداً بالرصاص الثقيل. ليت الأرض وخشب التابوت كانا زجاجاً، إذن لأمكنها أن ترى وجهه من خلال البلور، وجه شاب له ضفيرتا شعر منتظمتان. سيبروك كان خرج لصيد البط، وكان يرفض ان يبدّل حذاءه.

شاهدة قبر سيبروك تحمل الكلمات التالية: «إنّه تاجر هذه المدينة»، وهي العبارة التي اختارتها بتي فلاندرز لأنّه بقي، كما يذكر كثير من الناس

حتى الآن، نحو ثلاثة أشهر يجلس خلف نافذة مكتبه. قبل ذلك بمدة مارس سيبروك مهنة ترويض الخيول، وكان يصيد الثعالب، وعمل حتى في زراعة الحقول. وهكذا عاش حياة متهوّرة ومتنوعة – والأهم من كل ذلك أنه كان لا بدّ لبتي أن تؤَبّنه بلقب ما، فيكون مثالاً يحتذيه أولاده.

هل يصحّ إذن أن نقول إنه لا يمثل شيئاً؟ هذا سؤال محرج، لا يمكن الإجابة عنه، نظراً لأنّه حتى لو لم يكن الحارس الذي يجهز الموتى للدفن معتاداً على إسبال جفني المتوفى، فإنَّ العينين ستفقدان بصرهما لامحالة بعد الموت. إنها الأيام. في البداية كان سيبروك فلذة منها، (من زوجته)، فأصبح الآن رفيقاً لجماعة أخرى. جسده أصبح يمتزج بالأعشاب على سفح التلة، بين آلاف الشواهد البيض، شواهد بعضها مائل قليلاً وبعضها يقف متنصباً بشكلٍ قائم، أصبح رفيقاً لأكاليل الزهر والصلبان المعدنية المخضَّرة، للدروب الضيقة المصفرّة، وأزهار الليلك المُتدلّية في شهر نيسان على سياج الكنيسة، والتي تنبعث منها رائحة كرائحة غرف المرضى. سيبروك، بل جسده، أصبح الآن هذا كله معاً. وعندما كانت بتي تخرج لتنثر الحبَ لدجاجاتها، وقد تزنّرت بتنورتها، سمعت جرس الكنيسة يدعو الناس إلى حضور قدّاسٍ أو لتشييع جنازة، كان يخيّل إليها أن سيبروك يناديها بصوته، صوت الموتى.

في مثل هذه المناسبات، اعتاد أحد الديكة أن يقفز إلى كتفها ويبدأ بنقر عنقها. لذلك أصبحت تحضر معها عصا طويلة (شبيق) أو تطلب من أحد أولادها مرافقتها ريثما تنثر الحب لدجاجاتها.

ومرة سألها آرشر بحماسة الطفل: «أُمَّاه، ألا تحتاجين إلى السكّين الذي أحمله؟».

صوت طفلها آرشر وقع في أذنها كصوت الجرس الذي سمعته للتو، جامعاً بصورة معقَّدة ما بين حيوية الحياة ومرارة الموت.

«يا له من سكين كبير بالنسبة إلى طفل!»، ردّت عليه السيدة فلاندرز، وجاملته بتناول السكين من يده. وفي تلك اللحظة تماماً اندفع الديك إيّاه من القن، فنادت آرشر لكي يغلق باب المطبخ المطل على الحديقة. نثَرت الحب ونادت للدجاجات لتأكل، ثمّ راحت تتجوّل في الحديقة، فشاهدتها السيدة كرانش، في الجهة المقابلة للطريق. السيدة كرانش كانت أساساً تنفض ممسحة الأحذية بضربها على الحائط، فتوقّفت للحظات لتخُبر جارتها – السيدة بيج – بأنَّ السيدة فلاندرز تتجوّل في الحديقة مع دجاجاتها.

وهكذا شاهدت النسوة الثلاث: السيدة بيج، والسيدة كرانش، والسيدة غارفيت جارتهن السيدة فلاندرز في الحديقة، وهي قطعة أرض بمنطقة «دودز هيل» المرتفعة، المطلة على القرية. وهذه التلة، دودز هيل، لا يمكن للكلمات أنَ تصف أهميتها. فهي بمثابةالكرة الأرضية، هي الدنيا مقابل السماء، وتُمثّل آخر تَخمٍ من التّخوم الأرضية في نظر أهالي القرية ذاتها، من الذين لم يغادروا قريتهم إلا للمشاركة في حرب القرم، أمثال السيد جورج غارفيت، الذي اعتاد أنْ يتكىء على بوابة حديقته ليدخن غليونه. دودز هيل بالنسبة إلى هؤلاء كانت أداة يقيسون بها مدى ارتقاء الشمس في كبد السماء، ويقدرون الوقت من ظلالها.

«ها هي ذي صديقتنا ترتقي السفح برفقة جون»، قالت السيدة كرانش للسيدة غارفيت وهي تضرب ممسحة الأحذية للمرة الأخيرة، وتتوارى خلف باب شقتها. فتحت السيدة فلاندرز بوابة الحديقة، وتوجهت دودز هيل، ممسكة

بيد جون. أما آرشر ويعقوب فكانا يسبقانها أو يتبعانها. على أي حال، حين وصلت القلعة الرومانية مع جون وجدتها هناك، يصرخان متعجبين من كثرةِ السفن في الخليج. الواقع أنَّ المنظر من هناك كان خلّاباً... وكانت سكاربورو من أولها حتى آخرها تتمدد كلغزٍ هناك. البحر من أمامها، وعددٌ من المستنقعات في الخلف. جلست السيدة فلاندرز ببدنها المتضّخِم في القلعة وراحت تستكشف المكان من حولها.

كان عليها أن تأخذ فكرة مسبقة عن التغَيْرات التي طرأت على مقوّمات المشهد بكامله. كيف يبدو في الفصول الأربعة، الشتاء والربيع والصيف والخريف، وكيف تهبّ العواصف من البحر، فتتماوج مياه السبخات وتعكس لون السحب الأبيض لدى عبورها السماء. ولا بدَّ أنهَّا لاحظت وجود المنطقة الحمراء، حيث تُبنى الفيلات، والخطوط المُتصالبة لتحديد العَرَصات المعدّة للبناء، وأشعة الشمس الماسيّة المنعكسة على زجاج البيوت الصغيرة. كان يمكن للسيدة فلاندرز، في حال فاتتها متابعة بعض تفاصيل المشهد المتّغيرة، أن تطلق العنان لخيالها وتُعاين انعكاس ظلال الألوان الذهّبية في البحر في معانقتها الشمس الغاربة، وأنْ تتخيّل كيف تتموّج أشعتها كدنانير ذهبّية على حصى الشاطئ. كانت الزوارق الصغيرة المخصصة للنزهات البحرية تنطلق جذلى في مياه الخليج، فيحتويها من ثَمّ لسان الرصيف المسودّ. ولم يفُت انتباه السيدة فلاندرز كيف كانت بيوت المدينة المُقببّة تتمرّغ بالظّلال الورديّة والذهبيّة، مكللّة بجو سديميّ، وتصدح منها الأصداء والموسيقى الصاعدة من آلات البانغو، فيما المتنزّهات تعبق برائحة الإسفلت الذي لا يكاد يفلت من أقدام المارة، ويعلق بها. وفي وسط الزحام كانت تندفع فجأة عربات المعربدين. كذلك لم يفتها مدى أناقة

الشركة التي صمّمت مساكب الزهور الكبيرة، ولا كيف كان الناس بين الفينة والأخرى يطلقون النار على طاقية قش تُرمى في الهواء. وقد تسنى لها رؤية أزهار التوليب تتلوّى تحت أشعة الشمس، وعددٍ من السراويل بجيوب إسفنجية منشورة هناك، وقلنسوات لها إطارات ناعمة بلون زهري، ووجوهٍ نكدة مستندة على كراسٍ متحركة. ومما رأته هناك لوحات مثلثة للإعلان على عربات مدولَبة يدفعها رجال يرتدون أردية بيضاء. أحد تلك الإعلانات الجانبية كتب بحروف حمراء وزرقاء وصفراء العبارة: «الكابتن جورج بويس يصطاد سمكة قرش ضخمة». وكل سطر في الإعلان ينتهي بثلاث علامات تعجُّب بألوان مختلفة.

ذلك كلّه دعا السيدة فلاندرز للنزول حوض الماء (الأكواريوم) المحجوب بساتر من شجر الصفصاف. ما لاحظته هناك، رائحة بول الخيول الملحية، كراسي الخيزران، طاولات عليها منافض السيجارة، السمكة الدوارة، والخادمة المشغولة بالحياكة وأمامها ست علب شوكولاتة (حيث إنها كثيراً ما تقضي ساعات عديدة وحدها مع السمكة) أو سبع، بقي في ذاكرتها كجزء من صورة القرش الضخم، الذي لا يعدو كونه وعاءً رخواً مصفراً، أو كحقيبة سفر غلادستونية (وهي حقيبة تفتح من الوسط نصفين) داخل خزّان للمياه. لم يسبق أن لقي زائر ترحيباً في هذا الأكواريوم. لكن وجوه العابرين الذين يظهرون فجأة سرعان ما تتبدل ملامحها الكالحة والمُحبِطة حالما يدرك أصحابها أنَّ السبيل الوحيد لإمكانية الوصول إلى الرصيف المقابل هو الانتظام في صف الواقفين. بوابة الدخول الدوارة لا تسمح إلا لشخصٍ واحد بالعبور، لذلك يتعين على الداخل، حين يفلت من الباب، أن يخطو خطوة أو اثنتين برشاقة من ينجو من مهلكة.

لكن ما جمع بينهم في نهاية المطاف هي الفرقة الموسيقية. حتى الصيادون على الرصيف التّحتي حجز كل منهم مساحة محدّدة قريبة من هذه الفرقة.

عزفت الفرقة ألحانها في الكشك المغربي. أخذت الفرقة تعزف المقطوعة التاسعة على ظهر السفينة، وهي أحد ألحان الفالس. وجوه العازفين: الفتيات الواهنات والسيدة الأرملة العجوز واليهود الثلاثة المقيمون في النزل الداخلي ذاته، وكذلك الشاب المتأنّق، والميجور، وسائس الخيل والرجل الثري، اكتست جميعها ملامح واحدة، ملامح مشوشة ومخطوفة، وكأنَّ الجميع كانوا مخدّرين. كان بإمكانهم، من خلال الشقوق بين الألواح الخشبية تحت أقدامهم، رؤية أمواج البحر المخضرّة تتهادى لطيفة رقيقة في حركتها الدائرية حول أعمدة الرصيف الحديدية.

لكن ما حدث من فوضى (كما رأى الشاب المتكىء على الدرابزين) لم تحدث منذ زمن. ويكفي أن تركِّزَ عينك مثلاً على تنورة السيدة ذات اللون الرمادي– تلبسها فوق جرابات الحرير الوردية. لونها يتبدل. التنورة تنزل حتى أسفل كاحليها – حقبة التسعينيات، ومن ثم زادت - في السبعينيات، ثم جاؤوا بالكرينولين الأحمر اللماع، فوق بطانة قطنية - الستينيات. وتجد قدماً صغيرة سوداء تبرز من الجرابات القطنية البيضاء. ألا تزال تلك السيدة تجلس هناك؟ أجل لا تزال على الرصيف. لكنَّ الحرير الآن أصبح مشجّراً بالزهور، لكن لم يعد المرء يرى ذلك كلّه إلى حدٍّ ما. اليوم لم يعد هناك رصيف تحتنا. وقد تتأرجح العربة الثقيلة نازلة على الطريق الرئيسية، لكن لا يوجد رصيف لتتوقف إلى جانبه في القرن السابع عشر كان البحر رمادياً وكئيباً!

وهي الآن دعونا نَزُرِ المتحفَ. هناك، في المتحف، ستشاهد القذائف الثقيلة، ورؤوس الرماح، والزجاج الروماني والكلّابات المغطاة بالزنجار الأخضر. وهذه الأشياء – كما يفهم من الكتابات الباهتة عليها - استخرجها في مطلع الأربعينيات الكاهن غاسبر فلويد على نفقته الخاصة، من باطن الأرض داخل المعسكر الروماني على مرتفع «دودز هيل».

والآن يا سيدة فلاندرز، ماذا تنوين رؤيته بعد هذا كلّه في سكاربورو؟

جلست السيدة فلاندرز على الدكّة الدائرية المرتفعة في المعسكر الروماني لترفو سروال يعقوب القصير. أكبّتْ على عملها مشغولة الفكر. لم تكن ترفع بصرها إلا لتمضغ طرف خيط القطن لإدخاله في سمّ الإبرة، أو إذا اصطدمتْ بها فراشة أو طنّت في أذنها برغشة.

كان جون الصغير يلهو حولها، ولا يكفّ عن رمي الأعشاب أو ورق الشجر اليابس في حضنها، ويقول لها إنه ورق «الشاي». وكانت هي تلملم كل ما يجلبه يعقوب الصغير وترتبه كما ينبغي. لكن لانشغالها بآرشر،كيف انه لم يستطع النوم الليلة الماضية،نسيت نفسها فوضعت الأزهار معاً دونما انتباه. وتمنّت لو كان باستطاعتها أنْ تشتري أراضي السيد غارفيت. وحين دقَّت ساعة الكنيسة، لاحظت أنّها متقدمة عشر دقائق أو ثلاث عشرة دقيقة عن الوقت الفعلي.

«جوني»، قالت لصغيرها. «هذه ورقة أوركيد، لاحظ هذه البقع البنّية عليها. والآن يا أحبائي هيا بنا، دعونا نعُدْ إلى البيت. آر- شر!ويع- قوب!، هيا بنا».

استدار جوني على الفور وردد مقلداً أمه: «آر- شر! يع- قوب!». ثم حمل ما جمعه من أعشاب ونثرها كما ينثر الحب. قفز آرشر ويعقوب من مخبأيهما وراء الأكمة لمباغتة والدتهما، وعاد الجميع أدراجهم.

تساءلت، وهي ترفع يدها لتفادي ضوء الشمس: «من هو الرجل المقبل من هناك برأيكم ؟».

«تقصدين ذلك العجوز الذي يمشي في الطريق؟»، رد آرشر، وهو ينظر بإمعان أسفل التلة.

«هو لا يبدو لي عجوزاً، قالت، وأضافت» إنه...لا، ليس الكابتن كما ظننت. هذا هو الكاهن فلويد. إذن، هيا بنا، يا أولاد"».

«يا له من رجل مزعج، هذا الفلويد!» قال يعقوب وهو يبعد عن وجهه نبتة شوكية طويلة بجانب الطريق. يعقوب يعلم أنَّ هذا الرجل قادم لإعطائهم درس اللغة اللاتينية، كعادته خلال السنوات الثلاث الماضية. كان الكاهن فلويد يأتي لهذا الغرض، كلَّما تسنّى له، ذلك أنّ السيدة فلاندرز ترى أنّه الرجل الوحيد الموثوق به في تلك الأنحاء لتعهد له بامتنان بهذا الجهد. فالأولاد كبروا، ولا بد من تأهيلهم قبل إرسالهم إلى المدرسة. ومن جهته، لم يكن السيد فلويد يبخل أو يقصر في زيارتها. فكثيراً ما كان يأتي بُعَيد وقت تناول الشاي في الأصيل، بخلاف الكثيرين من رجال الدّين، أو كان يستقبل أولادها في غرفته في الكنيسة– كيفما اتفق– نظراً لأنَّ مبنى الأبرشية رحبٌ ويسمح باستضافتهم. وعموماً كان السيد فلويد، عامة، حريصاً كوالده، على زيارة الأكواخ النائية، فيقطع مسافات طويلة مشياً على قدميه ليصل منزلها، ويمرّ بالسبخات الموجودة في تلك الأماكن. وهو

كوالده المرحوم أيضاً واسع العلم – الأمر الذي جعل من غير المعقول بالنسبة إليها، السيدة فلاندرز، أنْ ت... ناهيك عن أنّها... ما كانت لتسمح لنفسها أن تحلم بشيء كهذا. ثمَّ من أين لها أنْ تُخمّن؟ وبصرف النظر عن علمه الواسع، فقد كان الكاهن فلويد أصغر منها بثماني سنوات. والسيدة فلاندرز كانت على صلة بأُمّه، السيدة فلويد، وكثيراً ما كانت تزورها لتشرب الشاي معها. وذات مساء، زارتها، وتناولتا الشاي معاً، ومن ثمَّ ودّعتها وعادت إلى بيتها، حيث وجدت ورقة على الطاولة في الصالون. حملت الورقة الملفوفة، معتقدة أنّها تخصّ أحد أولادها، وتابعت طريقها إلى المطبخ لتعطي السمكة إلى ربيكا.

«هل السيد فلويد شخصياً الذي أحضر هذه الورقة؟... أجل، أعتقد أنَّ الجبنة لا بدَّ أنْ تكون داخل العلبة، في القاعة... نعم، في القاعة...»، قالت وهي تقرأ ما في الورقة، فأدركت أنَّ الرسالة لا تخصّ الأولاد.

«أجل. هناك ما يكفي لفطيرة السمك، في الغد طبعاً... ربما الكابتن بارفوت...»، تابعت القراءة حتى وصلت كلمة «الحب». توقفت ونزلت الحديقة، حيث أكملت قراءة الرسالة، مع حرصها على أنْ تبقى متّكئة على شجرة الجوز لتتمالك نفسها. خفق صدرها بقوة. رأت سيبروك يتجسد أمامها بكل حيويته. هزّت رأسها، وحدقت بعينين مخضلّتين بالدموع في وريقات الشجر الصغيرة التي يحركها الهواء في فضاء النهار الأصفر. شاهدت الإوزّات الثلاث تتحرك، بين الركض والطيران، المرجة الخضراء، وجوني الصغير يهشّها بعصاه الصغيرة.

احتقن وجه السيدة فلاندرز وتميّز غيظاً.

«كم مرة نبهتك ألا تفعل ذلك مع الإوزات؟» قالت لصغيرها بحدّة، وهي تنتزع العصا من يده.

«لكن الإوزات تركض يا أِمّاه!» صاح بصوت حانق، محاولاً التملّص من قبضتها.

قالت له: «أنت ولد شرير». «لقد حذّرتك ألف مرة، بدل المرة الواحدة. وعموماً، إيّاك أن تعود لمطاردة هذه الطيور!». اعتصرت السيدة فلاندرز رسالة السيد فلويد بيدها، وحملت جوني بعصبية، وهشّت الإوزات لإعادتها الحديقة.

دخلت البوابة وهي تتساءل في قرارة نفسها بمرارة: «كيف يمكن أن أفكر في الزواج!؟» أغلقت البوابة وربطتها بسلك متين. خلد الأطفال ليلاً إلى النوم. جلست وحيدة. لاحَ لها طيف السيد فلويد مجدّداً. خطر لها أنّها منذ صغرها لا تطيق الشعر الأحمر على رؤوس الرجال. دفعت صندوق عدّة الخياطة بعيداً. جذبت ورقة النشّاف صوبها، وعادت إلى رسالة السيد فلويد. وصلت كلمة «الحُبّ»، فأحست أنَّ صدرها يخفق، وإنْ بصورة أخفّ قوة هذه المرة. تراءت لها صورة جوني وهو يركض وراء الإوزات، لكنها اقتنعت أنّ من المستحيل أنْ توافق على الزواج من أحد... فما بالك بالسيد فلويد الذي يصغرها بسنوات كثيرة... مع كل وسامته، وثقافته الواسعة.

أمسكت القلم وكتبت: «عزيزي السيد فلويد»، لكّنها توقّفت عن الكتابة. ألقت القلم جانبا وتساءلت: «أتراني نسيت أمر الجبنة؟» كلا. فقد أخبرت ربيكا أنَّ الجبنة موجودة في الصالة. عادت لتكتب ردّها: «تغمرني دهشة كبيرة...».

في الصباح، استيقظ السيد فلويد فوجد رسالة السيدة فلاندرز على الطاولة. لكنها لا تبدأ بالعبارة «تغمرني دهشة كبيرة». لغة الرسالة كانت أقرب إلى أسلوب الأمهات، لغة مفعمة بالاحترام، مُتعِثّرة السياق، وتعبر عن الندم. لذلك فقد احتفظ بها لسنوات عديدة بعد زواجه من الآنسة ويمبوش، من أهالي «أندوفر»، ورحيله عن قريته. وهناك في أندوفر طلب من أبرشية شيفيلد منحه لقب راعي أبرشية، فأُعطي هذا اللقب. ثمّ أرسل خبراً إلى الأطفال الثلاثة: آرشر ويعقوب وجوني ليودعوه، وطلب أن يختار كلٌّ منهم أحبّ شيء يراه في مكتبه بالأبرشية، فيبقى ذكرى لديهم بعد رحيله. وقع اختيار آرشر على سكين قطع الورق، لأنه لم يرغب في اختيار شيء ذي قيمة كبيرة. واختار يعقوب أن يهدى له ديوان أشعار الشاعر بايرون. أمَّا جوني، أصغر الثلاثة، فكان من المتعذّر عليه معرفة ما يريد، فطلب أحد جراء قطة السيد فلويد، وهو ما عدّه شقيقاه اختياراً عبثياً. وما كان من السيد فلويد إلا ان لبى طلبه، فعلاً، قائلا: «وهذه القطة الصغيرة لديها فرو مثلك». بعد هذا كلَّمهم السيد فلويد عن الأسطول الملكي (الذي كان آرشر ذات يوم أبدى رغبته في الالتحاق به مستقبلاً)، وعن فريق لعبة الركبي (الذي سيلتحق به يعقوب). وفي اليوم التالي، تلقى الكاهن فلويد هدية هي عبارة عن صينية فضية، حين توجه في بادئ الأمر إلى شيفيلد، حيث التقى بالآنسة ويمبوش، التي كانت تزور خالها، ومن هناك ذهب هاكني... ومن ثمّ ماريسفيلد هاوس، فأصبح رئيساً لبلديتها. وأخيرا تولّى تحرير سلسلة مشهورة توثق سيرة حياة الجماعات الإكليركية، وظلّ على رأسها حتى إحالته على التقاعد، فاستقرّ في هامبستيد مع زوجته وابنتهما. وهناك كثيراً ما كان الناس يرونه وهو يقدّم الحبَّ لطيور البط،

على الشاطىء بركة «ليغ أوف موتون بوند». أما رسالة السيدة فلاندرز، فمنذ اليوم التالي لزواجه، بحث السيد فلويد عنها لكنّه لم يجدها. سأل زوجته ما إذا كانت تحفظها في مكان ما، بلا طائل. بعد مدة التقى يعقوب في «البيكاديللي» فعرفه فورا، خلال ثلاث ثوان - مع أنَّ يعقوب أصبح شاباً رائعاً - لكنَّ السيد فلويد لم يشأ ان يوقفه في عرض الشارع.

«هذا خبر مؤسف»، قالت السيدة فلاندرز، حين قرأت في حولية سكاربورو وهاروغيت، بأنَّ الكاهن أندرو فلويد، قد عُيّن رئيساً لمجلس بلدية ماريسفيلد، وحدست: لا بدّ أنّه فلويد ذاته الذي نعرفه.

خيّمت على الجميع، أثناء الطعام، سحابة خفيفة من الكآبة على المأدبة. فيعقوب منشغل بتناول المربى. ساعي البريد يتحدّث إلى ربيكا داخل المطبخ. ثّمة نحلة تطن وهي تلفّ وتدور حول الزهرة الصفراء التي كانت تتحرك عند النافذة المشرعة. كان الجميع يتمتّعون بحيوية، والسيد فلويد المسكين في طريقه رئاسة بلدية ماريسفيلد.

نهضت السيدة فلاندرز عن المائدة. توجّهت صوب القط توباز الجاثم إلى جانب الدرابزون، وأخذت تمسّد عنقه، خلف الأذنين.

قالت: «توباز، يا لكَ من قط مسكين!، قالت (ذلك أنَّ هذا القطّ الذي أهداه السيد فلويد لجوني قد أصبح هرما الآن، وقذراً قليلاً، ومما لا شك فيه أنّهم سيقتلونه ذات يوم).

قالت للقط المتمّدد في الشمس: «يا لك من مسكين، أيّها القط العجوز»، ابتسمت، إذ تذكّرت كيف خَصَته لترويضه، وأنها طالما كرهت الشعر الأحمر عند الرجال. ابتسمت ثانيةً ودلفت إلى المطبخ.

مسح يعقوب وجهه بمنديل متّسخٍ قليلاً تناوله من جيبه، وصعد الدور الأعلى.

خنفساء «الحنظوب» في العادة لا تنفق بسرعة (وكان جون هو الذي يجمع ذلك النوع من الحشرات). المدهش أنَّه على الرغم من أنها رجلي هذا النوع من الخنافس بقيتا طريتين على الرغم من أنها ماتت يوم أمس. لكن الفراشات متخشبة كلها. حلَّقت مجموعة من الحساسين الصفراء المغبرة هاربة بعيداً من رائحة البيض الفاسد، وطارت عبر البستان على سفح تلة دودز هيل وفوق المستنقعات القريبة، واختفت وراء شجرة الوزال، ثم ظهرت وما لبثت أنْ اتجهت تحت أشعة الشمس الحارقة كيفما اتفق صوب السبخة. إلى جوار المعسكر كانت النباتات البصلية الروماني تنعم بدفء صخرة بيضاء كبيرة. سمع أهالي سكاربورو فجأة صوت جرس الكنيسة يتردد في أعماق الوادي، حيث كانوا يتناولون لحم البقر المشوي. كان ذلك هو يوم العطلة الأسبوعية، واستطاع يعقوب الإمساك ببعض الحساسين المظللة بالأصفر في حقل البرسيم على بعد ثمانية أميال عن المنزل.

في تلك اللّحظات اكتشفت ربيكا فراشة العثة في علب داخل المطبخ، وسرعان ما انتشرت رائحة الكافور من تلك العلب، وامتزجت برائحة الأعشاب البحرية.

كانت شرائط صفراء معلقة على الباب، أبهتها الشمس، فحالت السمرة.

حمل يعقوب فراشة العثّة، جناحاها الأماميان مرقّطان ببقع بديعة لها شكل حبة الفاصولياء، وبلون أصفر مشوب بالسُمرة. لكن لم يكن هناك هلال على

جناحيها الخلفيين. تلك الليلة ذاتها، ليلة إمساكه بالفراشة، شهدت سقوط الشجرة. وسمع الناس اندلاعاً مفاجئاً لرشقات من الرصاص في أرجاء الغابة. عاد يعقوب أثناء الليل فحسبته أمه لصّاً. ولا غرو، فقد اعترفت أمّه بأنَّه لم يُطِع أوامرها، وكان الولد الوحيد العاق بين أخوته الثلاثة.

نظر موريس فراشة العثة وقال «الجميع هنا يعرف هذه الحشرة تماماً. وهي تعيش في الأماكن الرطبة أو السبخية». لكن يعقوب يدرك جيداً أنّ أغلبية أحكام موريس ليست مصيبة، ما يضطره لامتشاق قلمه وتصحيحها على الهامش.

الشيء اللّافت أنَّ الجوّ كان هادئاً، لا رياح فيه وقت سقوط الشجرة. وإذا شئتم شاهداً على ذلك فإنّ القنديل الموضوع على الأرض كان ينير أوراقها الخضراء الساكنة وأوراق شجرة الزان اليابسة. وكان المكان جافّاً. مع ذلك كان هناك شرغوف في المكان. حامت فراشة حول الضوء. لمع جناحها الخلفي بسرعة واختفت. لبث يعقوب في انتظار عودة الفراشة ذات الجناح الأحمر، لكنَّ أمله خاب. شعر باليأس، فا اضطّر للعودة البيت في وقت متأخرٍ، بعد منتصفِ الليل. كانت أمه تجلس وحيدة في انتظار عودته، تتسلّى بلعب السوليتير، وقد هدّها السَّهر.

«قالت السيدة فلادرز لابنها بصوت عال: خفت عليك جدّاً. خلت أنّ شيئاً ما قد حدث. لكن يعقوب لم يُجِب، وذهب فأيقظ ربيكا، مادامت ستنهض باكراً على أيّ حال. بدا يعقوب ممتقعاً، لاسيما أنه دخل الغرفة الدافئة في عتمة الليل، وعيناه شبه مغمضتين.

كلّا. جناح الفراشة الخلفي لا يمكن أن يكون مؤطّراً كطبق القش.

ماكينة جزّ العشب بحاجة دوما إلى تزييت، لتعمل بلا ضجيج. ولكن هذه الماكينة التي أدارها بارنيت للتوّ تحت شباك يعقوب، كانت تصرُّ... بحدّة، وتقرقع مع أنّها أبلت بلاء حسناً في حصد أعشاب الحديقة، وتعاظَمَ صريفها.

في تلك اللحظات بدأت السحب تتلبّد والسماء تكفهر. لكنَّ الشمس لم تمهلها، فقهرتها بأشعتها الباهرة.

في البدء سقطت أشعتها كعيون الغربال على القنطرة، وشيئاً فشيئاً أنارت السرير، وساعة المنبّه وعلبة الفراشات المفتوحة. فرفرفت الحساسين الصفراء المغبرة قرب السبخة، راسمة في طيرانها مسارات متعرّجة فوق حقل البرسيم الأرجواني. وتماوجت نباتات حشيشة الحجل على طول السياج. عصافير أخرى باللون الأزرق اختارت أنْ تقف على قطع العظام المتناثرة تحت أشعة الشمس عبر المرج، فيما انهمكت الدعسوقات الملّونة وكذلك طيور كثيرة بألوان طاووسية بالتغذّي على أحشاء طريدة سقطت من منقار بازيّ كان يطير بها. كان يعقوب يتجوّل داخل كهف تملؤه الشوكيات المزأبرة، على بعد أميال من المنزل، فعثر على فراشة من فصيلة (البوليغونيا) ذات الأجنحة البنيّة المسننة. وكان قد شاهد أميرة الفراش تطير أعلى فأعلى حول شجرة سنديان، لكنّه لم يستِطع الإمساك بها بأيّةَ حال. في كوخ قريب من ذلك المكان، على سفح التلة، كانت تعيش امرأة عجوز وحيدة. فأخذت تحدّث يعقوب عن فراشة أرجوانية عجيبة، اعتادت ان تأتي لتزور حديقتها في فصل الصيف. وأخبرته تلك المرأة أنّها كثيراً ما رأت جروي ثعلب يلعبان بين شجيرات الرتم

في الصباح الباكر. وقالت له في غمرة اهتمامها: إنّك لو راقبت المكان عند الفجر لرأيت زوجين من حيوانات الغرير، كثيراً ما يأتيان إلى هنا يلهوان معاً، فيطرح أحدهما الآخر، كطفلين من بني البشر.

«يعقوب: لا تبتعد عن المنزل بعد ظهر اليوم»، قالت له السيدة فلاندرز، وهي تطلُّ برأسها من الباب، «لأن الكابتن سوف يأتي لوداعنا». إنه اليوم الأخير من عطلات عيد الفصح.

يصادف يوم الأربعاء عيد ميلاد الكابتن بارفوت. لذلك فقد حرص في هذه المناسبة على ارتداء بذلته الصوفية الأنيقة. تناول عكازه ذا الحلقة المطاطية المشدودة – ليستعين به في مشاويره. الكابتن بارفوت يعرج، كما أنّه فقد اثنين من أصابع يده اليسرى خلال اشتراكه في الحرب الوطنية. وهكذا انطلق من بيته عند الساعة الرابعة عصراً بكامل أناقته.

قبل خروجه بقليل، أي عند الساعة الثالثة، مرّ السيد ديكنز، صانع الكراسي ذات العجلات بالسيدة بارفوت.

«ادفع بي هذا الكرسي»، قالت له السيدة بارفوت، وكان مضى ربع ساعة وهي تجلس في كرسي المرضى على أرض المتنزّه المستوية.

«هذا جيد الآن. أشكر لك معروفك يا سيد ديكنز». في المرة السابقة توجه بها إلى مكان مشمس، وفي المرة التالية يترك الكرسي في الفيء بعيداً عن ضوء الشمس المباشرة.

السيد ديكنز أحد السكان القديمين هناك، وتربطه بالسيدة بارفوت، ابنة جيمس كوبارد، علاقات وطيدة. ووالدها السيد كوبارد كان عمدة المدينة، وهو

الذي أقام سبيل مياه الشرب، عند التقاء شارعي «ويست ستريت» وبرود ستريت»، على سبيل الإهداء بمناسبة يوبيل الملكة فكتوريا. لهذا كرّمه الأهالي بتعليق صوره على جوانب عربات نقل المياه التابعة للبلدية وأعلى نوافذ الدكاكين، وعلى ستائر الزنك الواقية من الشمس فوق مكاتب مستشاري القضاء. لكن ابنته، السيدة إلين فوت، لم تذهب في أي يوم من حياتها لزيارة الأكواريوم (مع أنها كانت على معرفة جيدة بالكابتن بويس، الرجل الذي اشتهر لاصطياده سمكة القرش). وقد شاهدت بأمِّ عينيها كيف انهال الرجال حاملين الملصقات، متشامخين تيهاً. وكانت متأكدة من أنّها لن تتمكّن من رؤية آل بيروتس أو الأخوة زينو بينهم، ولا ديزي بود ومجموعتها من الفقمات اللعوب. كانت إلين بارفوت في كرسيّها الطبي سجينة أرض المتنزّه – سجينة الحضارة – حيث ترتسم في الأيام المشمسة مساقط قضبان زنزانتها ذات العجلات على أرض المتنزّه، فتتقاسم تلك المرتسمات ظلال مبنى البلدية، ومحلات بيع الأقمشة، وصالة الذكريات وكرسيها المتحرك عينه.

السيد ديكنز مواطن قديم هناك. وكان يأتي، فيقف خلفها قليلاً ليدخن غليونه، فتنتهز السيدة بارفوت الفرصة وتطرح بعض الأسئلة عليه... عن أهالي تلك المنطقة، أو اسم الشخص الذي يعمل حالياً في دكان السيد جون – ومن ثم عن الفصل الراهن... وما إذا كانت السيدة ديكنز تحاول... وكانت الكلمات التي تتلفّظ بها... أي كانت طبيعة تلك الكلمات، تخرج من فمها ككسرات البسكويت الجاف.

أغمضت عينيها. فتأملها السيد ديكنز، الذي لم تفارقه تماماً جذوة الرجولة، رغم أنه لو أمعنت النظر فيه، وهو مقبل، ستلاحظ كيف كان

رباط فردة حذائه الأسود يتحرك بقوة أمام الفردة الثانية حين يخطو بها. وقد لا يخطئ الناظر إليه وجود حزام ظليل بين صداريته وبنطلونه، وكيف يهوي جسده إلى الأمام متأرجحاً حين يمشي، كجواد هرم أفلت فجأة من ذراعي العربة التي يجرها. لا يبدو أنّ مشاعر الرجولة قد فارقت نظرات السيد ديكنز تماماً، وبإمكانك أن تلحظها في عينيه مع كلِّ مجّة تبغ من غليونه. وفي تلك اللحظة بالذّات كان يفكر بأنَّ الكابتن بارفوت، سيّده، في طريقه إلى «ماونت بليزنت». كان هذا شاغله وهو جالس في غرفة الضيوف الصغيرة فوق القبو، والكناري في الشباك أمامه، ويراقب الفتيات المُكّبات على ماكينات الخياطة، والسيدة ديكنز مع معاناتها من الروماتيزم – أقول: إنّه في ذلك البيت عينه، الذي لم يقدّم لأهله الكثير من العمل المنتج، كانت مسألة أنّ العمل في خدمة السيد بارفوت مفيدة له. وكان يحلو له التفكير بأنَّ ثرثرته مع السيدة بارفوت أمام المنزل وفّر خدمة للكابتن في التعرّف إلى السيدة فلاندرز. في الوقت عينه كان هو، بوصفه رجلاً، يقوم على خدمة السيدة بارفوت، المرأة.

استدار فرأى السيدة بارفوت تتحدّث مع السيدة روجرز. تطلّع ثانية للتأكّد، فشاهد السيدة روجرز تغادر المكان. عاد أدراجه إلى العربة. سألته السيدة بارفوت كم الساعة. فأمسك بساعته الفضية الضخمة، ونظر فيها، وأجاب عن سؤالها بطريقة ودّية تنمّ عن طويته، بأنّه كان أوسع معرفة منها، ليس في معرفة الوقت بل بكل شيء آخر. وعلى الرغم من ذلك كلّه فقد كانت السيدة بارفوت تُدرك أنَّ زوجها، الكابتن بارفوت، كان في تلك الساعة في طريقه منزل السيدة فلاندرز.

وبالفعل كان الكابتن في الطريق إلى هناك. نزل من القطار، فلاح له مرتفع دودز هيل الجنوب الشرقي، مُزداناً بحلّةٍ خضراء تحت زرقة السماء المشوبة بلون التراب قبالة الأفق. وها هو الكابتن الآن يرتقي التلة. وعلى الرغم من رجله فإنه بقي محافظاً على مشيته العسكرية، أثناء صعوده تلّة دودز هيل. خرجت السيدة غارفز من بوابة الكنيسة فرأته مقبلاً، فيما راح كلبها، نيرو، ذو الأصول «النيوفاوندلاندية»، يحرك ذنبه يمنة ويسرة تحبُّباً.

صاحت السيدة غارفز: «كابتن يارفوت!»

«أسعد الله أوقاتك، يا سيدة غارفز»، رد الكابتن محييّاً.

سارا معاً في الطريق، حتى وصلا بوابة السيدة فلاندرز. رفع الكابتن بارفوت قبعته الصوفية الخشنة، وقال لها بأدبٍ جمّ:

«رافقتك السلامة، يا سيدة غارفز».

فاضطرت السيدة غارفز لمتابعة طريقها وحيدة.

أرادت أنْ تُتابع سيرها عبر أرض السبخة. تمنّت لو أَنّ في إمكانيتها أن تتمشّى على شرفة بيتها كعادتها في أواخر الليل؟ وليتها تعود لتنقر على زجاج مكتبها كعادتها وتصرخ: «انظر إلى القمر، انظر إليه، يا هربرت!»

فيستجيب هربرت لندائها، ويتطلع القمر.

تابعت السيدة غارفز طريقها السبخة، لكن شعوراً بالكآبة ساورها، ما إنْ وصلت فجوة أرضية مستديرة كالطبق، مع أنّها كانت دائماً تتمنّى الوصول ذلك المرتفع الأعلى أبعد قليلاً. جلست، وأخرجت كتاباً صغيراً تخبئه تحت عباءتها. قرأت أبياتاً من الشعر وهي تتلفَّت حولها. السيدة غارفز

لم تكن كئيبة جداً. وماذا يعني أنّها أصبحت في الخامسة والأربعين. لن تسمح لليأس أن ينال منها إلى هذه الدرجة، ويضطرها للانفصال عن زوجها، فتدمر بذلك عمل رجل طيب، كما كانت تهدده بين وقتٍ وآخر.

مع ذلك لا حاجة إلى الحديث عن المخاطر التي تواجه زوجة كاهن بسبب خروجها للتنزّه على ضفاف السبخة. السيدة غارفز، المرأة ربِعة القامة والسمراء، ذات العينين البراقتين، والتي تحرص على ارتداء قبعة مزينة بريشة طائر التدّرج، كانت من النساء اللّاتي يفقدن إيمانهن في أماكن كهذه... أعني أنّها تخلط بين ما هو شخصي وما هو عام - لكن أحداً لم يعرف عنها أنّها تخلّت قَطّ عن ولائها لزوجها، ولم تهجره. السيدة غارفز لم تُكمل قراءة القصيدة حتى النهاية. فضلّت مواصلة المشي بين المستنقعات، في انتظار بزوغ القمر من خلف أشجار الدردار الضخمة، وراحت تصغي بكل مشاعرها إلى صوت الطبيعة. افترشت العشب في مكان مشرف على سكاربورو... نعم، نعم، هذا ما حدث مع هذه السيدة بينما القبّرات تدوّم، ومع كلّ خطوة أو خطوتين تخطوها الخراف في صعودها سفح التلة لتقضم المزيد من الحشائش على وقع أجراسها الرنانة، مع أول نسمة تهب ثمّ تتلاشى في غضون لحظات تاركةً قبلاتها على وجنات تلك الخراف، وحين تُبحر المراكب في مسارات متشابكة على صفحة مياه الخليج، وكأنّ يداً غامضة تسيّرها، وحتى عندما تتناهى عبر الفضاء دمدمات تدوّي بعيداً، وتتراءى أشباح فرسان يمتطون خيولاً تعدو خبباً، وتتوقّف فجأة، وحين يصطبغ الأفق السابح بالزرقة بالأخضر المشبوب عاطفة – في هذه الأوقات تجلس السيدة غارفز، لتفكّر، مع زفرة حرّى: «ليت أحدهم يمنحني... أو

ليتني أستطيع أن أمنح أحداً...». لكن السيدة غارفز بدت غير متأكدة مما يمكن أن تمنحه الآخر، كما لا تدري من الذي بإمكانه أن يمنحها ذلك الشيء الذي تهفو إليه.

قالت ربيكا: «السيدة فلاندرز خرجت من خمس دقائق فقط، يا كابتن». وهكذا قرر الكابتن فوت أن ينتظرها حتى تعود. جلس على الكرسي ذي الذراعين. وأسند كوعيه عليهما، جاعلاً أحد كفيّه فوق الآخر، ثمَّ مدَّ رجله العرجاء إلى الأمام بقدر ما أمكنه، واضعا العصا التي تنتهي بطوق مطاطي بمحاذاة رجله الممدودة. بقي صامتاً، فيما عكست ملامحه شيئاً من القسوة. هل كان مشغولاً بشيء ما؟ ربّما هي الأفكار ذاتها التي طالما راودته، وما تزال؟ لكن هل كانت أفكاراً «لطيفة» وممتعة؟ والكابتن بارفوت كان رجلاً متقلّب المزاج، ويجمع بين العناد والإخلاص. في حضوره قد تشعر النساء «بسطوة القانون والنظام. لذلك فهو جدير بالاحتفاء به. وقد اعتاد أن يقضي قسماً من الليل يلعب البريدج»، وعُرف عنه أنَّ مجرد تقديم فنجان من الشاي أو أي شيء من هذا القبيل له من شأنه أنْ يُحيل المشهد بكامله إلى رؤى كارثية، «كشقلبة» المسافرين من كبائن سفينة تتعرض للغرق، ولا يبقى سوى قائد السفينة متمسّكاً بسترة النجّاة، يقارع أهوال العاصفة، يتلقّى ضرباتها، وقد تقهره على أيّ حال، العاصفة، لكنّه لا ينهزم أمام أيّ قوة أخرى. وقد يخطر للسيدة غارفز، على الرغم من كل شيء، أنني أملك روحاً، حين أخرج الكابتن بارفوت منديله الكبير الأحمر وتمخّط فيه. «والسبب في كل ما حدث هو غباء الرجل، والعاصفة مشكلتي مثلما هي مشكلته»... أجل، هذا ربّما ما دار في ذهن السيدة غارفز عندما

فاجأهم الكابتن بوصوله للاطمئنان عليهم، فوجد هربرت خارج المنزل، فأمضى ساعتين أو حتى ثلاث ساعات جالساً في كرسيه، في صمت كامل غالباً. لكنّ بتي فلاندرز لا تفكر بهذه الطريقة.

«أهلاً بك يا كابتن» قالت السيدة فلاندرز مرحّبة بالكابتن بارفوت، فور إطلالتها من باب غرفة الجلوس. «المعذرة، كان علي اللحاق بخادم باركر... وأرجو أنْ تكون ربيكا... أو يعقوب...»، أردفت وهي تلهث، وبمزاج رائق. وضعت جانبا الفرشاة الجديدة التي اشترتها من دكان بائع الألوان الزيتية. وتوجّهت النافذة، وفتحت مصراعيها، لأنَّ الجوَّ كان خانقاً كما قالت. ثم عادت لترتب أشياء البيت بلمستها اللهوف، فتسوّي غطاء السرير، والتقطت كتاباً كمن تثق بالكابتن وتُولع به، مع أنّها تصغره بسنوات عديدة. وبالفعل، لم تكن تبدو، في مئزرها الأبيض، متجاوزة الخامسة والثلاثين. وكان الكابتن بارفوت فوق الخمسين.

أخذت تتحدّث ويداها تتحركان على الطاولة. حرك الكابتن بارفوت رأسه من جهة أخرى، فصدرت عنه بعض الأصوات الخفيفة، لكنه ظل يتابع كلامها كما يحلو له تماماً – حتى بعد تلك السنوات العشرين.

«حسناً، قال أخيراً. «أخبرني السيد باولغيت».

كان في نيّة الكابتن أن يخبرها بأنّه سمع على لسان السيد باولغيت شخصياً أنه لا ينصحها بشيء أفضل من إرسال أحد الأولاد إلى الجامعة.

«السيد فلويد كان في جامعة كامبردج... كلّا، بل في أكسفورد. حسناً، في هذه الجامعة أو تلك»، قالت السيدة فلاندرز.

أرسلت نظرها خلال نافذة البيت الصغيرة، فانعكست بعينيها ألوان الليلك والأعشاب الخضراء في الحديقة.

وعادت لتقول إنَّ «آرشر يبلي بلاء حسناً. وقد بعث لي الكابتن ماكسويل تقريراً رائعاً عنه».

«سأترك لك رسالته لكي يطّلع عليها يعقوب»، ردّ الكابتن وهو يحاول إعادة الرسالة إلى المغلَّف.

«يعقوب، كعادته، لا يكلّ من ملاحقة الفراشات»، قالت السيدة فلاندرز بحدّة. لكنّها أضافت "«ولا شكّ في أنَّ دورة الكريكيت سوف تبدأ في غضون هذا الاسبوع».

«إدوار جنكنسون قدّم استقالته»، قال الكابتن بارفوت.

هتفت السيدة فلاندرز فجأة، وهي تحدّق بوجه الكابتن بإمعان: «وفي هذه الحالة، ستتولى أنت إدارة شؤون المجلس؟

«هذا وارد»، ردّ الكابتن بارفوت، وهو يغرق في الكرسي.

ولهذا فقد التحق يعقوب فلاندرز بجامعة كامبردج في العام ١٩٠٦.

الفصل الثالث

«هذه العربة ليست مخصّصة للمدخنين»، احتجّت السيدة نورمان بلهجة عصبية لا تخلو من الكياسة، حالما فتح بابها فجأة ودلف منه شابٌ ضخمُ الجثّة ليشاركها العربة. لكنَّ الشاب بدا أنه لم يسمع صوتها الواهن. ولأنَّ تلك كانت آخر محطّة في الطريق إلى كامبردج، فقد بقيت في العربة مع ذلك الشاب الغريب.

وبسرعة ضغطت مفتاح حقيبة زينتها، لتتأكد بأنَّ زجاجة العطر والرواية التي اشترتها من «مودي» في متناول اليد، مستغلة انشغال الشاب (الذي كان يقف وظهره لها، ليضع حقيبته على الرفّ العُلْوي). قررّت أن تُمسك زجاجة العطر بيمينها، وتشدّ كابل الهاتف باليد اليسرى. السيدة نورمان تجاوزت مرحلة الشباب، بل كهلة في سنّ الخمسين، ولها ولد يدرس في الجامعة. مع ذلك رأت أنَّ الرجال لا يؤتمن جانبهم. أكملت قراءة نصف عمود الصحيفة التي تحملها، ورفعت عينيها خلسةً من فوق حافّة الصحيفة لتتأكَّد أنّ الأمور تسير على ما يرام... فاستراحت. فكَّرت بأَنْ تقدّم له الصحيفة. لكنَّ شباب اليوم هل يقرؤون صُحفاً مثل «مورننغ بوست»؟ نظرت صوبه لتعرف اسم الصحيفة التي يقرؤها – لا بأس، إنّها الديلي تلغراف.

نظرت إلى جواربه (واسعة)، وربطة عنقه (رثّة). ثمّ قررّت أن تتأمّل ملامح وجهه. ركّزت نظرها على فمه. شفتان مزمومتان. نظراته خفيضة، لاسيما أنه يقرأ صحيفته. ملامح الشاب تنمُّ عن حزم، وحيوية تميّز الشباب، ملامح تعكس لامبالاته، وقلّة اهتمامه – فيما يخصّ القوة البدنية. لا، لا، لا! نظرت عبر النافذة إلى الخارج، وعلى شفتيها ابتسامةً خفيفةً، لكنها سرعان ماعادت وضعها الطبيعي، إذ أنّه لم يعرها أدنى انتباه. نظره معلّق في الخارج بعيداً عنها باستقامة صارمة... لم يكن معنيّاً بشيء. فهو خارج ذلك المكان الذي يجمعه بسيدة متقدّمة في السنّ حدّ ما... دقّقت في وجهه أكثر. بقي بصره شاخصاً، في المشهد الطبيعي خارج العربة تحديداً – بعينيه الزرقاوين. إذن هو غير مهتّم لوجودها. تساءلت في خلدها: هَبْ أنّه يتصرف هكذا، كردّ فعل على ملاحظتها بأن العربة غير مخصصة للمدخنين؟ لكنها أقنعت نفسها أَنّ تلك لم تكن غلطتها على أيّ حال.

يبدو أَنْ لا أحد يرى الآخرين على حقيقتهم، فما بالك بسيدة مسنّة تشارك شاباً غريباً عربة قطار. الناس عادةً ينظرون لأيّ شخص نظرةً عامة – فهم يرون الأشياء كلها عموماً – يرون أنفسهم... أنهت السيدة نورمان قراءة ثلاث صفحات من إحدى روايات السيّد نوريس. هل يصح أن تُفاجئ هذا الشاب (مع أنّه من عمر ابنها) وتقول له: «إذا أردت أنْ تدخن، فلا مشكلة عندي»؟ كلا. فقد كان لامبالياً بها تماماً... كما أنَّها لم تشأ أنْ تقطع عليه تفكيره.

لكن ما دامت السيدة نورمان، حتى وهي في هذه السنّ، قد لاحظت لامبالاته المُطلقَة بوجودها، مفترضين جدلاً أنَّه بمعنى من المعاني – بالنسبة إليها على الأقل – كان شاباً مميزاً ويفيض ألقاً، وأناقةً، وأُنساً، ولهُ بنية

جسدية جيدة كبنية ابنها؟ لكن لا بد للمرء أن يبدي أفضل ما يمكن من ظنون فيما يتعلق بما تضمره هي. على أي حال، تبين أخيراً أنَّ ذلك الشاب، ابن التاسعة عشرة، هو يعقوب فلاندرز. لذلك ليس مجدياً محاولة أنْ نحكم على الأشخاص من موقف واحد. لا بدَّ من دلالات لمعرفتهم، من دون الاكتفاء بما يقال عنهم، أو الحكم على مظهرهم أو سلوكهم. وكمثالٍ على هذا: عندما اقترب القطار من المحطة، فتح السيد فلاندرز بنفسه باب العربة، وأخرج حقيبة أدوات الزينة الخاصة بالسيدة نورمان وقال لها، أو قل تمتم في حياء شديد: «اسمحي لي»، حتى أنّه كان مضطرباً في تصرفه.

«من أرى...»، قالت السيدة التي حضرت لملاقاة ابنها، لكنها لم تكمل عبارتها هذه، بسبب الزحام على الرصيف، ولأنَّ يعقوب كان قد ابتعد. كانت ونظراً لأنَّ تلك هي مدينة كامبردج، حيث ستقضي السيدة نورمان عطلة نهاية الأسبوع، ولكونها لم ترَ في الشوارع طوال النهار غير الشباب، والطاولات المستديرة، فقد نسيت أمر رفيق سفرها، فسقط من حسابها كما يسقط دبوس من طفل ويضيع في بئر عميقة.

يقولون إنّ السماء واحدة حيثما نظرت إليها. ويا لها من فكرة تُشكّل مصدراً لعزاء المسافرين والذين تحطّمت سفينتهم أو تقطّعت بهم السُّبل، وللمنفيين والمحتضرين. ومما لا شكَّ فيه أنَّ السماء، ذلك السطح الذي يبدو لنا مستوياً، تُقدّم لهؤلاء عزاءً كافياً، بل توفر مسوغات لمن يميلون إلى الزهد. لكنَّ الأمور في كامبردج ليست كذلك - لاسيما في سقف كنيسة الكلية الملكية- فهناك فارقٌ واضح. فالمدينة العظيمة تمنح البحر أنوارها الليلية. فهل هو ضربٌ من خيالٍ أنْ نفترض أنَّ سماء كنيسة الكلية الملكية المشبعة بالأضواء المتكسرة

أخفّ، وأرقّ، وأكثر ألقاً مما هو في أيّ مكان آخر؟ وهل أنَّ كامبردج تبقى منورة، ليس خلال الليل فحسب، بل حتى أثناء النهار؟

تأمَّل، والناس يتوافدون لحضور القُدَّاس في الكنيسة، كم كانت تبدو مبهجة تلك العباءات المهفهفة التي يرتدونها، وكأنَّها لم تكن تشتمل على أجساد ولا من يحزن. ثم لاحظْ أيّةَ وجوه في روعة التماثيل المنحوتة، أي يقين، أيّة نفوس عامرة بالتّقوى هناك! رغم أنّك تشاهد أحذية السابلين الكبيرة تتحرك من تحت تلك الأردية التي عليهم. فأيّ نظام ذاك الذي ينُظّم حركة مهرجاناتهم: شموع ضخمة منتصبة، وشباب بأثواب بيضاء، في حين يتشبّث نسرٌ مطواع بالكتاب الأبيض العظيم، لكي يستعرضه الحاضرون.

من كل نافذة في الكنيسة ينسكب ضوءٌ مائلٌ محكومٌ بنظامٍ دقيق، ناثراً ألواناً أرجوانية وصفراء، حتى في أدقّ دقائقه، فيوشي كلَّ ما يعترضه من حجارة بالأحمر والأصفر والأرجواني. وحدها تلك الأضواء، سواء في ثلوج الشتاء كما في الربيع والصيف، تبقى قادرة على ممارسة جبروتها على الزجاج المطبّع للنوافذ العتيقة. وكما أنَّ بلورة القنديل تصد الريح وتمنعه من الوصول إلى اللّهب، حتى في أعتى الليالي، فإنّها أيضاً تسمح للنور الوقور بالوصول إلى جذوع الأشجار – وبهذا تبقى الأشياء داخل الكنيسة محتفظة برتابتها. تعلو أصوات المصلّين في مهابَة، فتتردّد أصداؤها في نغمات الأرغن الرزينة، كما لو كانت تدعم إيمان البشر بمسحة من التّوافق بين الأشياء. وتتماوج جماعات المصلّين بثيابهم البيضاء، فتنوس من ناحية أخرى، مثلما تعلو الأرجل وتنزل في رتابةٍ واضحة.

لو أنَّك ركزتَ قنديلاً تحت شجرة لزحفت إليه كلُّ حشرات الغابة – حيث يتحوّل المكان إلى لمّة غريبة، ذلك لأنَّه على الرغم من أنَّ تلك المخلوقات تأتي فتدور وتدور، وتترنَّح وتضرب رؤوسها على بلورة القنديل، لكن يبدو أنّه تخبّطٌ لا هدفَ منه – بدافع الغريزة لا أكثر. ولو وقفت تراقبها لأصابك الضجر من تهافتها على الضوء مرة بعد مرة، وهي تدق الباب استئذاناً بالدخول. وسترى أنَّ الضفدعة هي الأكثر انتشاءً بين الجميع، لأنَّها لا تكلّ من المنافسة للوصول إلى هدفها. لكن، ما الذي يحدث؟. ثمّة فرقعات مخيفة، كرشقة رصاص من مسدسٍ سريع - طقطقة قوية. الأصوات تتزايد، وتنتشر في مويجات، لتنتهي بخبطة، ومن ثم يرين الصمت - فهناك شجرة تتداعى وانتهت إلى السقوط - وهذا ضرب من ضروب موت الغابة. ويتجّدد عويل الريح كئيباً بين الأشجار.

لكن في قدّاس كنيسة الكلية الملكية، لماذا يسمحون للنساء بالحضور؟ يقيناً، لو أعملتَ فكرك (ويبدو أنَّ يعقوب خالي البال تماماً، برأسه الملقى إلى الوراء، وكتاب تراتيله المفتوح على المكان الخطأ)، أقول إنّك لو أطلقت العنان لعقلك ليتفكّر بأحوال هذه الدنيا، لفهمت أنَّ السبب بذلك هو تلك الأعداد من القبعات وأكداس الثياب الملّونة المعروضة على مقاعَد مصنوعة من عيدان الأسل. ومع أنَّ عقول الناس وأجسادهم قد تكون مفعمة بالورع، لكن يبقى لكلِّ امرئ فهمه الشخصي – فبعضهم يحب الأزرق، وبعضهم الآخر يفضل البني، وآخرون يحبّون الريش وغيرهم أميل البنفسج ونباتات «آذان الفار». لكن لا أحد يفكر في إحضار كلب الكنيسة، لأن الكلب وإن كان يجيد الركض على الطريق الحصوية، ولا يفسد الزهور، إلاَّ أنَّ طريقته في الشرود عن الطريق والتجوّل هنا وهناك،

وطريقته في التلّفت، ورفع رجله إذ يقترب من عمود، نابعة من نيّةٍ مُبيَّتة تجعل الدم يتجمّد في العروق (لو كنت أحد المصلّين – مع أنَّ الحياء وحده أمر لا شكَّ فيه). وذلك كله ينافي حشمة القداس. المرأة قد تكون على قدر من التقّوى، ومميّزة وضالعة في اللّاهوت والرياضيات واللاتينية واليونانية التي يتقنها زوجها، لكن أَنْ تحضر القداس أمر يدعو إلى التساؤل. لله في خلقه شؤون. وقد خطر ليعقوب، دونما سبب واضح أنَّ النساء فظيعات مثل الخطيئة.

تناهى إلى أذن يعقوب لغط وجلبة. رفع عينيه فالتقت بعيني تيمي دورانت، كانت تحدّق فيه بإمعان، ومن ثمَّ في وقار، رمشت بعينيها.

في الطريق إلى «غيرتون» كانت هناك فيلا يطلقون عليها اسم «ويفرلي»، وذلك ليس لأنَّ السيد بلومر كان معجباً باسم «سكوت» أو لضرورة أن يطلق عليها اسماً ما وكفى، بل لأنّ الأسماء مفيدة للترفيه عن الطلبة في سنة تخّرجهم. وبينما كانوا جالسين في وقت الغداء يوم الأحد، في انتظار اسم الخريج الرابع، دار عند البوابات الرئيسية نقاش حول الأسماء.

«كم هو متُعب هذا الأمر» قاطعتهم السيدة بلومر بحماسة. «هل يعرف أحد منكم السيد فلاندرز؟»

كان السيد دورانت يعرف صاحب هذا الاسم، لهذا توّرد وجهه قليلا، وقال بارتباك ما يفيد بأنّه متأكّد من معرفته – وأخذ ينظر إلى السيد بلومر ويهرش رجله اليمنى العرجاء. نهض السيد بلومر وجلس أمام الموقد. فأطلقت السيدة بلومر ضحكة ودّية كأيّ صديق. وبكلمة، لا يمكن للمرء أَنْ يتصوّر شيئاً أشدَّ رعباً من ذلك المشهد، أعني الجو العام، ذلك الموقع، بما في ذلك حديقة «ماي»

التي نكبت بعقم عبثي، ناهيك عن الغيمة التي شاءت المصادفة في تلك اللحظات أن تحجب الشمس عن المكان. طبعاً، بقيت الحديقة مرئية. وقد شخصت إليها عيون الجميع في تلك اللحظة بالذّات. الغيمة أحالت أوراق النباتات اللون الرمادي الكالح، والببغاوين أيضاً.

«أعتقد»، قالت السيدة بلومر، منتهزة فرصة انشغال الشباب بمشهد الحديقة لكي تنظر إلى زوجها، الذي رفض تحمل مسؤولية كل ما حدث، ولكنه أمسك بالجرس.

لا شيء يبرر هذه الثورة ضدّ لحظة واحدة من عمر الإنسان، عدا الفكرة التي خطرت على بال السيد بلومر المنشغل بتقطيع لحم الخروف، وهي أنه إذا لم يُقم أحدهم حفلة عشاء، وانقضت العطلة الأسبوعية مرة بعد مرة، وإذا غادر الخريجون جامعاتهم، فغدوا محامين، وأطباء وأعضاء في البرلمان، ورجال أعمال – ولم يُقِم أحد حفلة عشاء فإنَّ سأل جاره المباشر: «قل لي، هل لحم الخروف هو ما يعطي الصلصة طعم النعناع، أم أنّ صلصة النعناع تعطي الخروف طعمه»؟. السيد بلومر كان يريد من سؤاله أَنْ يكسر حاجز الصمت الذي ران في المكان من خمس دقائق ونصف؟

«لست أدري بالضبط، يا سيدي»، قال جاره الشاب، وقد احمر خجلاً. في تلك اللحظة تماماً وصل السيد يعقوب فلاندرز متأخراً، نتيجة خطئهِ في موعد الحفل.

بعد أن فرغ الجميع من تناول اللحمة، سمحت السيدة بلومر لنفسها بتناول طبق من الملفوف. وارتأى يعقوب أن يتناول طبقه من اللحم ريثما تنتهي

هي من طبقها الجديد. لهذا اضطر لاختلاس النظر إليها غير مرة ليتمكّن من تقدير الزمن اللازم لتناول طبقه، إذا أمكن. كان يعقوب جائعاً جداً. انتبهت السيدة بلومر شراهته في الأكل، وعلّقت بأنّها متأكدة أنَّ السيد فلاندرز لا يمانع... لكن إحضار الحلوى فجأة قطع عليها الكلام. فأومأت إلى الخادم بطريقة تتقنها لإحضار طبق ثان من اللحم للسيد فلاندرز. ثم نظرت إلى ما تبقى من الذبيحة فأيقنت أنّهَ لن يبقى سوى القليل من لحم الفخذ للعشاء.

لم تكن هذه غلطتها شخصياً، على أيّ حال – فهي لم تولد بمحض رغبتها قبل أربعين سنة، في إحدى ضواحي مانشست وحتى بعد ولادتها، هل كان بيدها أَنْ تنشأ بخيلة وطموحه إلى هذا الحدّ، بصرف النظر عما أوتيت منوعي فطريّ كان له دور في تدُّرجها الوظيفي، وفي مواظبتها كالنّمل على حثّ زوجها (السيد جورج بلومر) ودفعه للأعلى أمامها وارتقاء السُّلَّم؟ وهل سألتم ماذا كان ينتظرها في أعلى السُّلَّم ؟ ليس خافياً أنَّ من يصل إلى الأعلى يدرك أنَّ درجات السُّلّم أدنى منه. وإليكم المثال، حين حصل السيد جورج بلومر على منصب الأستاذية في الفيزياء، أو نحو ذلك، أصبحت السيدة بلومر في وضع يُمكنّها من التَّمسك بقوة بمكانتها الرفيعة، وبالتّالي النظر إلى الأسفل ودفع ابنتيها البسيطتين لتسلّق درجات السُّلَّم بالطريقة ذاتها.

قالت: «يوم أمس كنت مع ابنتيّ الصغيرتين في مضمار السباق».

كذلك لم تكن خطيئة البنتين أيضاً، أنَّهما دخلتا غرفة الجلوس بعباءتيهما ووشاحيهما الأزرقين، وقدمتا السجائر بأيديهما إلى الضيوف. إحدى البنتين، واسمها رودا، لها عينان رماديتان داكنتان. عينا رودا مدهشتان، وهادئتان كعيني والدها. أجل، هذا هو الواقع. لكن ما يميز عينيّ السيد بلومر الهادئتين

هو بريقهما الصافي بشكل عجيب. وكان بإمكانه، السيد بلومر، الخوض بمختلف الموضوعات: فيحدثك عن بلاد فارس، والريح التجارية[1]، ووثيقة الإصلاح، وحتى دورات الحصاد. ورفوف مكتبته تغصّ بمؤلفات ويلز وبرناردشو، كما تتكدّس على مكتبه المجلات الأسبوعية الجادّة أُمّ الستة بنسات، وهي مجلات يشارك في تحريرها مؤلفون موسومون بالشحوب، وينتعلون أحذية يعلوها الغبار – كتّاب عانوا عذاباتٍ شتّى، فجاءت كتاباتهم عُصارة أدمغتهم، مقالاتٍ تدعو الكآبة.

قالت السيدة بلومر بمرح، وأصابع يدها المحمرة العارية تنقر على الفهرست، حيث بدا خاتمها غير لائق: «أشعر أنني لن أعرف حقيقة شيء ما حتى أنتهي من قراءة الكتابين»،

«يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!» صرخ يعقوب، ما إنْ غادر طلاب السنة الأخيرة الأربعة المكان، ثمّ كرّر عبارته الضجرة للمرة الرابعة: «يا إلهي».

«هذه قذارة حقيقية»، أضاف، وهو يستكشف الطريق بحثاً عن شجرة ليلك أو عن دراجة... عن أيّ شيء يجعله يستعيد إحساسه بالحرية.

«هذه قذارة حقيقية»، قال موجّهاً كلامه إلى تيمي دورانت، ملخّصاً بذلك شعوره بالاستياء من ذلك التجّمع الطلّابي الذي رآه على الغداء، وهو عالم حريّ بالوجود – مما لا شك فيه – لكن لا ضرورة لوجوده أبداً، ولا لتصديق ما حدث، أعني حكاية برناردشو وويلز والمجلات الأسبوعية أمّ البنسات الستة! ترى، ما الذي يريد الوصول إليه، هؤلاء الكبار: الإلغاء

---

(١) هي رياح سطحية تهب من الشرق باتجاه الغرب في المنطقة الاستوائية.

والتدمير؟ ألم يقرؤوا هومر، وشكسبير، والإليزابيثيين؟ يعقوب رأى بوضوح أنَّ زبدة الموضوع يتعارض وأفكاره التي استخلصها من أيام الشباب ومن ميوله الطبيعية. لقد تلاعبت العفاريت ذاتها بهذا الموضوع الهزيل. لكن ضمير يعقوب كان ينطوي على شيء من الشفقة – تلك الفتيات الصغيرات المسكينات...

كانت شدة تأثر يعقوب وضيقه دليلاً على لهفته. فهو شاب متغطرس وغرٌّ في الحياة، لكنه واثق أنَّ المدن التي عمَّرها السابقون عند خطِّ الأفق كانت قد ظهرت كضواحٍ بُنيت من الطوب والقرميد وأماكن ضبط لكبح توهج النار والشمس. يعقوب كان سريع التأثر. مع أنَّ هذه الصفة تتعارض وما أظهره من صبر وهو يكوّر يديه معا ليحول دون وصول الريح عود الثقاب الذي يحاول إشعاله. فقد كان شاباً واسع الحيلة.

على أيّ حال، إنَّ الإنسان، سواء كان طالباً في سنته الأخيرة أم صاحب دكان، رجلاً أم امرأة، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى صدمة مع بلوغه سن العشرين- عالم الرجولة - صدمة تُوضّح بقتامة ملامحها حقيقتنا، توضح صورة الواقع، المستنقعات، بايرون، صورة البحر والمنارة، فك النعجة التي ما تزال أسنانها الموشاة بالأصفر مزروعة فيه، القناعة العنيدة التي لا سبيل إلى مقاومتها، كما تفسر العناد الذي يجعل من الفتى شخصاً ممقوتاً جداً - «أنا هو أنا. وأنوي ان أبقى أنا ذاتي أبداً، وهو عناد لامثيل في الدنيا لشكله، اللهم إلا إذا ابتكر يعقوب لنفسه شكلاً خاصاً به. وسيحاول آل بلومر منعه من خلق ذلك الشكل. عندئذ سوف تنقلب صورة ويلز وبرناردشو والمجلات الجادّة الغالية الثمن رأساً على عقب. في كل مرة يخرج يعقوب يوم العطلة لتناول الطعام – حيث تُقام

حفلات الطعام والشاي - تتبدى له تلك الصدمة عينها- ذلك الرعب – ذلك الضيق - ليعقبها الفرج. مع كل خطوة يخطوها يعقوب على ضفة النهر تراه يتنسم لأعماقه ذلك اليقين الثابت، والمتجّدد من مختلف الجهات: من انحناءة الأشجار، وكآبة العساليج التي ليّنتها مياه البحر المتبخرة، والأصوات المسافرة، التي تبدو معلّقة في الهواء، ونسمات أيار الربيعية، والهواء اللطيف المحمّل بأشياء دقيقة ناعمة - من تفتّح أشجار الكستناء وغبار الطلع، وكل ما يُعطي نسمات أيار قوتها، من الغبار الذي يحيل إلى الأشجار إلى هياكل غبشاء، مسمّراً البراعم فيها، ويمنح الأوراق لونها الأخضر. في الوقت عينه، لا يتوقف النهر عن الجريان، بين الفيضان والمسيل الرقراق، وبما يكفي لغمر المجذاف الذي يخوض فيه، ويجعل إحدى كفتيه تقطر ماءً إذ تطفو برشاقة لتغوص الكفة الأخرى للمجداف بين سوق نباتات الأسل المحدودبة، وكأنَّ المجذاف أصبح معتاداً على مداعبتها برقّة. كانت الأغصان الدقيقة، حيث رُبط القارب، تتدلى بكثافة مثل وابل من المطر الغزير، وأوراقها تلهو مع النسمات. مجموعة من أوراق الشجر العالقة في الماء، على شكلِ مثلثٍ أخضر، كالإسفين. حين يلفحها الهواء تشدُّ العساليج فتتحرّك بشكل سحريّ بديع إلى هذه أو تلك الجهة. وها هي الريح تتوقف فتشف في الحال عند حدّ السماء. هناك جلس دورانت ليتناول حبّات الكرز. كان ينتقي الحبّات السليمة، بينما يتخلص من تلك الفاسدة وغير الناضجة برميها داخل مثلث الأوراق الإسفينية الخضراء، فتلمع عيدانها في الضوء كلّما حركتها الريح. وبين وقتٍ وآخر كانت تسقط منه حبّة كرز حمراء قَضَم نصفها فيضفي لونها نضارة على اللون الأخضر للأوراق. استلقى يعقوب على ظهره في مكان مجاور. ظهر المرج الموشّى باللون الذّهبّي وزهر الحوذان على

مستوى ناظريه. أمّا النجيل الأخضر فلم ينتشر مثل حشائش المقبرة التي كادت تخنق حتى شواهد القبور، وانتصبت بدبقها ريانة بالماء. اعتدل يعقوب في جلسته، فشاهد من خلال الحشائش سيقان الأولاد وأرجل البقرات ترعى. أصاخَ السمع. استعذب أصوات قضمها الحشائشَ: «مَنشْ، مَنشْ»، من جذورها عند وجه الأرض. تناهى سمعه وقع أقدام أخرى بين الأعشاب، متداخلاً مع أصوات القضم: مَنش، مَنش، مَنش». طارت أمامه فراشتان بيضاوان، تحلقان أعلى، فأعلى، وأخذتا تدوران فوق شجرة الدردار.

«يعقوب ليس على ما يرام»، فكّر دورانت، وهو يرفع رأسه ويتوقّف عن قراءة الرواية. بعد لحظات عاد كتابه. قرأ بضع صفحات، ومن ثم رفع نظره ثانية بطريقة تنمّ عن فضولٍ حَذِر. في كل مرة يتوقّف دورانت عن القراءة وهو جالس في قاربه كان يُخرج عدّة حبّات من الكرز من الكيس الذي بيده، ويأكلها في شرود. وليس بعيداً منه تحرك عدد من القوارب، مجتازة الخليج من ضفة إلى أخرى في المنطقة الخلفية، لئلا يصدم بعضها بعضاً، أو تصطدم بالقوارب الأخرى المشدودة إلى مرابطها. هّبت ريح من خلال الفتحة التي بين صفّين من الأشجار، فبانت ملابس بيضاء، ولاح خيط من الدخان الأزرق – حيث تقيم السيدة ميلر حفلة صغيرة. حركة القوارب لم تتوقف. اقترب دورانت بقاربه من الضفة، دون أن ينزل منه.

«أووووه! صاح يعقوب إذ رأى القارب يتوقف عند الضفة، وحيث تمايلت الأشجار لتظهر من خلالها سراويل الفانيلا البيضاء الكثيرة.

«أووووه!»، صاح ثانية واعتدل في جلسته، فخالجه شعورٌ وكأنَّ قطعة من البلاستيك لسعته في وجهه.

«هؤلاء صديقات أمي»، قال دورانت. «لهذا ليست هناك مشكلة في أنْ يهتمَّ العجوز بو بالقارب».

دورانت أخبره أنَّ هذا القارب قام برحلة حول الشاطىء من منطقة فالماوث خليج سان إيفي، وأضاف إنَّ قارباً أكبر منه، قادراً على حمل عشرة أطنان، سيكون ملائماً لرحلةٍ طويلة في العاشر من حزيران...

«لكن هناك مشكلة تدبير المال اللازم»، قال يعقوب.

«أهلي سيتدبرون هذا الأمر» (إذ كان والد دورانت يملك بنكاً، قبل موته).

قال يعقوب بنبرة جافة: «لكنّي أنوي الحفاظ على استقلاليتي المادية»، (ذلك أنَّه أخذ يحتدّ).

أضاف بشيء من الغطرسة، وأخذ يفتش في جيبه عن رسائل أمه: «والدتي تحدثت في رسائلها عن إمكانية السفر هاروغيت».

سأله تيمي دورانت: «هل صحيحٌ أنكَّ ستتحوّل إلى الإسلام؟»

وكان يعقوب مع دورانت في غرفته وروى في الليلة السابقة قصة خاله مورتي.

«أعتقد، إذا ما صدقت الروايات، أنهَّ انتهى إلى طعام للقروش»، قال يعقوب، «أظنُّ أنهَّ لم يبق شيء من الكرز هنا، يا دورانت!»،أضاف وهو يمزق كيس الكرز ويرميه في البحر، وعندها فقط شاهد ضيوف السيدة ميلر المحتفلين في الجزيرة.

انتابته نوبة نكد واضطراب، وبدت الكآبة في عينيه.

قال هو: «فلنتابع السير... يا له من تجمّع بهيمّي....»

وهكذا توجها الجزيرة.

بدا كأنّ القمر يمنع حلول الظلام. ويجعل بنوره زهور الكستناء تبدو بيضاء وسط الخضرة، حتى في الليل، ويبدو حقل البرسيم في المرج مُتّشحاً بالسَّواد.

لا بدَّ أنَّ النادلين في مطعم ترينتي كانوا منشغلين في غسل الأطباق، كما يفهم من قرقعة الأطباق المسموعة في «غريت كورت». أمّا الغرفة التي يسكنها يعقوب فكانت في أعلى المبنى بمنطقة «نيفيل كورت»، في أية حال. لذلك فالوصول إليها يجعل المرء متعباً ولاهثاً بشدّة. وفي تلك الساعة لم يكن هو موجوداً هناك. ربما كان يتناول طعامه في قاعة المطعم. إن «نيفيل كورت» تغرق في العتمة حتى قبل أن ينتصف الليل بزمنٍ طويلٍ. وحدها الأعمدة الرخامية قبالتها هي التي تبقى بيضاء أبداً، والنوافير أيضاً. وقد كان للبوابة هناك أثرها المدهش، مثل شريطٍ مخرّم فوق بقعةٍ خضراء فاتحة. صوت قرقعة الأطباق مسموعة حتى من خلال النافذة، وحتى همهمات رواد المطعم. وفي القاعة المضاءة كان صوت الباب المتأرجح عند دخول أحدهم أو خروجه يُحِدثُ رجّةً خفيفة لكن مسموعة. ذلك أنّ بعضهم يبدو أنه قد حضر متأخراً المكان.

غرفة يعقوب فيها طاولة مستديرة وكرسيان خفيضان. وعلى رف سياج الموقد سوسنتان في زهرية قرب صورة أمُّه، السيدة فلاندرز. وهناك

أيضاً مجموعة بطاقات دعوة تخصّ جمعيات عديدة، وهلالات ذات نقش نافر (شعارات عثمانية)، وأغلفة أسلحة، وبعض الأحرف التي تُستهلّ بها الأسماء. كذلك كانت هناك دفاتر ملاحظات وغلايين. على الطاولة وضع يعقوب مجموعة أوراق يغلب عليها هوامش بلون أحمر – حتماً هي مقالة مخطوطة. «إذا كان التاريخ يتكَّون من سير حياة الرجال العظماء»؟ وإلى ذلك هناك كتب كثيرة، وعدد محدود في الكتب باللغة الفرنسية، ما يكفي لشخص نبيل أن يقرأ ما يختار حسب ذائقته، وبشهية كبيرة. على سبيل المثال، يمكنه أن يقرأ سيرة حياة دوق ولنغتون، أو فلسفة سبينوزا، ومؤلفات ديكنز، وملكة الجن، لاسيما بوجود قاموس في اللغة اليونانية، تخلّلت صفحاته وريقات من تويج الخشخاش، فضلاً عن مؤلفات من العصر الإليزابيثي. وفي العتبة شحاطة يعقوب، وهي متهرّئة تماماً، وأشبه بزورق محروق عند حافة الماء. وهناك كمية من الصور الإغريقية، ولوحة منقوشة من عمل السير جوشوا – وهي إنجليزية صرفة. ولا تعدم وجود روايات جين أوستن، ربّما بكلّ تبجيلها للفصاحة اللغوية. ويتوّج ذلك كله أعمال كارليل. لكن يجب ألا ننسى أنّ تلك الموجودات تضمّ أيضاً كتباً مرجعية عن فناني عصر النهضة الإيطاليين، وكتيباً عن أمراض الخيل، وكثيراً من كتب المناهج المتداولة. والهواء في تلك الغرفة الفارغة ثقيل، وبالكاد يحرك الستارة، أو أزهار المزهرية، كما لا يكفي لجعل أصغر الألياف في الكرسي المصنوعة من أماليد الشجر تصرّ، حتى وهي غير مشغولة.

نزل عجوز درجات السلم الجانبي للمبنى، وقد شبك يديه خلف ظهره، وثوبه الأسود يهفهف بمحاذاة الحائط (وكان يعقوب يجلس ويدخن

عند النافذة ويتبادل الحديث مع دورانت الذي يحدُّق في الخريطة). بعد لحظاتٍ، عاد العجوز أدراجه صاعداً الدرجات ذاتها إلى غرفته. ومن ثم تبعه رجل ثان، يرفع يده ممتدحاً أعمدة المبنى، والبوابة، والسماء. وجاء رجل آخر، يمشي في وثبات اعتداداً بنفسه. كان كلّ من هؤلاء الثلاثة يصعد استراحة درجٍ مختلفة، وأُضيئت الأنوار في نوافذ الغرف الثلاث.

وإذا ما أضيء مصباح في سماء كامبردج فلا بد أن مصدره تلك الغرف الثلاث: فهنا مجمع اليونانية، وهناك بحر العلم، ومن الطابق الأرضي تأتي الفلسفة. السيد هكستابل المسكين لا يستطيع أن يمشي بصورة مستقيمة. وما يزال السيد صبوئيذ منذ عشرين سنة الماضية يكيل المديح للسماء في كل ليلة. أمّا السيد كوان فما تزال تضحكه القصص ذاتها التي خبرها شخصياً. إنّ شعلة المعرفة ليست شيئاً بسيطاً، ولا طاهرة، أو عظيمة كلها، ولو أسعدك الحظ برؤية هؤلاء الثلاثة يجتمعون معاً في ضوئها، ضوء المعرفة، (سواء تمثَّلت في لوحة لروسيتي المُعلّقة على الحائط، أو في صورة مستنسخة لفان كوخ، وسواء أكان الذي في الزهرية هو الليلك أم مجرد أنابيب صدئة، فإنها تظلُّ مهيبة جداً! فما بالك باستكشاف ضاحية، تزورها للتمتع بمنظر ما، ولتناول كيكة خاصة! «وعلى فكرة، نحن المتعهدون الحصريون لهذا النوع من الكيك!» إذن، فلتَعد إلى لندن، لقد انتهت المتعة.

غرق البروفيسور العجوز هكستابل، الذي يغير ثيابه بطريقة حركة الساعة، في كرسيه. ملأ غليونه تبغاً، واختار ورقته؛ صالب رجليه، وأخرج نظارته.

جلست بهذه الطريقة جعلت لحم وجهه يندلق، وطيات رقبته تتهدّل فاقدة كل مسند يشدها. مع ذلك فرأس السيد هكستابل على استعداد لحمل محتويات عربة قطار إذا نزعتها من مكانها. توازن الرجل في جلسته وألقى إليّ نظرةً السطور المطبوعة أمامه، وليس سوى السماء وحدها تدري أيَّة حشود من الأفكار أخذت تتراكض في دهاليز دماغه، أفكار يسابق بعضها بعضاً كلّما تقدّمت أكثر، منتظمة، متسارعة، ومعززة بقنوات جديدة، حتى غصت بها الغرفة وضجّت بزحامها القُبّة وكل جنبات المكان كله. مثل هذا الاحتشاد للأفكار لا يحدث لأيّ عقل غير عقل البروفسور هكستابل. وعلى الرغم من ذلك، فهو يجلس أحياناً لساعات طويلة متواصلة، متمسّكاً بقوة بقائمة الكرسي، كشخصٍ مكروب وفاقد الحيلة وقد انفضّ عنه أصحابه، أو بسبب الآلام التي يعانيها من المسمار اللّحمي في قدمه، أو ربّما بسبب داء النِقرِس. ويبدأ المسكين بإطلاق اللعنات. وأجارك الله من سماعه يتحدث عن المال، أو وهو يخرج جزدانه الجلدي، جاحداً وجود أيّ قطعة فضية لديه، ومحافظاً على تكتّمه، وشكوكه، كزوجة فلاح عجوز تتقن فنّ الكذب - كأفضل تصوير لحالة جعلت تأخذ بروحه. لكن ما إنْ يستعيد الطمأنينة، حتى يغمر سيماءه هدوءٌ تام، وقد يغفو أحياناً، فيخيّل إليك أنه يقضي آناء الليل في النوم حتى لو جعل مخدته صخرة.

لكن دعونا نتابع حركة السيد صبوئيذ، في الغرفة المجاورة، وهو يقوم برحلة من عند الموقد، ليقطّع كعكة الشوكولاتة إلى أجزاء كثيرة. غرفة السيد صبوئيذ عادة لا تخلو حتى منتصف الليل من طلبة السنة الأخيرة، وقد يصل عددهم أحياناً إلى اثني عشر طالباً، وربّما كانوا ثلاثة أو أربعة فقط. كان هؤلاء إذا جلسوا

هنا كلا يتزحزح أحدهم من مكانه، لوداع الخارج أو لاستقبال الداخل الغرفة. أما هو فمهذارٌ، ثرثار، لا يكفّ عن الكلام، يتكلمّ، ويتكلمّ، ويتكلمّ– في كلّ شيء وعن أيّ شيء، وكأنّ كلّ شيء مباحٌ عنده – وتخال أنّ روحه نفسها تنسلّ عبر الكلمات من بين الشفتين كمسكوكات فضية، على أمل أن تستقر في عقول طلبته وتُشرِق كضوء القمر. أجل، يستعيدونها حتى بعد انصرافهم بوقت طويل، وإذا ما لفّهم السأم، فيتجدّدون بها.

«حسناً، لست أنا، أبداً. ذلك هو تشوكي العجوز. بني، كيف أحوالك مع هذه الدنيا، يا عزيزي؟». ويدخل تشوكي الطيب، ذلك الريفي غير الناجح، واسمه الحقيقي كان ستينهاوس. لكنه لا شكّ في أنّه استعاد صورة صبوئيذ من خلال كل شيء قاله في الماضي، كل شيء سابق، «ما تمنيته لم يحدث» – أجل، على الرغم من أنه في ذلك اليوم، بعد ان اشترى جريدته واستقلّ القطار، بدا له كل شيء صبيانياً، عبثّياً، كعكة الشوكولاتة، والطلبة الشباب. يلخص صبوئيذ الأمور مراجعاً نفسه: لا، ليس كل شيء. فهو سيرسل ولده هناك(الجامعة). لذلك فهو سيوفر كل قرش ليتمكّن من إرساله هناك.

وهكذا يواصل صبوئيذ كلامه، وهو يغزل بعباراته المحيّرة خيوطاً متينة– متحدّثاً عن أشياء يتناقلها الطلبة دونما تبصّر – أشياء يقصدها ضمن مختاراته الكلامية الناعمة، ليفتح بها نافذة على الجوانب المشرقة، المخضرّة، كما على الأشواك الحادّة أيضا، عالم الرجولة. أعجبته اللعبة. الواقع أنّ صبوئيذ يرى أنّ بإمكان الإنسان قول ما يريد، ما شاء الله، حتى يغدو عجوزاً أو يندثر ويدفن في أعماق الأرض، حيث تفقد القطع الفضية بريقها، وتصبح قراءة النقش عليها أسهل بكثير، والخاتم العتيق شديد النقاء، وتبقى الدمغة هي ذاتها – صورة رأس

فتى إغريقي. لكن صبوئيذ سيظلّ يحترم الصورة الصامتة. امرأة تبدي استخفافاً، وهي تبجّل الكاهن مرغمة.

اعتاد كوان، إيراسموس كوان، أنْ يجلس ليشرب خمرته البرتغالية وحيداً، أو مع شاب وسيم أحياناً، يشاطره ذكريات بعيدة. كان كوان يشرب خمرته ولا يتوقف عن سرد حكاياته، وينشد أشعاراً لاتينية لا يقرأها من كتب فرجيل وكاتالوس. لكأنّ اللغة الشعرية خمرة على شفتيه. وكثيراً ما تساءل: ماذا لو عرض له شاعر بالمصادفة؟. «أهذه هي صورتي؟ ربما يسأل، وهو يشير رجل ريّان الجسم، رجل يتبين أن عقله يمثّل فرجيل بيننا، على الرغم من أنّ جسده آخذ في الترهّل. أمّا فيما يخصّ أشياء أخرى، الأسلحة، النحل، وحتى أدوات الفلاحة، فقد كان من عادة كوان حين يسافر أنْ يحمل إحدى روايات الجيب الفرنسية، ويلفّ ركبتيه بدثار، متمنياً أن يعود بيته وأسرته سالماً، مع مرآة صغيرة يحفظها في بيت من القماش فيها صورة لفرجيل، لكي تشعَّ في عقله حكايات طيبة عن رؤساء جامعة ترينتي، وتتوهّج مع اللون الكميت للخمرة. لكنّ اللغة ذاتها على شفتي كوان هي خمرة. عنده فقط يمكن الاستمتاع بفرجيل. ومع أنّ الآنسة أومفليبي الكهلة كانت تغني أشعاره وهي تتمشّى في شارع باكس، وبدقّة. ودائماً حين تصل منطقة كلير بريدج يداهمها السؤال التالي: «ترى، لو التقيته، أيَّ ثياب سأرتدي»؟ وإذ تابعت طريقها نيونهام تركت لمخيلتها العنان لتصوير تفاصيل لقاءات بين رجال ونساء مما لا يوجد في الأدبيات المطبوعة. لهذا لا يتواجد في محاضراتها سوى نصف عدد الطلبة في صفوف السيد كوان، وهذا وحده يطيّر من رأسها ما كان يمكن أن تقوله أثناء شرحها للنّص. وبكلمةٍ واحدة، لو واجهت مدرّساً بصورة في مرآة تعكس ضآلة الحاضرين في درسه

فإنَّ المرآة ستتشقق. لكن كوان بقي يحتسي خمرته البرتغالية بلا أدنى شعور بالرفعة، وبالتالي لم يعد يُمِثّل فرجيل. لا، بل أصبح هذا الشعور يتركز أكثر على صورته كمعماري، ومخمّن للأراضي، ومسّاح، وتتجلّى في الخطوط المستقيمة التي تنظّم العلاقة بين الأسماء، والقوائم المعلَّقة فوق الأبواب. هذا هو النسيج الواجب أنْ يتوهج منه نور المعرفة، قدر الإمكان، أعني النور الذي يتسرب من اللغات المختلفة: الصينيّة، والروسيّة، والفارسيّة، والعربيّة، كما من لغة الرموز والأرقام، لغة التاريخ، لغة الأشياء التي عرفناها، وتلك التي ينبغي علينا اكتشافها. وهكذا، لو أنّ إنساناً رأى ذات ليلة في أعالي البحار، سديماً يغطي الأمواج المُتلاطِمة، أو لمح مدينة مضاءة، أو بياضاً في كبد السماء، كالذي ما يزال يغمر قاعة تريتي التي يتناولون فيها طعام العشاء، أو يغسلون الأطباق، فإنّ ما يراه ليس سوى إشعاع نور ذلك المكان – كامبردج.

قال يعقوب: «هيا بنا نزور غرفة سيمون». لذلك طووا الخريطة، بعد أن أعادوا كل شيء إلى مكانه.

كانت الأنوار تضيء جوانب الفناء كلها، وتسقط على الأرض الحصباء، مع تبايُن في درجة إضاءتها من بقعة أخرى في الأرض المزروعة بالحشائش الخضراء، ونبتات زهر الربيع المنفردة. في تلك الأثناء كان الفتيان قد آووا إلى غرفهم. لكن، ما تلك الخبطة التي تناهت المسامع؟ هرع الجميع متزاحمين نوافذ غرفهم ذات الإطارات المصنوعة من لدائن، وتراكضوا صعوداً ونزولاً لمعرفة تلك الكتلة الصماء التي سقطت على أرض الفناء. فوجيء الجميع بأنها خلية نحل، تلك الكائنات الذهبية الدودية التي بدت متكاسلة. وفجأة هدر المكان بالطنين، فاستجاب القمر المنير لنغماتها برقصة فالس مثيرة.

ثم أخذت معزوفة النحلات تبتعد في ضوء القمر، وتَماوتَت رقصة الفالس. على الرغم من أنّ الفتيان ظلّوا يدخلون ويخرجون، فإنَّ حركاتهم ربما كانت تَشِي بارتباطهم بمواعيد، ربما. ومن وقتٍ لآخر بعد العشاء كانوا يفاجَؤون بصوت بعض الأشياء التي تسقط، وكأنّها قطع أثاث ثقيلة. وكان طبيعياً، كلما حدث ذلك، أن يتوقف الفتيان عن القراءة فوراً، ويشخصوا بأبصارهم متسائلين. لكن، هل حقاً كانوا يقرؤون؟ من المؤكد أن شعوراً بالتركيز كان يسود الأفق. ومما لا شك فيه أنّ عدداً منهم كان يجلس خلف تلك الجُدان الكالحة. بعضهم كان فعلاً يقرأ في المجلات، أو مسرحيات الرُّعب أمّ الشلن الواحد. كانوا يجلسون في أوضاع مختلفة، فربما وضع أحدهم رجليه على مسند الكرسي، وغيره يدخّن، بينما ينَهمك ثالث في الكتابة. وكان الجميع مكبّين على الطاولة. وفي هذه الحال تلاحظ أنَّ الرؤوس تتحرك بشكلٍ نصفِ دائري لمتابعة حركة القلم – فتيان بسطاء كانوا، ولا حاجة لعدهم ناضجين تماماً. بعضهم كان يتناول الحلوى، وهناك يتبادلون اللكمات. حسناً، لا بدّ أنّ السيد هوكنز فقد عقله إذ إنه فتح شباكه وصاح «جو... زيف! جو... زيف»، ثمَّ ركض بأقصى ما أمكنه عبر الفناء، بينما كان هناك رجل عجوز يرتدي صدارية خضراء، وبيده كمية ضخمة من الأغطية المعدنية. تريَّث العجوز قليلاً في تردُّد، ليوازن حِمْلهَ ثمَّ استأنف سيره. لكن تبين أنَّ ذلك كان لهواً. كان بعض الفتيان منهمكين بالقراءة، في كراسيهم غير العميقة، وبأيديهم كتبهم وكأنّ عليهم إكمالها في جلسة واحدة. كانوا يتعذّبون، وهم القادمون من بلدات داخلية، لكونهم أبناء كهنة. عدد منهم يقرأ أشعار كيتس، وواحد منهم فقط بدأ يقرأ مقدمات تلك الكتب التاريخية الطويلة، في مجلدات عديدة، لعلّه

يتعرّف إلى ماضي الإمبراطورية الرومانية المقدسّة على حقيقتها. شكّل ذلك جانباً من حالة التركيز، مع أنّهَ أمرٌ خطير في ليلة ربيعية دافئة، ووجه الخطر فيه، ربَّما، يكمن في التركيز الشديد على كتب منفردة، على فصول حقيقية، حيث فُتح الباب في لحظةٍ ما وأطلَّ منه يعقوب، أو رتشارد بونامي، الذي كفّ عن قراءة كيتس، وأخذ يصنع لفافات وردية طويلة من جريدة عتيقة، وهو منحنٍ الأمام، وبدا فاقداً للحماسة والرضا، بل أصبح شرساً إلى حدّ ما. لماذا؟ السبب الوحيد ربما أنَّ كيتس مات في ريعان شبابه – والإنسان يجب أن يكتب أشعاراً وأن يحب – فيا لهم من وحوش! إنَّه أمرٌ بالغ الصّعوبة. لكن في نهاية المطاف هذا ليس صعباً في حال توافق عليه شابان أو ثلاثة شباب أو خمسة مقتنعين بهذا الأمر – أعني بتلك البهيمية، في إحدى الغرف الرحبة، أو على استراحة الدرج المجاورة، - كاقتناعهم بالفارق الواضح بين الخطأ والصواب. في الغرفة الأخرى كانت هناك كنبة وكراس وطاولة مربعة. وكانت النافذة مُشرّعة، وبإمكان الناظر مشاهدتهم وهم جالسون – وأرجلهم ممدودة بهذا الاتجاه أو ذاك، بينما أحدهم يجلس منكسراً عند زاوية الكنبة. ومن المحتمل أنَّ أحدهم كان يقف عند السياج ويتكلمّ، لكن دون أن يراه أحد. في أي حال، كان يعقوب يجلس منفرج الساقين على كرسيه ويتناول حبّات التمر من علبة متطاولة، فانفجر ضاحكاً. فجاء الردّ على ضحكته من فوق ركن الكنبة. ذلك أن غليونه كان معلّقاً أمامه، فأعاده فمه. أخذ يعقوب يدور في المكان. كان يفكر في أن يقول شيئاً حول الموقف الذي يجري، مع أنَّ ذلك الفتى صاحب البنية القوية والشعر الأحمر على الطاولة بدا رافضاً، وأخذ يهزّ رأسه على مهل من جهة إلى أخرى. تناول سكيناً، وغرز رأسها عّدة مرات في عقدةٍ بالطاولة

الخشبية، وكأنّه أرادَ أن يؤكد أنّ الصوت الذي جاء من عند الدرابزين لم يكن كاذباً – ما جعل يعقوب غير قادر على الرفض. ومن المُحتمل، أن يجد ما يمكن أن يقوله، حين ينتهي من صف نوى حبات التمر – وبالفعل فقد فتح فمه ليتكلّم – ولكن سيلاً من الضحكات قطع عليه سبيل الكلام.

تلاشت الضحكات في الأثير. لم يصل رنينها إلى الواقفين عند الكنيسة على الجانب المقابل لفناء البيت. أجل، تماوتت الضحكات، ولم يبقَ ثمَّة ما يدلّ على من يُطلِقها داخل الغرفة سوى إيماءات الأيادي وحركات الأجساد. فهل استُبدل بها حوار كلامي؟ حول سباق الزوارق؟ أم لا، لا شيء من هذا القبيل بين المتواجدين داخل الغرفة شبه المعتمة؟ وما الذي كانت تشكّله هناك حركة الأيدي والأجساد؟

على بعد خطوة أو خطوتين من النافذة خلا المكان من أي شيء، عدا الأبنية المحيطة - بمداخنها العمودية، وسطوحها الأفقية القرميدية والمباني استعداداً لإحدى ليالي أيار، ويتكشَّف المشهد، فتظهر التلال التركية الجرداء – ذات الخطوط الحادّة، والأراضي البور، مع بعض الزهور الملونة، والأوشحة المزركشة على أكتاف النسوة الواقفات بسيقان عارية وسط مياه الجدول لتنظيف الثياب بضربها مرة بعد مرة على الصخور. مياه الجدول تصطدم بكواحل أرجل تلك النسوة فتلتف على نفسها **كالأنشوطة**. لكن لا شيء يمكن رؤيته بوضوح خلف الأقمطة وحجب الظلام لليل كامبردج. حتى دقات الساعة جاءت مكبوتة، لكأنها ترنّم الكلمات التي يردّدها الكاهن من فوق منبره. ولكأنّ أجيالاً من المؤمنين المصلين سمعوا أخبار الساعة الأخيرة تتدحرج بين صفوفهم، فعادوا يطلقونها هادئة، ومهترئة بفعل الزمن، ومشفوعة ببركاتهم، لكي ينتفع بها الأحياء.

هل قصد ذلك الشاب من وراء اقترابه من النافذة، حيث وقف وسرّح نظره عبر الفناء، أن يتلقّى هذه الهدية من الماضي؟ ذلك كان هو يعقوب. وقد وقف يدخّن غليونه، مع آخر النغمات الناعمة التي تُطلِقها الساعة بجانبه. ومن المُحتمل أنّ نقاشاً كان يجري هناك. لقد بدا يعقوب راضياً، وبارعاً. لكن تغيراً طفيفاً اعترى ملامحه أثناء وقوفه، إذ أنَّ صوت الساعة يقول له (ربّما) شيئاً يدفعه إلى الإحساس بالمباني العتيقة وبالزمن القديم، وبأنه هو وريث ذلك التاريخ، وبالتالي الإحساس بالغدّ، والأصدقاء الذين يبدو أنّهم ما إنْ خطروا على باله، وهو في تلك الحالة من الثّقة المُطلَقة والفرح، حتى بدأ يتثاءب ويتمطّى.

في الوقت عينه، كان الشكل الذي اتخذه هؤلاء الفتيان خلف يعقوب، خلال النقاش أو غيره، الشكل الروحي، الصعب لكن المؤقت، سرعان ما تشظّى كما يحدث للزجاج حيال الحجر الأسود في جدار الكنيسة، إذ نهضوا من كراسيهم ومقاعدهم، مندفعين بكثير من الجلبة في أرجاء الغرفة، وراحوا يتدافعون قبالة باب غرفة النوم التي انتهوا إليها. لم يبقَ هناك سوى يعقوب وحده، في كرسيه غير العميق، ومعه أندرسن، وماشام، وسيمون. أجل، إنه سيمون، أما الآخرون فانصرفوا جميعاً.

«...جوليان المرتد...»، أيُّ كان الذي أطلَقَ هذه العبارة وغيرها من عبارات تهامس بها الناس عنه؟ لكن أحياناً تهبّ فجأة عند منتصف الليل ريحٍ قوية، كشبحٍ ملتفع بحجاب، وهذا ما يحدث الآن لتجرف عبر أزقة ترينتي الأوراق وتحجب الرؤية. هكذا، «جوليان المرتد» - ومن بعده الريح المنسية. فتعلو أغصان شجرة الدردار، وتخفق أشرعة المراكب ذات

الصاريين إلى الأعلى والأسفل، مع اشتداد الموج الرمادي في المحيط الهندي الدافىء في سورة غضبه العارم، لتعود وتهدأ من جديد.

وهكذا، لو أنّ تلك السيدة ذات الحجاب تجرأت وخرجت إلى أزقة ترينتي فستشعر ثانية أنّها متكاسلة، وتطفو ثيابها حولها، ويرتطم رأسها بأحد الأعمدة.

قال سيمون بصوته الخفيض: «ذلك مؤثر بعض الشيء».

جاءه ردّ بصوت أكثر ضعفاً. وابتلعت قرقرة الصنبور الحادة في أنبوب عند حافة المدفأة العبارة والرد معاً. ربما اكتفى يعقوب بـ«التنحنح»، أو لم ينبّس بكلمة. الواقع أنّ الكلمات لم تكن مسموعة. إنّها نتيجة لروح الألفة، ضرب من الهمس السري، نوعٌ من التسكين النفسي، حيث يضيف العقل العقل أشياء لا تمحى.

قال يعقوب، وهو ينهض ويقف جانب كرسي: «يبدو أنّك فكّرت بالأمر جيداً، يا سيمون». وازن وقفته. مال قليلاً. وبدا مُشرِقاً بصورة استثنائية، حتى كأنّ السعادة تفيض منه حين يتكلّم سيمون.

ظلَّ سيمون صامتاً، ويعقوب واقفاً. لكن حميمية علاقتهما، بعمقها وثباتها، كانت تعبق بها أرجاء الغرفة، مثل بركة عميقة. كانت متينة، وتتّقد بهدوء حتى تُغرق المكان، دون حاجة ما يحرّكها أو يصفها، وتنساب بهدوء، فتضُفي على العقل بريقا يضاهي بريق اللؤلؤ. عندئذ، لو رُحتَ تصف الإشعاع، وتوهّجَ كامبردج، فأنت بحاجة إلى الكلام فحسب. ذلك هو جوليان المرتد.

تحرك يعقوب. تمتم بعبارة تصبح على خير. وخرج إلى فناء البيت. شدّ أزرار جاكيته عند الصدر، وانسحب إلى غرفته. ولأنّه الرجل الوحيد الذي يمشي قاصداً غرفته في تلك الساعة، لذلك كانت خطواته مسموعة، وبدا جسمه ضخماً. كانت خطواته تعلن عن عودته لتقول: هذا هو الفتى يعود... من الكنيسة... من القاعة... من المكتبة، وكأنّها صدىً يردّده ذلك الحجر القديم بكل ما فيه من مهابة وسلطان: «ها قد عادَ الفتى... عادَ الفتى... عادَ إلى غرفته».

الفصل الرابع

ما الفائدة من قراءة شكسبير، لاسيما في إحدى طبعاته الورقية، التي تتجعد أوراقها، أو يلتصق بعضها ببعض بسهولةٍ بسبب ملوحة مياه البحر. ومع كل المديح الذي كثيراً ما تلاقيه مسرحيات شكسبير، وما يُقتَبس من تلك الأعمال حتى، بل وتقديمها على المسرحيات اليونانية، لكن لم يتسنَّ ليعقوب قراءة أحد أعماله. والآن يا لها من فرصة!

كانت جزر أرخبيل شيللي (عند بوابة القنال الإنجليزي) مرئية لتيمي دورانت، وتبدو له كمجموعة من الأسطح الجبلية التي غسلتها مياه البحر في الأماكن المناسبة تماماً. وقد اتضح أنّ حسابات دورانت دقيقة. أمَّا رؤيته جالساً في مركبه برقبته المتوردة، ولحيته النابتة، وهو يضع يده على ذراع الدفة، ويتأمل النجوم بإمعان، ويحدّق في البوصلة للتحقّق من وجهته، فمن شأن ذلك كلّه أن يلفت انتباه أي امرأة إليه. على أي حال، يعقوب ليس امرأة. ولم يكن ليهتم بهيئة تيمي دورانت بكل تأكيد. وقد تشاجرا معاً. لا أحد يدري لماذا يتركان الاختلاف حول الطريقة الصحيحة لفتح علبة لحم البقر، برغم وجود شكسبير في المركب، وفي ظروف رائعة أن يحولهما يافعين متجهمين. على أيّ حال، إنّ لحم البقر المعلَّب هو أحد الأطعمة الباردة. والبسكويت تفسده ملوحة البحر، كما أنّ الأمواج لا تكفُّ عن «شقلبة» حلوى الكراميل طوال

الوقت... قبالة الأفق. بين وقتٍ لآخر، يمكنك أن تشاهد موجة من أعشاب البحر تمرُّ بقربك، وفي وقتٍ آخر يظهر هنا أو هناك لوح خشب طافٍ. وما أكثر ما شهد هذا المكان عينه حوادث غرق للعديد من السفن. وربّما عَبَر مركب أو مركبان بسلام، وحافظ على مساره. وكان تيمي مُلمّاً بمراسي تلك المراكب، وخبيراً بطبيعة حمولاتها. ويمكنه باستخدام منظاره أن يُحدّد اسم هذا المركب أو ذاك، وتقدير الحصص التي يدفعها أصحابه إلى المساهمين بحمولته. لكن ذلك كلّه لم يرقَ السبب الذي دعا يعقوب التَّجهُم.

كان منظر جزر أرخبيل شيللي يشبه مجموعة من الأسطح الجبلية المغسولة...

وحدث، لسوء الحظ، أنْ كسر يعقوب مفتاح موقد الكاز من نوع **(بريموس)**.

ومن الممكن إلغاء وجود جزر أرخبيل شيللي **(غير صقلية)** بمسطرة تمرّ من فوقه.

من ناحية ثانية، من الواجب إعطاء الشباب حقّ الاعتراف بأنّ طعام الصباح الذي يتناولونه في ظروف كهذه يثير الاشمئزاز، لكنّها تبقى وجبة حقيقية تماماً. والآن لا حاجة إلى النقاش أكثر، فأخرجا غليونيهما.

سجّل تيمي بعض الملاحظات العلمية. ولكن جوهر السؤال الذي قطع عليهما السكون – وهو سؤال يتعلّق بالوقت الدّقيق أو اليوم المحدّد من الشهر؟ - أعاد طرح الموضوع بكل صراحة، بصورة مباشرة. وهنا أخذ يعقوب يستعدّ للسباحة. بدأ يفكّ أزرار ثيابه، وجلس شبه عارٍ، ولم يبقَ عليه سوى قميص قصير الأكمام.

بدأت مياه جزر شيللي تتلون بالأزرق الخفيف، تحوَّلت الأرجواني شيئاً فشيئاً ، لتنساب خضراء إلى البحر، وتنتهي إلى الرمادي، راسمةً شريطاً سرعان ما يمّحى. وبينما خلع يعقوب قميصه كان قاع الموج كلّه ملوناً بالأزرق والأبيض، مترقرقاً ومتغضناً، وبين الوقت والآخر كانت تظهر فيه علامة أرجوانية عريضة، مثل كدمة. وبدا السطح زمردة خضراء ضاربة الصفار. غاص يعقوب. ابتلع جرعة ماء مالح، لكنَّه لفظها. حرك ذراعيه تباعاً، فعلق بحبل. أخذ يلهث، متخبّطاً في لجة الماء، لكنّه تمكَّن من الصّعود المركب مستعيناً بحبل.

كان المقعد على ظهر الزورق ساخناً، وأحس يعقوب بحرارة الشمس تلفحه على ظهره العاري، والمنشفة بيده. راح يتأمل جنبات الجزيرة التي - يا لها من جزيرة لعينة! اصطفق الشراع في الهواء. فانقلب شكسبير في الماء، وكان يمكن رؤيته يطفو جذلانَ وهو يبتعد، وتتغضَّن أوراقه، حتى غرق.

من الغريب أن تشمّ رائحة البنفسج. وإذا كان وجود البنفسج في تموز متعذراً، فلا بدَّ أنّ اليابسة زُرِعت بنباتات أخرى لها روائح نفّاذة. واليابسة ليست بعيدة وتنعم بحلَّة من السكينة ودفء الشمس – إذ بإمكانك وأنت هناك مشاهدة حتى شقوق الجروف الصخرية، والأكواخ البيضاء، والدخان المتصاعد منها - وكأنّ بَركة الحكمة والتقوى قد هبطت على ساكنيها دفعة واحدة. فجأة تعالت صرخة من مكان وقوف بائع سمك البلشار في الشارع. الصرخة بدت مُحلّاة بثوب من التّقوى والسّلام. لذلك وقف الكبار عند المدخل، والفتيات أيضاً وقفن ناظرات من مكانهن جانب البئر، وأيديهن على خصورهن. وبدورها وقفت الأفراس تنُصِت معنّقات، وكأنَّها تشهد نهاية العالم بغتة، فيما استمرت مزارع الملفوف والجدران الحجرية

ومخافر الحراسة البحرية، والخلجان ذات الرمل الأبيض والأمواج في عملها التدميري الخفي، كأنّما كلّها تصعّدت في انتشاءٍ صوب السماء.

لم أفهم لماذا أخذ الدخان المتصاعد من الكوخ، شكل شعار حزين، مثل راية فاجعة رُفعت فوق قبر. وبدت النوارس المُحلّقة، وهي ترتفع وتقف بسكون في الجو، وكأنّما تؤشر إلى مكان القبر.

لو كانت هذه المنطقة هي إيطاليا، أو اليونان، أو حتى شواطىء إسبانية لرأيت الغرابة، والتأثّر، والعلم التقليدي تهزم الحزن. لكن تلال «كورنيش» عليها مداخن ضخمة، والجمال يرتدي حزناً جهنّمياً، بهذه الطريقة أو تلك. أجل، المداخن ومخافر السواحل، وكذلك الخلجان الصغيرة والأمواج التي تعمل تبعاً لقوانين غامضة تجعل المرء يقع فريسة لاستذكار الحزن الطاغي. ولكن أي حزن يمكن أن يكون هذا؟

إنّ الحزن ابن الأرض إيَّاها. يأتي من البيوت المتمددة على طول الشاطىء. ونحن البشر نبدأ الحياة بشفافية، ومن ثمّ تتكثَّف سحابتها. فإذا التاريخ برمته يسند اللوح الزجاجي بداخلنا. ومن المحال أن نُفِلتَ أبداً.

لكن من المتعذّر القول إن هذه هي القراءة الصحيحة لكآبة يعقوب، وهو يجلس عارياً في القارب، تحت أشعة الشمس، ويراقب حدود المكان. كان يجلس في صمت مطبق. ولم ينبس ببنت شفة. وبجانبه جلس تيمي يتساءل (للحظة فقط) ما إذا كان يعقوب منزعجاً من ذويه... لكن حتى هذه ليست مشكلة. فهناك الكثير من الأمور التي يتعذر الخوض فيها. وبالتالي علينا أن نتخلص منها، أن ننفضها ونطهر أنفسنا، وأن نتناول أي شيء يقع في أيدينا... ذلك ما كتبه تيمي دوران في دفتر مذكراته.

«الآن...» قال يعقوب أخيراً.

وكان نقاشاً هائلاً.

بعض الناس قادرون على متابعة المشوار بتحديد كل خطوة من الطريق بدقة، بل إنَّهم يبدؤون بخطوة صغيرة، لا تزيد على ست بوصات بمفردهم، وآخرون يقفون في انتظار أنْ تأتيهم إشارة البدء من الخارج.

إنّ النظر عادةً يتركز على المُسعِر، اليد اليمنى هي التي تمسك به وترفعه، فتديره على مهل، ومن ثمّ تعيده إلى مكانه بحرص بالغ. أمّا اليد اليسرى المستندة على الركبة فتعزف عزفاً متقطعاً مقطوعة موسيقية جليلة. لا بدَّ للمرء من التنفّس بعمق، ويترك هذا النفس يتلاشى من دون فائدة. وتمشي القطة مشية منتظمة على سجادة الصلاة، ولا أحد ينتبه إليها.

قال دورانت: «ذلك هو أقرب مكان يمكن أن أبلغه تقريباً.

وتمرّ اللحظة التالية بصمت كصمت القبور.

رد يعقوب: «هذا يعني...».

اتبع عبارته بعبارات أخرى مقطوعة، أنصاف جمل. لكنّ أنصاف الجمل التي يقولها يعقوب كانت بمثابة صوى مُركّزة فوق أسطح المباني، بالنسبة إلى من ينظر من الأسفل مشاهد خارجية. ما الذي يُمثّله شاطىء كورنويل، الفوّاح بروائح البنفسج ورموز الحداد وورع الهدوء، إن لم يكن شاشة عملاقة تمتد باستقامة في الخلف، حين يكون عقله، عقل يعقوب، ناشطاً؟

كرر يعقوب: «هذا يعني...».

قال تيمي بعد لحظة من التفكير: «أجل، هذا هو الواقع».

الآن أخذ يعقوب يتحرَّك بقوة، لكي يتمطّى من جهة أولى، وثانياً لخلق نوع من الابتهاج الصاخب طبعاً، ذلك أنَّ الصوت الأكثر غرابة الذي تردّد على شفتيه وهو يطوي الشراع قد رجّف طيّات ذاك الشراع، دونما إيقاع – وأنّه بات يمسك بتلابيب النقاش، أصبح سيد الموقف، وهو الذي سفعت الشمس وجهه غير الحليق، مما سيمكّنه من القيام بصفقةٍ ملاحية في أنحاء الدنيا كلها بمركب حمولته عشرة أطنان، وهو نشاط يأمل أن يقوم به قريباً جداً، بدلاً من البقاء في مكتب محامٍ، ولبس طماقات فوق حذائه.

قال له تيمي دورانت: «صديقنا ماشام لا يفضل أن يراه الناس معنا ونحن في هذه الحالة». لقد سقطت أزرار قميصه.

سأله يعقوب: «هل تعرف من هي عمَّة ماشام»؟

رد تيمي: «لم أكن أدري أنَّ له عمّة».

قال يعقوب: «بل له ألف عمّة».

قال تيمي: «واسم ماشام مذكور في كتاب يوم الحشر».

قال يعقوب: «وهذا هو شأن عمّاته».

علق تيمي: «شقيقته بارعة الجمال».

قال يعقوب: «وهذا ما سيكون من شأنك، يا تيمي».

رد تيمي: «وهكذا سيكون شأنك ».

«لكن تلك المرأة التي ذكرتها لك – أعني عمّة ماشام...»

قال تيمي: وإذ لاحظ أنَّ يعقوب غارق في الضحك، ولهذا توقف عن الكلام، قال له: «لا بأس، تابع إذن»،

«إنَّ عمّة ماشام...».

فجأة أخذت تيمي نوبة من الضحك أيضاً حتى تعذّر عليه متابعة الكلام.

«عمّة ماشام...».

قال تيمي: «لكن ما المضحك فيما يخص هذا الرجل، ماشام»؟

قال يعقوب: «دعنا نقفل هذه السيرة كلّها – ماشام كان رجلاً لا يتخلى عن ربطة عنقه».

قال تيمي: «وصار اللورد تشانسلر قبل أن يبلغ سن الخمسين».

قال يعقوب: «كان نبيلاً».

قال تيمي: «كذلك كان دوق ويلنغتون رجلاً نبيلاً».

قال تيمي: «كيتس لم يكن كذلك».

«لكن اللورد سالزبوري كان نبيلاً».

سأله يعقوب: «وماذا عن الربّ؟»

في تلك اللحظات أصبحت جزر شيللي مرئية، وكأنّ أحدهم يشير إليها مباشرة بإصبع ذهبية تخرج من سحابة. والكل يعلم مدى روعة ذلك المشهد، وكيف أنّ تلك الأشعة العريضة، سواء كانت تنير جزر شيللي أو تسقط على مقابر الصليبيين داخل الكنائس، كانت تهزّ أسس الشك، وتؤول إلى دعابات حول الربّ.

شرع تيمي دورانت يغني اللحن التالي/

* «ابقَ معي:

ما أسرع ما يهبط المساء،

وتتعمق الظلال،

فابقَ معي، ربّاه».

فقال يعقوب/

* في ديارنا اعتدنا أن نردد أنشودة كان مطلعها:

* أيها الربّ العظيم، ما الذي أسمعه وأراه؟

حلَّقت النوارس برشاقة قرب القارب، في أسرابٍ صغيرة، كلّ طائرين أو ثلاثة معاً. نزل أحد طيور الغاق على وجه الماء بخفّة، وكأنَّه يُلاحق رقبته الطويلة في مطاردة أبدية، حتى وصل إلى الصخرة التالية. وتردّد لحن مياه المدِّ الراجع من المغاور على السطح، رتيباً، خفيضاً، ومضجراً معاً، كصوت إنسان يتحدّث مع نفسه.

فانطلق يعقوب بالغناء:

• انفلقي في وجهي، يا صخرة العصور الأبديّة،
• دعيني أختبئ في حضنك.

انفلق وجه الصخرة الدهّماء كما ينفلق ضرس وحش عملاق مثلوم، وتفجرت منه شلّالات أبدية.

• يا صخرة العصور الأبديّة.

تابع يعقوب غناءه، وهو مُستلقٍ على ظهره، وعيناه معلَّقتان بالفضاء عند منتصف النهار، الذي خلَتْ سماؤه من أيّ سحابة، مهما صغرت، فبدا الفضاء كغطاء أُزيح عن كتلةٍ هائلةٍ.

تسلّلت عند الساعة السادسة نسمة من مسطّحٍ جليدي. وفي غضون ساعة، غلب لونٌ أرجوانيٌّ غامق، بدل الأزرق على وجه الماء. وفي حوالي السابعة والنصف أحاطت بجزر شيللي رقعة ذهبية كبيرة، كلون جلد سلوقي الصيد. واكتسى وجه دورانت خلف مقود القارب بلون أحمر حائل كغطاء علبة «لكر» طُليت منذ عشرات السنوات. عند التاسعة تبدّدت حرارة الجو وصفا اضطرابه، مخلّفاً بقعاً مثلثية بلون التفاح الأخضر، ومساحات مشوبة بالأصفر.

وتلألأت أضواء القارب مُتراقصة على صفحة الأمواج، وربّما استكانت مع تمدد الموجات أو تأوّج ذراها، لتختلط بشعاع المنارة الواصل في قفزات عجلى، عبر المسافة المائية، وبنجوم السماء المنعكسة كالذرور، نجوم متوهّجة من ملايين الأميال التي لا عدَّ لها. لكنَّ الموج فجأة لطم القارب بقوة، فانجرف ليتحطَّم بكل مهابة على الصخور الأزليّة.

من الممكن أن تدق على باب الكوخ وأن تطلب كأس حليب، فللضرورة أحكام، إذ أنّ حاجة الإنسان إلى ما يروي ظمأه هي التي تدفعه هذا التطفل. لكن لا بأس، فرّبما رحّبت صاحبة الكوخ، السيدة باسكو، بالضيوف الطارئين. فالنهارات الصيفية قد لا تمضي بيسر معها. كانت السيدة باسكو في تلك الساعة مشغولة بالغسل في حجرة صغيرة، لكن عملها لم

يمنعها من سماع صوت ساعتها رخيصة الثمن: تك، تك، تك...تك، تك، تك، الذي تأتنس بها في وحدتها بالمنزل الصغير. زوج السيدة باسكو ذهب لمساعدة فارمر هوسكن. أمّا ابنتها فقد تزوّجت وسافرت إلى أمريكا. كذلك كان ابنها البكر متزوجاً، لكن السيدة باسكو لم تكن راضية عن كنّتها. وقد جاء الكاهن ويسليان وأخذ منها ابنها الأصغر. وهكذا بقيت وحيدة. قبالة الأفق لاحت باخرة، ربّما متجهة إلى كارديف. وعلى مقربُة من المكان أخذت تنوسفي الهواء زهرات قفّاز الثعلب الأرجوانية، حين تحطّ عليها النحلات دون ان تتخلّى عن طنينها. كوخ السيدة باسكو كان واحداً من مجموعة أكواخ مبيضة على طول الكورنيش، ومبنيّة على حواف الجروف الصخرية، ويحيط بكل منها حاكورة مزروعة غالباً بنبات الوزال، كونه أفضل إنتاجاً من الملفوف. تلك الحدائق جميعها مسوّرة بحجارة الغرانيت التي ألفها الناس مكوَّمة هناك منذ القديم. في أحد الصخور، حُفر حوض، وعليه آثار دماء ضحية، حسب أقوال أحد المؤرخين، وأصبح حالياً مكانا يستريح عليه السيّاح الذين يأتون مدفوعين بفضولهم لمشاهدة رأس سمكة الغورنار الشائكة. ولم يكن ساكنو تلك الأكواخ يمانعون ارتداء الثياب الشّفافة، وصدريات بيضاء داخل حدائقهم.

«انظر... لا بد أنّ السيدة صاحبة الكوخ تمتح ماء من بئر الحديقة».

«ولا بدَّ أنها تعاني الوحدة في الشتاء، لاسيما والريح تصفُر بين جنبات التلال، والأمواج لا تكلّ من لطمِ الصخور.

الأمواج، حتى في أيام الصيف يمكنك أن تسمع تمتماتها.

حملت السيدة باسكو دلو الماء ودخلت كوخها. وشعر السياح بالندم لأنّهم لم يحملوا معهم نظّارة، ليتمكنوا من قراءة اسم الباخرة المُبحرة. الواقع أنّ ذلك النهار كان صحواً تماماً، ما يجعل النظّارة ضرورية للمراقبة. والآن، ثمّة مركبان شراعيان، يُعتقد أنّهما قادمان من خليج جزيرة آيفس، يبحران بعكس اتجاه الباخرة، ولكن قاع البحر بدأ يتبدَّل سريعاً بين الصحو والنوء. أمّا النحلات فترشف ما طاب لها من رحيق الأزهار، لتعود الشوكيات المزأبرة، ومنها مباشرة إلى حديقة السيدة باسكو، فتكون دليلاً للسياح للتفرُّج على ثوبها المطبّع ومريلتها البيضاء، وهي تقف عند مدخل الكوخ.

كانت السيدة باسكو تستخدم أصابع يدها لمراقبة البحر. فقد اعتادت أن تقف هناك وتتأمله بهذه الطريقة، ربّما ملايين المرات. رأت فراشة ملوّنة كريش الطاووس تقف فوق إحدى الأزهار الشوكية. اللّونان الأزرق والبنّي على جناحيها يشيران إلى حداثة ولادتها. دخلت السيدة باسكو كوخها للحظة وظهرت ثانية، وفي يدها طبق القشدة، فجعلت تفركه لتنظيفه. وجه السيدة باسكو ليس ناعماً، ولا انفعالات حسية أو شهوانية فيه. فكانت امرأة قاسية، متعقلّة وحذرة، وملامحها أقرب إلى نمط الناس المُحنّكين الّذين يتمتّعون بالحيوية. كانت مستعدة بالفعل لأن تكذب وهي تحكي الحقيقة. على الحائط خلفها كانت تعلّق سمكة مجففة من نوع «الورنَك». السيدة باسكو محشورة في بهوٍ مليءٍ بالحُصرِ والأكواب الصينية والصور، على الرغم من أنّ الغرفة الصغيرة المتربة لم تكن مَحميّة من الأبخرة المالحة لولا سماكة الطوب، بينما يمكنك من خلال الستارة المُخرمَّة أن تراقب طيور الأطيش تنقضّ على رزقها

كما الحجر، ومشاهدة أضواء البواخر المبحرة ليلا، وهي تظهر حيناً وتختفي أحياناً. وعموماً، فليل الشتاء هناك مملّ بصورة قاتلة.

وصلت لوحات الرسوم الورقية في الموعد المحدَّد، يوم الأحد. وقد فكرت السيدة باسكو طويلاً بزفاف الليدي سينثيا في الدير. ولطالما تمنت هي أيضاً لو أمكنها أنْ تستقل عربة ذات نوابض. وكانت كثيراً ما تستحي من كلماتها الفجّة حين تسمع العبارات الناعمة السريعة من المتعلّمين. وللتعويض عن هذا كانت تجلس طوال الليل مصغية إلى هدير أمواج الأطلسي مقابل الصخور، بدلاً من الاستماع لأصوات العربات ذات العجلتين، والعابرين وهم يصفّرون للسيارات... وربما راودها ذلك كحلمٍ وهي تفرك طبق القشدة لتنظيفه. لكنَّ الناس الثرثارين واليقظين اعتادوا على الحياة في المدن. لهذا كلّه كبتت السيدة باسكو مشاعرها في صدرها. ولم تفرّط أبداً بمشاعرها أو بقرش واحد طوال هذه السنوات، على غرار ما يفعله البخلاء، ولو أنّك راقبتها وهي تنظر إليها في غيرة، لبدا وكأنّها كلّها من الذّهب الصرف.

ركّزت هذه العجوز المتعقلة نظرها في مياه البحر، لكنّها سرعان ما راجعت نفسها. وقررَّ السُّياح أنّ الوقت قد حان لزيارة موقع رأس سمكة الغورنار.

بعد ثلاث ثوان فقط، طرقت السيدة دورانت بابها.

نادتك «سيدة باسكو»؟

كان موقف السيدة دورانت يتّسم بالعجرفة وهي تراقب السُّياح يجتازون طريق الحديقة. فهي تنحدر من سلالةٍ رفيعةٍ، سلالةٌ عُرِفت بزعاماتها.

أطلّت السيدة باسكو.

«أحسدك على هذه المزروعات يا سيدة باسكو»، بادرتها السيدة دورانت، فيما وقفت تتأمّل مظلّتها، التي قرعت بها الباب، بجانب نبتات القدّيس جون التي نمت هناك. ونظرت إلى مجموعة النبتات بازدراء.

قالت السيدة دورانت: «إنّني أتوقع وصول ابني في غضون يوم أو يومين»، إنّه قادم من فالموث في قارب صغير مع صديقه... لكن هل من أخبار عن ليزي يا سيدة باسكو.

أخذت الأفراس القزمة المتوقفة على مسافة عشرين متراً فوق الطريق ترقّص أذنيها. وكان الصبي، كورناو، يهشّ الذباب بعيداً من وقتٍ لآخر. شاهد كورناو كيف دخلت سيدته إلى الكوخ، وخرجت، وهي الآن تتمشّى هنا وهناك. واستنتج من حركات يدها وحماستها في الكلام أنها تتكلَّم عن قطعة الأرض المزروعة بالخضار أمام الكوخ. السيدة باسكو هي عمَّة كورناو الصغير، الذي وقف يراقب المرأتين أثناء تجوالهما في الحديقة الأمامية. كانتا تتوجّهان إلى شجيرة صغيرة. انحنت السيدة دورانت وقطفت غصناً منها. ثمَّ أشارت (بهيئتها المُتعجرفة، وهي التي تعتدّ باستقامة الأخلاق) شتلات البطاطا، وقالت جازمة إن نبتات البطاطا مصابة بآفة، مُضيفة أنَّ المزارعين عموماً يشكون من الآفات في محصول البطاطا كلّه هذه السنة. ولم تكتفِ السيدة دورانت بما قالته، بل قامت بإطلاع السيدة باسكو على تلك الإصابات. كانت مُتحمِّسة في كلامها، بينما كانت السيدة باسكو تستمع لها بكل تواضع. وقد فهم كورناو من كلام السيدة دورانت أنَّ علاج هذه الإصابة غاية في البساطة. فكلّ ما تحتاج إليه هو رشّها

بالبودرة المذابة في غالون ماء. وانتهت إلى: «أنّها وصفة مُجرَّبة، إذ أنَّني جربتها شخصياً على مزروعاتي».

«ليس من الحكمة ترك البطاطا على حالها – أجل. ليس من الحكمة تركها على حالها»، كرَّرت القول بطريقة مُتعالية، عندما وصلتا إلى البوابة، ما جعل كورناو يتسمّر كالحجر.

وأخيراً، صعدت السيدة دورانت إلى العربة وأمسكت بالمقود بيديها وهي تجلس في مقعد الحوذي.

قبيل انطلاق العربة، التفتت السيدة دورانت الوراء من فوق كتفها وقالت للسيدة باسكو: «عديني أن تهتمي برجلك المصابة، وإلا سأضطر إرسال طبيب لمعاينتك». ثمَّ همزت الجوادين القزمين، فانطلقا يجرّان العربة. جلس الصبي كوناو في منتصف المقعد الخلفي، يتلوّى من الألم بسببِ ضغط الحذاء الضيق على إبهامه. ولكنّه مع ذلك لم ينسَ أن يودع عمته باسكو بنظرة أخيرة.

وقفت السيدة باسكو على المدخل مودّعة الزائرين. بقيت هناك حتى وصلت العربة إلى المنعطف. عندئذ خرجت إلى البوابة، متلفّتةً ذات اليمين وذات الشمال. وأخيراً كان لا بّد لها أن تعود أدراجها داخل الكوخ.

تحرَّك الجوادان القزمان بهمّة، فكانت حوافرهما الأماميّة تُحدِثان أصواتاً مسموعة على الطريق المحاذي للمستنقع الطافح بالماء. عندئذ أرخت السيدة دورانت لهما العنان وأسندت ظهرها للخلف. شعرت أنَّ حيويتها قد تراجعت. بدا أنفها البازيُّ الأبيض نحيلاً وصافياً، حتى ليخيل لك أنَّ الضوء يكاد يبين

من خلال عظمته الشفّافة. ولك أنْ تلاحظ أنَّ يديها الممسكتين بالمقود في حضنها متصلّبتان حتى وهي مستندة الوراء. كانت شفتها العليا المشقوقة إلى الأعلى قاصرة عن احتواء أسنانها الأمامية، وتجعلها بصورة من يبتسم ساخراً. وخلال استرخائها، هكذا سرّحت عقلها المنفتح، متجاوزاً كل هذه الفراسخ الكثيرة التي تفصلها عن السيدة باسكو المتمسّكة بمُعتزلها النائي وطريقتها في التفكير.

فكَّرت وهي في مقعدها بتلك المرأة عبر تلك المسافة، فيما واصل النغلان صعودهما اللَّاهث على الطريق الجبلية. لقد كان عقل السيدة دورانت يعمل بنشاط لافت جيئةً وذهاباً، تماماً كما لو كانت تستفيء ظلال تلك الأكواخ غير المسقوفة، تلك الكتل من البقايا المعدنية، وما يحيط بها من أراضٍ مغطاة بنباتات كَفّ الثعلب والعلّيق. أخيراً بلغت أعلى التلّة. فأوقفت العربة لتستمتع بمنظر التلال المحيطة بالمكان، بصخورها الأزليّة المُتناثرة على سفوحها. وفي الأسفل انداح البحر مُترامياً، بما فيه من مياه مُتغيّرة الألوان. جلست على القمة تتأمّل البحر، فبدا لها عامودياً، وأعقف كمنقار نسر يحاول مثلها المحافظة على توازنه بين التفاؤل والتشاؤم. فجأة لكزت الجوادين فقفزا منطلقين، ما جعل الصبي كورناو يترنّح على أصابع قدميه حتى وهو جالس.

حطَّت مجموعات من الغربان. ثمَّ حلَّقت عالياً. بدا أنَّ الأشجار التي لامستها تلك الغربان بطريقة نزويّة لا تكفي لاستضافة أعدادها الكبيرة. وتأودت قمم الأشجار مُردّدِة أغاني النسمات. أخذت الغصون تصرُّ وتتحاكّ بصوتٍ واضح في عزّ الصيف، وبين حين وآخر كانت تتقشر وتتساقط

قشورها. ولم تتوقف حركة الغربان قطّ، صعوداً وهبوطاً بلا انقطاع، محلّقة في مجموعات أقلّ عدداً في كل مرة لتُخلي المجال للطيور الأكبر منها فتحطّ على الأشجار لتبيت فيها. فقد حلّ الظلام وأخذ يكتنف وسط الغابة. وصارت الطحالب لينة، وجذوع الأشجار أشباحاً. ومن خلفها انداح المرج الواسع بلون فضي. واستطالت أوراق «البمب» الزغبة على الروابي المخضوضرة على أطراف المرج، حيث يتلامع سطح مياه الجدول المترقرق. طارت فراشات المساء جذلى، فرحة بأزهار شجيرات اللبلاب، فراحت تدور حولها في لهو. ولم تلبث أنْ اغتسلت نباتات النستورتيوم» الأرجوانية والبرتقالية بغلالة الغسق، بينما حافظت شجيرات التنباك وزهرة الآلام، التي صارت مرتعاً لأعداد كبيرة من الفراشات الضخمة، على بياضها الذي يحاكي آنية الخزف. خفقت الغربان بأجنحتها لمرة أخيرة بصوتٍ مسموع فوق هامات الأشجار بما يعني بياتها، لكنَّ الصوت المُدوي الذي ألفه الناس في البعيد - جرس الدعوة لطعام العشاء في المنزل، تردّد بقوة، مثيراً الرعب في الأجنحة المطوية فنفرت واصطفقت مجددّاً في الهواء.

مرت ستة أيام من الريح المشبع بملوحة البحر، والأمطار والشمس، ارتدى يعقوب فلاندرز سترة السهرة السوداء، التي كثيراً ما يعثر عليها مرمية هنا أو هناك في القارب بين العلب المعدنية، وعلب المخلّلات واللّحوم المُصنّعة. السترة، على أيّ حال، ما عادت ضرورية جداً بعد توغلهما أكثر في مياه البحر. والآن، مع استقرار الجوّ في القارب المضاء بقنديل، تكون السترة ضرورية جداً للوقاية من سطوة البرد ليلاً. مع ذلك فيعقوب لم يكن راضياً تماماً. ومع أنَّ رقبته ورسغيه ووجهه ظلت مكشوفة بلا غطاء، ويشعر

بالضيق يؤثّر في كل كيانه، سواء أكان جسمه مغطى أم لا، فمن الصعب أن توفر له هذه السترة السوداء واقياً كافياً. سحب الساعد الأحمر الضخم الموضوع على غطاء الطاولة، حيث يحفظون خلفه كؤوساً صغيرة وشوكات فضية مقوّسة. وجد لحمة عظام الأضلاع الوردية مشرشرة – إذ كان في الأمس قطع شيئاً من لحم الخنزير بأسنانه! قبالته كانت تبدو أشكال شبه شفافة ملونة بالأصفر والأزرق. فيما وراء تلك الأشكال ظهرت الحديقة الخضراء المشوبة بالرمادي كلون الدُّخان، وبدت من خلال أوراق شجرة الإسكالونيا الإجاصية الشكل مجموعة من مراكب الصيد العالقة والمتوقفة هناك. وثمَّة سفينة مُبحرة تعبُر المكان بهدوء تظهر خلف النسوة. عند الغسق اجتاز شخصان أو ثلاثة شرفة السفينة بسرعة. فتح باب الشرفة وأغلق بقوة. اهتزت الأشياء كلها على الطاولة وتحطمت. انهالت العبارات التي كانت تقال على الطاولة هنا هناك، كمجدافين، من هذا وذاك الجانب.

«آه، يا كلارا. كلارا!» هتفت السيدة دورانت، فردد تيموثي دورانت: «كلارا، كلارا»، فارتسم في ذهن يعقوب شكل تلك الفتاة الملتفعة بثوب أصفر شفَّاف، كلارا، شقيقة تيموثي. كانت الفتاة جالسة وهي تبتسم، ومتورّدة. عيناها سوداوان كعيني شقيقها، لكنها أكثر غموضاً ونعومة منه. قالت والضحكة تتهاوت على ثغرها: «لكن، كان الأمر صحيحاً، يا أمّاه. هو من قال هذا، أليس كذلك؟ وقد وافقتنا الآنسة إليوت الرأي...».

لكن الآنسة إليوت، ذات القامة الطويلة والشعر الأبيض، كانت تفسح مكاناً مناسباً بجانبها لعجوز يدخل من الشرفة. خطر ليعقوب أنّ العشاء سيمتدّ إلى لا نهاية، وكان شخصياً يتمنّى ألا ينتهي، مع أنَّ السفينة العابرة

اجتازت فتحة الشباك المنظورة من حافة الحافة الأخرى، وهناك ضوء يحدد نهاية الرصيف. وقد شاهد يعقوب السيدة دورانت تُحدّق في ذلك الضوء. ثمّ استدارت صوبه وسألته:

«من الذي كان يقود الزورق، أنت أم تيموثي؟ وأرجو أن تسامحني إذا ناديتك باسمك، يعقوب. لقد سمعت عنك الشيء الكثير». قالت هذا وتحوّلت بنظرها البحر. كانت عيناها وهي تراقب منظر البحر ثابتتين كالخرز.

قالت بلا تحديد: «ذات يوم كانت مجرد قرية صغيرة، لكنها كبرت كثيراً اليوم...». نهضت، وهي تحمل منديلها، ووقفت بجانب النافذة.

«هل تشاجرتما، أنت وتيموثي؟» سألته كلارا باستحياء. «كان من واجبي...».

اقتربت السيدة دورانت من النافذة، فلم تكمل كلامها.

اعتدلت في وقفتها وقالت وهي تنظر إلى الطاولة «الوقت يتأخر أكثر فأكثر. ويجب أن تخجلوا، جميعكم». وأنت، يا سيد كلترباك، يجب أن تخجل أيضاً، أضافت بصوت عالٍ، ليسمع السيد كلترباك إذ كان أصمَّ.

قالت إحدى الفتيات: «نحن نشعر بالخجل». لم يهتمّ الرجل ذو اللّحية، واكتفى بمتابعة تناول كيكة الخوخ. فقهقهت السيدة دورانت حتى استلقت إلى الوراء في كرسيها، وكأنّها تستميله.

«دعينا نحتكم إليك يا سيدة دورانت» قال شاب يضع نظارات سميكة، وله شاربان شقراوان بلون النار. «من المؤكَّد أنَّنا حققنا الشروط، وهي مدينة لي بجنيه ذهبي».

«لكن ليس قبل تناول السمكة – سوية، يا سيدة دورانت»، قالت شارلوت ويلدنغ.

«هذا من ضمن الرهّان: مع السمكة»، قالت كلارا بجدية. لا تنسي البيغونيا، يا أماه. لتؤكل مع السمكة».

ردت السيدة دورانت: «لا عليك، يا عزيزتي».

قال تيموثي: «شارلوت لن تدفع لك».

قالت شارلوت: «كيف تجرؤ أن...»،.

«سيكون ذلك امتيازاً لي»، قال السيد المُتملِّق وارتلي، وأخرج علبة فضية مليئة بالجنيهات. أخرج منها جنيهاً ووضعه على الطاولة. نهضت السيدة دورانت وأخذت تذرع أرض الغرفة، بقامتها المنتصبة، فتبعتها الفتيات بثياب شفافة مزركشة بالأصفر والأزرق، وتبعتهم الآنسة إليوت بثوبها المخملي، مع امرأة أخرى سمراء صغيرة، تريَّثت مترددّة عند العتبة. وهكذا خرج الجميع من الغرفة.

قالت السيدة دورانت، وهي تشدّ على يد الفتاة، فيما كانتا تذرعان المصطبة معاً جيئة وذهاباً، «حين تكبرين وتصبحين في مثل سني، يا شارلوت».

سألت شارلوت بحماسة: «لكن لمَ أنت حزينة جداً هكذا؟»

قالت السيدة دورانت: «هل أبدو حزينة حقّاً؟ آمل ألا أبدو كذلك».

«الآن فقط. وعموما لست كبيرة في السّن».

«بل أنا كبيرة لدرجة أنني أم تيموثي». توقفتا عن المشي.

كانت الآنسة إليوت تراقب الفضاء بمنظار السيد كلترباك، عند حافة المصطبة. وكان هذا العجوز الأصم يقف إلى جانبها، ويتلهى بمعابثة لحيته، ويعدد أسماء المجرَّات: «أندروميدا، بوتس، سيدونيا، كاسيوبيا...».

«أندروميدا»، تمتمت الآنسة شارلوت، وأزاحت التلسكوب عنها قليلا.

نظرت السيدة دورانت وشارلوت عبر أسطوانة التلسكوب الموجه الفضاء.

قالت شارلوت في إيمان: «ما أكثرها، نجوم السماء. هناك الملايين منها»، فانتحت الآنسة إليوت عنها جانباً، تُصغي لقهقهات الذين يتناولون طعام العشاء في القاعة.

«دعيني ألقي نظرة، رجاء»، قالت شارلوت بحماسة.

قالت السيدة دورانت، وهي تنزل درجات المصطبة (التراس) مع جوليا إيليوت: «النجوم تثير بنفسي ذكرى». وأكملت: «قرأت مرة كتاباً عن النجوم... فماذا قالوا عنها؟». توقفت أمام نافذة قاعة الطعام، ونادت: «تيموثي».

قالت الآنسة إليوت: «الشاب الصموت».

قالت السيدة دورانت: «أجل. يعقوب فلاندرز».

هتفت كلارا دورانت، إذ دخلت من الجهة المقابلة برفقة إليزابيث: «آه، أمُّي! لم أعرفك». «ما ألذّه من نبات»، قالت وهي تتنفس بعمق، وفركت بأصابعها ورقة «رعي الحمام».

استدارت السيدة دورانت وابتعدت بمفردها.

ثم نادت ابنتها: «كلارا». فأقبلت كلارا نحوها.

قالت الآنسة إليوت: «ما أشدّ اختلافهما!»

مرّ السيد وارتلي من جانبهما، وتجاوزهما وهو يدخّن سيجارة.

سمعتاه يقول، أثناء مروره: «في كل يوم أجد نفسي موافقاً...».

تمتمت جوليا إليوت: «من الممتع جداً أن تحزر...».

قالت إلزابيث: «أول مرة نخرج فيها كانت الأزهار تملأ هذا المشتل».

علّقت الآنسة إليوت: «والآن، لا يوجد سوى القليل جداً منها».

قالت شارلوت: «لا بدّ أنها كانت باهرة الجمال. أظن أنّ السيد وارتلي...». توقفت ولم تكمل عبارتها.

لاحظت الآنسة إليوت بلهجة مؤكدة: «كان موت إدوار مأساة حقا»، وفي تلك اللحظة انضم إليهن السيد إرسكين.

قال بانشراح: «لا شيء يُضاهي الصمت روعة، بإمكاني أن أسمع عشرين صوتاً مختلفاً في ليلة واحدة كهذه الليلة، إلى جانب صوتكما».

قالت شارلوت: «أتراهنني على ذلك.

ردّ إرسكين: «أجل. اتفقنا. الصوت الأول هو صوت البحر، والثاني هو صفير الريح، والثالث نباح الكلب، والرابع...».

قالت إليزابيث: «وهكذا عدَّد مجموعة من الأصوات يا له من مسكين، تيموثي».

صرخت الآنسة إليوت في أذن السيد كلترباك: «ليلة بديعة جداً».

قال للآنسة إليزابيث، ووجّه النظارة صوبها: «تريدين النظر النجوم بالتلسكوب»؟

صرخت إليزابيث بأذنه: ألا يجعلك هذا العمل تشعر بالكآبة – أعني مراقبة النجوم؟» «كلا، يا عزيزتي، كلا»، قال لها بصوت أجش إذ أدرك ما تقصده. وأضاف «لماذا يجعلني التلسكوب كئيباً؟ كلا، يا عزيزتي، لا أشعر بالكآبة ولو لحظة».

قالت الآنسة إليوت: «شكراً لك، يا تيموثي، ها أنذا قادمة. إليزابيث، إليك بهذا الشال».

تمتمت أيضاً: «ها أنذا قادمة»، بربرت إليزابيث ونظرها على التلسكوب. «كاسيوبيا»، وسألت. «لكن أين أنتم، جميعاً؟، أبعدت عينيها عن النظارة: «إنها معتمة جداً!»

جلست السيدة دورانت بجانب المصباح في غرفة الاستقبال، وأخذت تلفّ كبّة من الصوف. كان السيد كلترباك يقرأ في صحيفة التايمز. وكان هناك مصباح ثان على مسافة قريبة من الأول، تحلّقت حوله نسوةٌ صغيرات. كانت هؤلاء النسوة يعملن بتوشية الأقمشة بالترتر الفضي اللامع، بعد تفصيلها بمقصَّات لامعة على الطاولات، حيث يعملن لصالح مسارح خاصة. السيد وارتلي لم يتوقف عن القراءة في كتابه.

وهي تتمطَّى وتتوقف عن لف كبَّة الصوف: «نعم. هو بخير تماماً، قالت السيدة دورانت. ثم اعتدلت في جلستها، ولم تعد للمس كبة الصوف، فيما تابع السيد كلترباك قراءة ما تبقّى من خطاب اللورد لانسداون في الجريدة.

«سيد فلاندرز»، قالت بزهو، كما لو كانت تخاطب اللورد لانسدوان نفسه. تنهّدت، وعادت تلفّ خيوط الصوف.

قالت له: «سيد فلاندرز، تفضل بالجلوس هناك».

أقبل يعقوب من المكان المعتم بجانب الشباك حيث كان يقف متردداً. فغمره الضوء كاملاً. جلس وأخذ ينظر إلى الحديقة في الخارج، من دون أن تتغير ملامح وجهه.

قالت السيدة دورانت: «يشوقني أن أستمع وصفك لرحلتكما البحرية».

أجاب يعقوب: «بكل تأكيد».

أضافت: «فقبل عشرين سنة قمنا نحن برحلة مماثلة ».

قال: «نعم»، فنظرت إليه شزراً.

خطر للسيدة دورانت، وهي تراقبه يعبث بجراباته «أن هذا الفتى متعب بصورة غير عادية، مع ذلك فمنظره مميّز».

تابعت كلامها، وحَّدثته كيف أبحروا... ثم قالت: «في تلك الأيام...»، «كان زوجي خبيراً في الملاحة، إذ كان يقتني مركباً حتى قبل زواجنا"... وأخبرته وهي تنزع ماسك كبّة الصوف كيف تجرّأ بعضهم على منافسة صيادي السمك، لذلك «كدنا ندفع حياتنا ثمناً للمنافسة، وكنّا فخورين بأنفسنا!».

سألها يعقوب بإصرار: «هل لي أن أساعدك بإمساك خيطان الصوف؟»

ردّت عليه السيدة دورانت: «تمسك الخيطان كما لو كنت تساعد أمك»، ثم حدجته بنظرة قاطعة أيضاً وهي تنقل شلّة الخيطان. «ها هي تسير بصورة حسنة، كما ترى».

اكتفى يعقوب بالابتسام، ولم ينبس ببنت شفة.

كانت إليزابيث تحوم حولهما وعلى ذراعها شيء فضي اللون.

«نحن بحاجة»، قالت إلزابيث... «لقد جئت لكي...»، وتوقفت.

قالت السيدة دورانت بصوت خافت، كما لو أنّها خبرت تفاصيل حياته كلّها: «مسكين يعقوب»، «سوف يورطونك لتؤدي دوراً ما في مسرحية أعدّوها».

قالت إليزابيث: «أنا أُحبَّك جداً»، وجثت بجانب كرسي السيدة دورانت.

قالت لها السيدة دورانت: «هاتي ناوليني خيطان الصوف».

قالت شارلوت ويلدنغ: «ها هو قادم– ها قد جاء! لقد كسبت أنا الرهان»!

تمتمت كلارا دورانت وهي ترتقي درجات السلم: «هناك مجموعة أخرى من العناقيد في الأعلى»، فتقدم يعقوب وثبّت السلم الذي تصعده كلارا لتقطف عناقيد العنب.

«إنها هناك!»، قالت كلارا وارتقت أكثر لتقُصَّ العناقيد في الأغصان العُلْوية. بدت شبه شفّافة، شاحبة، وبارعة الجمال وهي تتحرّك بين أوراق الدالية وعناقيدها الصفراء والأرجوانية، والأضواء فوقها تتلألأ بألوان لطيفة. كان المكان مليئاً بأصص نباتات إبرة الراعي الحمراء والبيغونيا التي صُفّت على عدد من الألواح الخشبية، بينما تسلقت شتلات الطماطم على الحائط.

فكرت كلارا أنّ «من الضروري بمكان التَّخفيف من الأوراق». ورأت كيف انفصلت ورقة خضراء بحجم راحة اليد، وهَوَت على مهل بجانب رأس يعقوب.

قال يعقوب وهو ينظر إلى كلارا في أعلى السلم: «صار لديّ أكثر مما يمكنني أكله».

ردّت كلارا: «يبدو أنّ من العبث... العودة لندن...».

قال يعقوب بحزم: «هذا مضحك».

قالت كلارا: «إذن،... لا بدّ أنْ تأتي لزيارتنا في السنة المقبلة تحديداً، وانتزعت ورقة عنب أخرى، بصورة عشوائية غالباً.

«هذا إذاً... إذاً...».

مرّ طفلٌ من جانب البيت الزجاجي وهو يصرخ. نزلت كلارا السُّلم في هدوء لكن بخفَّة، وبيدها سلة العنب.

«قطفت لك مجموعة عناقيد من العنب الأبيض، ومجموعتين من العنب الأرجواني»، قالت كلارا. غطّت العناقيد معاً بورق العنب، لتحافظ عليها نضرة.

قال يعقوب وهو يتطلع إلى المستنبت الزجاجي في الأسفل: «لقد استمتعت جداً».

ردت كلارا بشيء من الغموض: «أجل. كان ذلك مسلياً.

حمل يعقوب سلة العنب ونادى: «رائع، يا آنسة دورانت». فاتجهت كلارا من جانبه إلى باب المستنبت الزجاجي.

كانت كلارا تفكر في يعقوب وكادت تقول له: «أنت رجل طيّب جداً – طيّب تماماً. وخطر لها أنه يجب ألا يقول لها إنه يحبها. لا.لا.لا.

في تلك اللحظات كان الأولاد يدورون عند الباب، متلهّين برمي أشياء إلى الأعلى.

صرخت بهم: «عفاريت صغار!» وتوجهت صوب يعقوب وهي تسأل: «ما الذي يرميه هؤلاء الصغار؟»

أجاب يعقوب، وهو ينظر إليهم بصمت: «حبات البصل، فيما أظن».

قالت السيدة دورانت: «يعقوب، لا تنسَ موعدنا: إنَّه شهر آب المقبل»، ثم صافحته وهما يقفان على الشرفة، حيث ظهرت نبتة الفوشيا معلّقة خلف رأسها كقرط قرمزي في أذن صبية. أطّل السيد وارتلي من الشباك، وهو يمشي بتثاقل بشحاطته الصفراء وفي يده نسحة من صحيفة التايمز، فمدّ يده مصافحاً يعقوب في ودّ واضح.

قال يعقوب: « إلى اللقاء»، « إلى اللقاء». استدارت شارلوت ويلدنغ نافذة غرفة نومها وصاحت: «وداعاً، يا سيد يعقوب»!

نادى السيد كلترباك، محاولا النهوض من كرسيه العميق: «سيد فلاندرز!» وداعاً، يا يعقوب فلاندرز!»

قالت السيدة دورانت: «لقد تأخرت جداً، يا جوزيف».

قالت الآنسة إليوت، وهي تحاول أن تثبّت قوائم المنصب الثلاث على أرضية المرج: «لا ضرورة بك لانتظاري».

الفصل الخامس

أخذ يعقوب غليونه من فمه وقال: «أعتقد أن هذا موجود في مجموعة أشعار فرجيل». دفع كرسيه الخلف ومضى النافذة.

مما لا شك فيه أنَّ سائقي فانات البريد هم الأسرع في العالم. أحد الفانات، وهو بلون قرمزي، أقبَل مسرعاً في شارع لامب غوندويت، ولفّ المنعطف القريب من صندوق البريد العمودي بسرعة، فاصطدم بحجارة الرصيف وخلعها من مكانها، وأثار انتباه الطفلة التي كانت تقف على رؤوس أصابعها وتمدّ جسمها لتتمكن من إيداع رسالة في ذلك الصندوق. نظرت الطفلة المرتعبة بشيء من الدهشة. توقفت ويدها لا تزال على فتحة الصندوق، ثمّ سارعت إلى إسقاط رسالتها والهرب بعيداً. نحن قليلاً ما نرى طفلاً يقف هكذا على رؤوس أصابعه دون شعور بالأسف – وغالباً ما يكون ذلك لمشكلة بسيطة، حبّة رملٍ في حذائه مثلاً، وهو أمر لا يستحقّ التوقف عنده كثيراً، حتى تُزال حبّة الرمل – وهذه خلاصة شعورنا – لذلك لم يهتمّ يعقوب لهذا المنظر، بل اتجه إلى خزانة كتبه.

في قديم الزمان عاش عظماء في هذا المكان. كانوا لدى عودتهم من مجالسهم بعد منتصف الليل، يقفون بثيابهم من الساتان عند «عضادة» الباب الخشبية المزخرفة، في انتظار نهوض الخادم من فراشه على الأرض، الذي

يسارع إلى ربط أزرار صداريته، ويفتح لهم الباب للدخول. خلال القرن الثامن عشر عرف الناس موسم شتاءٍ مريراً، حيث أغرق المطر المنهمر بغزارة أقنية التصريف. على أي حال، في أيامنا هذه تتميز مدينة ساوثمبتون رو بأنّك لا تَعدَم أبداً محاولة أحدهم بيع سلحفاة خيّاط. وإليكم ما كانوا يقولون بشأن إقناع الآخرين لتسويق السلحفاة: «إنّها طريقة مبتكرة وغريبة لعرض الأقمشة الصوفية عليها، يا سيدي. إنَّ ما يطلبه أبناء النبلاء هي الأشياء الفريدة واللّافتة، يا سيدي – وكذلك الأشياء النظيفة، يا سيدي وبهذه الطريقة يعرضون سلاحفهم للبيع.

في محلات مودي بشارع أكسفورد يمكنك أنْ تجد مسبحات خرزاتها من مختلف الألوان، حمراء وزرقاء منتظمة في خيوط. كان على ركاب السيارات العالقة في الزحام هناك التجلّد بالصبر. أما السيد سباولدنغ فكان ينظر بعين الحسد إلى السيد تشارلز بودجيون المتجه مشياً على قدميه حي شيبرد بوش. إنّ زحمة السيارات تُشكّل فرصة للركّاب لإمعان النظر في وجوه الآخرين. لكن الذي بدا أنَّ قلّة منهم كان يستغل هذه الفرصة. فكل منهم غارق في مشاغله الخاصة التي عليه أنّ يتدبر أمرها. وفي داخل كل منهم ماضٍ عاشه ولا يزال يستظهره كصفحات كتاب يحفظه عن ظهر قلب. لكن ليس بوسع الأصدقاء قراءة غير عنوان هذا الكتاب، جيمس سباولدنغ أو تشارلز بودجيون بينما المسافرون في اتجاه مغاير ليس بإمكانهم قراءة أي شيء على الإطلاق – اللهم باستثناء «رجل ذي شاربين أشقرين»، «شاب يرتدي بزة رمادية والغليون في فمه». كانت شمس أكتوبر تلهب أجساد هؤلاء المسافرين، رجالاً ونساءً، العالقين في الزحام. استغل جوني ستورجيون

الفرصة فنزل على درجات السُّلم، وفي يده صرّة كبيرة غير معروفة، وبصعوبة شقّ طريقه في الزحام بشكلٍ مُتعرّج متلافياً عجلات السيارات حتى وصل إلى الرصيف المقابل، وراح يصفّر لحناً حتى غاب عن النظر – مرة و الأبد. استمرت السيارات في سيرها المُتعثِّر، ومع كلّ بوصة تتقدّمها في الزحام كان المسافرون يستبشرون خيراً باقترابهم من نهاية الرحلة المضنية، مع أنّ بعضهم في هذه الزنقة انصرف بتفكيره، وربَّما استسلم لوهم الفوز بشيء من الحلوى أو قطعة ستيك، أو بشيء من الشراب أو حتى بلعبة دومينو في ركن شبه مظلم داخل مطعم في المدينة. أجل، إنَّ حياة الإنسان يمكن تحمّلها من خلال الجلوس والتفرُّج على سيارات الركاب في هولبورن، والشرطي رافعاً يده، فيما شواظ الشمس تسفع الظهور، ولو توفَّر لك كأس جعة يتمتع به شخصياً، فإنك واجده في جلسة على ضفاف التايمز، عند ملتقى الطرق الرئيسة بجانب كاتدرائية سان باول، حيث ينتهي المنظر شكل حلزوني. خرج يعقوب من السيارة التي تقلّه وأخذ يتمشى ببطء. نظر ساعته. أخيراً قرر أن يدخل... هل الأمر بحاجة جهد؟ نعم، فهو مستحق. وإنَّ هذه التغيرات المزاجية تستنزفنا تماماً.

كان المكان مظلماً، تسكنه عفاريت الرخام الأبيض، التي يهدهدها الأرغن بترنيماته الأبدية. لذلك فطقة حذاء واحدة على الأرض هناك تبعث الرهبة، ومع الطقة الثانية يحلّ النظام. ولكن شمّاس الكنيسة بصولجانه سهّل على رعيته فهم الحياة. أناشيد فرقة المنشدين الملائكية جميلة ومقدسة، وأصوات العازفين والأورغن تنداح في جنبات المكان كلّها بلا توقف، وأصوات وموسيقا ناعمة وعالية تنبعث من بين الأصابع المطوية. لا تتوقف أبداً

موسيقى القداديس – لتعزف سكينة الرقاد. السيدة ليدغيت تشعر بالتعب من مسح درجات مكتب جمعية «بروفيدنشال سوسايتي»، وهو عمل اعتادت ان تقوم به طوال العام، فجلست في ظلّ ضريح الدوق العظيم، مكتوفة اليدين، مع نصف إغماضة. كان ذلك المكان مثالياً لاستراحة امرأة عجوز، في جوار رُفات الدوق العظيم الذي لا تعنيها انتصاراته، والذي تجهل اسمه حتى، مع أنّها لا تنسى لدى خروجها أنْ تُسلِّم على صور صغار الملائكة التي تطالعها على واجهة الضريح، متمنية أنْ تحظى هي نفسها بصورة مثلها على ضريحها حين تموت، ذلك أنّ حُجب القلب قد خفقت حتى تمزّقت، فتسللت من خلالها أفكار حذرة عن الراحة، ترانيم رقيقة... مما لم يخطر مثلها على بال السيد سبايسر، بائع القنّب العجوز. الغريب جداً أنّ هذا الرجل لم يأت إلى ضريح سان باول خلال الأعوام الخمسين الماضية، رغم أنَّ شبّاك مكتبه يطلّ على فناء الكنيسة. «هل هذا كلّ شيء؟. لا بأس، إنَّه مكان قديم وكئيب ثمَّ... أين ضريح نلسون؟ لا وقت لدينا الآن – تعال في وقت آخر- وينبغي أن تضع قطعة نقدية في الصندوق... وهل سأفعل هذا في الجو الماطر أم في صحوه؟ حسن. السماء تمطر إن هي قررت أن تمطر!». عبثاً يضلّ الأطفال طريقهم في المكان – إذ يثنيهم شمّاس الكنيسة – ومثلهم ومثلهم... رجل، امرأة، رجل، امرأة، طفل... الكل يشخصون بأبصارهم الأعلى، شفاههم مزمومة، وعلى وجوه الجميع ينسدل الظلّ عينه. لقد خفقت حُجب القلب حتى تمزَّقت.

لا شيء يمكن أنْ يبدو أكثر يقينية من درج القديس سان باول، ومن تقديمهم معطفاً وثوباً وحذاء لكل زائر، إنَّه دخل يعقوب وحده، الحامل في يده كتاب فينلي عن امبراطورية بيزنطا، الذي اشتراه في لودغيت هيل،

يعقوب وحده بدا مختلفاً قليلاً عن الآخرين. فزوَّادته كتاب، ذاك الذي يجلس في التاسعة والنصف تماماً بجانب موقد النار فيفتحه ويقرأ، كما لا يفعل الآخرون. هؤلاء الآخرون ليس لهم منازل. لهم الشوارع. وحوانيت، وكنائس لا عدّ لمقاعدها. ولهم أيضاً مصابيح المكاتب المنتشرة، والفانات، والقطارات التي تعبر الطرقات. ولو أمعنتَ النظر لرأيت ثلاثة رجال كبار على مسافات متقاربة، يقودون عربات عنكبوتية بجانب الرصيف وكأنَّ الشارع هو بهوُ بيتهم، ولشاهدتَ امرأة تستقبل الحائط، وتحدّق في لاشيء، ولا تطلب منك شراء رباطات الأحذية التي تعرضها. كذلك السترات وما عليها من كتابات ملكهم أيضاً. والأخبار عنهم. مدينة مدمرة. ورهان يتم كسبه. شعب من المشردين، ينتشرون تحت السَّماء التي يحجب لونها الأزرق أو الأبيض غطاء من الصفيح وروث الخيول المذرّر.

بعد غياب الشمس بوقت طويل جلست امرأة كهلة عمياء على كرسي المخيم، وظهرها الجدار الحجري لمبنى اتحاد لندن وبنك سميث. كانت تحتضن بقوّة بذراعيها كلباً مولَّداً، وتغني بصوت عالٍ من أعماق قلبها المبتهج فرحاً، بل من قلبها المسفوع والآثم، ليس لرجال الدرك – ذلك لأنَّ الطفل الذي قادها إلى هنا كان ثمرة علاقة مسافحة، ويجب أن يكون الآن في سريره، متلحفاً ونائماً، بدلاً من الاستماع في النّور أغنية أمّه الهمجية، وهي تجلس قُبالة البنك وتغنيليس لرجال الدرك، والكلب لا يفارق حضنها.

ذهبوا إلى البيت. فاستقبلتهم أبراج الكنائس الرمادية، استقبلتهم المدينة الوقور، المدينة الآثمة، العتيقة والجليلة معاً. كانت الأبراج متصافّة واحداً بعد الآخر، أبراج مستديرة أو مستدقة، تخترق عباب الفضاء أو متكتلة، مثل سفنٍ

مُبحِرة أو جروف بازلتية، أبراج ومكاتب وأرصفة موانئ ومصانع، تزحم البنوك. وأبداً يمشي الحُجّاج منهكين، فيما تستريح المراكب في وسط النهر وهي تئن بأحمالها. ولا تزال المدينة كما يراها بعضهم، تعشق بغاياها.

لكن يبدو أنّه من غير المسموح سوى لقلّة من الناس بالتجوّل في المدينة هذا الحدّ. فمن بين جميع العربات التي تغادر دار «الأوبرا هاوس»، لا تجد عربة واحدة تتجه صوب الشرق. وعندما قبضوا على اللّص الصغير متلبّساً في منطقة الأسواق الخالية، لم يعمد أيٌّ من الذين يلبسون الأسود والأبيض، أو أثواب المساء الوردية إغلاق الطريق، للتوقف ويده على باب العربة سواء للمساعدة أم للإدانة – مع أنّ السيدة تشارلز، والحقُّ يقال، تطلق في أسى زفراتها الحرّى وهي ترتقي درجات سلّمها، فتقهر توماس أكيمبس، ولا يغمضلها جفن حتى تفقد صوابها عبر زواريب انشغالها بالأشياء المتشابكة. عندئذ فقط تتنهد السيدة تشارلز، وتسأل نفسها: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟». وعموماً، من الأفضل لها أن تعود من دار الأوبرا. إنّ التعب الشديد أكثر سبل النوم أماناً للإنسان.

فصل الخريف يبدو في أوجه. ومن عادة تريستان فيه أن يتأبّط بساطه مرّتين في كل أسبوع. أما إيزولد فقد لوحت بغطاء رأسها تعبيراً عن تعاطفها العجيب مع مخصرة قائد الفرقة الموسيقية. وبإمكانك أن ترى، أنّى تجوّلتَ في أنحاء الدار، وجوهاً متورّدة وصدوراً متأجّجة. حين تتسلّل يدٌ ملكيّة لها علاقة بقوة غامضة لتسترد ضمة الورود الحمراء والبيضاء من فوق الرف القرمزي، سيبدو اسم ملكة بريطانيا جديراً بالتضحية بالحياة. لقد أخذ الجمال الذي يتبدى في شتى العلب الزجاجية (وهذا ليس أحد

أسوأ الخيارات) بالتفتح في علبة بعد أخرى. ومع أنَّ أحداً لم يقل شيئاً ذا أهمية جدية، لكن هناك إجماعاً عاماً بأنّ الحكمة قد هجرت الشفاه الطيبة بعد موت وولبول – وعلى أيّة حال حين نزلت فكتوريا بثوب المساء لكي تجتمع بوزرائها كانت شفتاها لا تزالان محتفظتين بحمرتها الرائعة. ووقتها كان بعض المميزين من حليقي الرؤوس، الذين يحملون خيزرانات مُذَّهبة الرأس، يخطرون بين أكشاك البضائع في الأزقة القرمزية، ولكنَّهم قلَّما استطاعوا مواصلة الطريق حينما أطفئت الأنوار، فيما بدأ قائد الأوركسترا عمله بانحناءة للملكة، وللرجال حليقي الرؤوس، ومن ثم وقف على قدميه رافعاً يده وعصاه لإحياء الحفل.

جلسوا هكذا في المكان شبه المعتم يتذكرون، ويتوقعون حيث يرتحلون داخل متاهات معتمة. كلارا دورانت ودعت يعقوب فلاندرز، إذ تذَّوقت طعم حلاوة الموت في صورته الشنيعة. وأطلقت السيدة دورانت أمّها، التي كانت تلوذ في عتمة المقعد الخلفي، تنهيدة عميقة. وبدّل السيد وارتلي مقعده خلف زوجة السفير الإيطالي، إذ رأى أنّ صوت المغنية «برانجاينا» أجش قليلاً، ويبقى معلّقاً في فضاء القاعة فوق رؤوس الجميع، بينما حمل إدوار ويتاكر خفية مصباحاً لكي يرى تفاصيل مقطوعته الموسيقية المنمنمة، و... و...

وبكلمة واحدة، أقول إنَّ كثرة الملاحظات تخنق المراقبين. ومن أجل تجنيبنا الغرق في الفوضى توافق المجتمع والطبيعة فيما بينهما على نظام تراتبي هو نظام البساطة ذاتها، الذي يشمل الأشياء كلّها: المقعد، الكوخ، المدرج، الصالة. المجتمع والطبيعة يملآن قوالب تلك الأشياء تحت جنح الليل. ولا حاجة بنا إلى معرفة التفاصيل. لكنَّ الصعوبة لا يمكن أنْ تزول – فلا بَّد من الاختيار. ذلك

أنَّني وإن كنت لا أطمع لأن أكون ملكة إنجلترا في الوقت الراهن – وإن كانت تحدوني الرغبة في الجلوس بجانبها، وعندئذ سأستمع ثرثرة رئيس الوزراء، وهمسات الكونتيسة التي تشارك الملكة في ذكرياتها عن الصالات والحدائق، ومع ذلك فالواجهات العملاقة للشخصيات المرموقة تُخفي وراءها مدوناتهم السرية. وإلا لماذا هذا التكتم كله؟ بالتالي، حين يحيّد المرء عقله، فما أغربان نسلّم ولو للحظة بأنَّه – أيّاً كان هذا الشخص – فارسٌ مقدامٌ، ولو كان حاكماً إمبراطورياً، وأن نعود شذرات من أشعار سوفوكل بينما برانجاينا تُقدّم أغنياتها، أو اختلاس نظرة خاطفة للجسور المشيدة وأقنية جرّ المياه والراعي يعزف على مزماره. هذا لا يجوز – ولا بدّ لنا من الاختيار. فيا لها من ضرورة لم يحدث ان رأينا أقسى منها! أو يا لها من ضرورة تجلب ألماً أشد، أو مصيبة أكثر هولاً. فحيثما أجلس أموت منفيّاً. أما ويتاكر فيموت على فراشه حيث يسكن، والليدي تشارلز في مزرعتها.

عند انتهاء الأوبرا نزل شاب له أنف «ولنغتوني» (ولنغتون هو القائد الذي هزم نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥) من مقعد أجرته سبعة جنيهات وستة بنسات على الدرجات الحجرية، كما لو كان لا يزال منفصلاً قليلاً عن زملائه بسبب تأثير الموسيقى.

عند منتصف الليل سمع يعقوب فلاندرز طرقات على بابه.

هتف في دهشة: «يا جوبتر! أنت الرجل الذي أبحث عنه!». ودون جعجعة وجدا معاً أبيات الشعر التي أمضيا النهار بطوله في البحث عنها، فاكتشفا أنها ليست من أشعار فيرجل، بل هي للوكريتيوس.

«أجل. هذا ما يجب أن يجعله يقضي الليل ساهراً، قال بونامي، فور انتهاء يعقوب من القراءة. وأحسّ يعقوب بالحماسة. وكانت تلك أول مرة يقرأ فيها مقالته بصوت مرتفع.

«يا لك من خنزير!»، ردّ يعقوب بتهوّر واضح، وقد أذهله المديحَ. وكان البروفسور بولتيل، بجامعة ليدز، أصدر طبعة جديدة من إحدى مسرحيات ويكرلي الساخرة دون ان يعلن أنه حذف، أو فرّغ مضمون بعض الكلمات والعبارات النابية، أو تعليمها بنجمة والإشارة ما فعله. وقد اعتبر يعقوب بأنَّ ذلك تجاوز، وخرق للمواثيق، وتطرفٌ خالص. ورأى فيه دليلاً على فساد العقل، والطبيعة المقزّزة. وهكذا دار الحديث حول أرستوفان وشكسبير، دون التعرُّض لأدبيات الحياة الحديثة. وهكذا تحوَّل عنوان المسرحية الساخرة، إلى حالة تندّر مرير في جامعة ليدز، ذات المركز التعليمي المميز. لكن الشيء غير العادي هو أنَّ الشابين يعقوب وبونامي كانا على حقّ تماماً – استثنائي لأنَّ يعقوب كان على يقين من أنَّ أحداً هناك لن يحفل بطباعة النَّص على الرغم من تصويره للصفحات. لذلك فقد وضع النَّص في الصندوق الخشبي الأسود، إلى جانب رسائل أمّه، مع سرواله الفانيلا القديم، ودفتر ملاحظات أو اثنين عليه خاتم بريد كورنيش. ثم أقفل غطاء الصندوق على تلك الحقيقة.

اسم يعقوب لا يزال مقروءاً باللون الأبيض على ذلك الصندوق الأسود، الذي يشغل مساحة ما بين نافذتي غرفة الجلوس المتطاولتين. وكان الأثاث – وهو عبارة عن ثلاثة كراس من أماليد الخيزران الطرية مع طاولة قابلة للطيّ – جلبها من كامبردج. غرفة يعقوب وهذه البيوت (إحداها تملكه السيدة واتهورن، ابنة السيدة غارفيت)، مبنيَّة منذ مئة وخمسين سنة

تقريباً. لذلك من المتوقع أنّها في حال بائسة، ولها أسقف عالية، وحفرت في الخشب فوق مدخلها وردة أو جمجمة كبش. ذلك أنَّ القرن الثامن عشر يتميز بخصوصيات مميزة، وتجد حتى مصاريع الشبابيك، ذات اللون الأرجواني الداكن، حتى هذه الشبابيك لها نكهتها الخاصة...

وعلى سيرة «الخصوصية»، السيدة دورانت قالت إنَّ يعقوب فلاندرز «يتمتع بمظهر مميز»، وإنَّ له «مظهراً مربكاً»، كما قالت: «لا بل إن لشخصيته خصوصية مميزة جداً. فما إنْ تراه لأول مرة حتى تفهم أنّ التميز هي صفته الملازمة». ذلك ما بدا لدى يعقوب حين استلقى على كرسيه، وأبعد الغليون عن شفتيه، ليقول لبونامي: «لمَ لا نتحدث عن هذه الأوبرا (كونهم تصرفوا بقلة احتشام). «فالسيد فاغنر»... وعلى الرغم من أنَّ وصفه (يعقوب) بكلمة مميز أمر طبيعي ويليق به، لكن بمجرد متابعته ستلاحظ أنَّ من الصعب معرفة على أي مقعد في دار الأوبرا كان يجلس، على أحد المقاعد الخشبية المثبتة، أحد مقاعد الشرفة أم تلك المخصّصة للرسميين. أهو كاتب؟ لكن أين الوعي الشخصي؟. فنان؟ إنّ ثمَّة شيئاً في شكل يديه (شيئاً ورثه من أهل أمه، المنحدرة من أسرة قديمة وغامضة النسب)، يدل على امتلاكه ذائقة فنية. وأخيراً ماذا عن فمه – فلا شكّ في أنّ فمه هو الأسوأ حالاً من كل ما يمكن استعراضه من كتالوجات لمختلف الإنجازات العبثية. لهذا فكلمة واحدة تفي بالغرض. لكن ماذا إن لم تجد تلك الكلمة؟

في دفتر مذكراتها، كتبت كلارا دورانت: «أشعر بميل جارف إلى يعقوب فلاندرز. هذا الرجل ملائكي بحق. فهو لا يتلوَّن، ويمكن مناقشته في أي موضوع، رغم أنَّه مخيف، لأنَّه...». السيد ليتس بدوره لا يترك هامشاً كبيراً

للكتابة في دفتر يومياته «وقد اشتراه بشلن واحد. وكلارا لم تكن إنسانة تنتهك حرمة يوم الأربعاء. وهي الأكثر تواضعاً، والأكثر صراحة بين النساء! تنهدت وقالت «لا. لا. لا». جلست على حافة باب المنزل الأخضر، ثم أكملت «لا تقاطع - لا تفسد الطبخة» – ماذا؟ إنه شيء لا حدود لروعته.

وفي نهاية المطاف، تبقى هذه لغة فتاة، وصبية مقبلة على الحُبّ أو لا تتقبل الحُبّ. كلارا تمنَّت أن تطول تلك اللحظة إلى الأبد، لاسيما كونها صادفت صباح يوم من أيام تموز. لكن هيهات، إنَّ اللحظات الجميلة لا تدوم عادةً. على سبيل المثال، كان يعقوب يقصّ حكاية عن رحلة قام بها مشياً على قدميه، وكان اسم النُزُلْ «The Fuming Pot» (القِدر المزبد)، وهو باسم صاحبته... قد أخذوا يصرخون ويضحكون. كانت النكتة غير مهذبة.

بعد هذا ذكرت جوليا إليوت عبارة «الشاب الصموت»، وباعتبارها كانت ترافق رؤساء حكومات على العشاء، فمن المؤكد أنها كانت بذلك ترمي القول «إذا كان (مثل هذا الشاب) يريد أن يحقق تقدماً في هذا العالم، فعليه أن يبتكر لغته الخاصة».

تيموثي دورانت بقي صامتاً، ولم يعلّق بكلمة.

وشعرت الخادمة أنَّها كوفئت تماماً.

لكن رأي السيد صبوئيذ كان منسجماً وجدانياً مع رأي كلارا، لكن عباراته أكثر رشاقة.

كانت نظرة بتي فلاندرز ابنها آرشر تتسم بالرومانتيكية، وبالحنان تجاه جون. أما يعقوب فسلوكه داخل المنزل كان أخرقاً ويثير حفيظتها.

ولم يكن هذا هو رأي الكابتن بارفوت حيال يعقوب، فكان يعده أفضل أولاد السيدة فلاندرز. أما فيما يتعلق بسبب....

إنّ من الواضح أنَّ الرجال والنساء متساوون في ارتكاب الهفوات. إنّ الرأي الحق المطلق، الرأي المُعَّمق واللامنحاز الذي يبديه بنو البشر، يبقى غير معلن أبداً. وسواء كنا رجالاً أم نساء، متحفظين أو عاطفيين، صغاراً في السن أو مسنّين، فإنَّ حياتنا ليست سوى مجموعة من الظلال، والسماء وحدها تعلم سبب حماستنا في تقبُّل هذه الظلال، ولماذا نودّعها بهذا الوجد إذا ارتحلت، باعتبارها ظلالاً وحسب! ولماذا؟ إذا كان هذا الرأي صحيحاً، مثل آراء كثيرة غيره، لماذا لا تتوقف دهشتنا ونحن نقف عند زاوية النافذة إذا رأينا أنَّ ذاك الفتى الجالس على الكرسي هو وحده الشيء الحقيقي في هذا العالم، هو الشيء المتحقق، وأنَّه أفضل معارفنا؟ أقول لماذا يحدث هذا بحق السماء؟ ذلك أننَّا بعد لحظة تالية نفقد ما نعرفه عنه تماماً.

إنّها طريقتنا في النظر إلى الأمور، وهذه هي شروطنا في الحب.

(«أنا الآن في الثانية والعشرين. ونحن في نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر)، والحياة لطيفة إلى حدّ ما، على الرغم من أنَّ هناك، لسوء الحظ، أعداداً لا حصر لها من المغفلين. وهم يطالبون الإنسان بأن يتبنَّى هذا الموقف أو ذاك – مما لا يعلمه إلا السَّماء. إنَّ الأشياء كلَّها رائعة حقاً – عدا الاستيقاظ في الصباح، وارتداء معطف له ذيل طويل).

وسؤالي للعزيز بونامي هو، ماذا عن بيتهوفن؟

(«وبونامي شخص رائع. وهو عملياً يعرف كل شيء – لكنّه مثلي لا يعرف الشيء الكثير عن الأدب الإنجليزي – غير أنّه قرأ لكلِّ الكُتَّاب الفرنسيين.»).

«بونامي، أكاد أشكُّ في أنكَّ قادر على قول أشياء خبيثة. وعلى الرغم من كل ما تقوله، فإنَّ تنيسون العجوز المسكين...».

(«في الواقع لا بدّ من تعليم الناس اللغة الفرنسية. والآن، أفترض أنَّ العجوز بارفوت يتحدَّث مع أمّي. وتلك علاقة غريبة بكلّ تأكيد. لكني لا أستطيع أن أرى بونامي هناك. لعن الله لندن!») فعربات السوق تزحم الشوارع.

«ما رأيك بمشوار يوم السبت؟».

(«وماذا سيكون هناك يوم السبت؟»).

أخرج دفتره الجيب، فتأكد من تاريخ الحفل المسائي الذي سيقيمه آل دورانت، خلال الأسبوع التالي.

وعلى الرغم من احتمالية أن يكون هذا كلّه صحيحاً جداً – هكذا كان يعقوب يفكّر ويتحدث – وهكذا يضع إحدى رجليه فوق الأخرى – ويحشو غليونه بالتبغ – ثمَّ يرشف القليل من الويسكي، ومرة فقط نظر دفتر الجيب وهو يمسد شعره كعادته دوما، على الرغم من هذا كلّه، لكن يبقى ثمَّة ما لا يمكنه البوح به لأحد آخر إلا ليعقوب نفسه. ثم إنّ بعض الأمر لا يتعلق بيعقوب شخصياً بل برِتشارد بونامي – الغرفة، وعربات التسوق، والساعة، واللحظة التاريخية عينها. والآن، لنتأمل تأثير الجنس– كيف تبقى هذه العلاقة بين رجل وامرأة معلّقة، متأرجحة ومهتزّة، مرة في القاع، وأخرى في القمة، في حين أنَّ كل شيء في الواقع ربما يكون مستوياً ككفّ اليد. حتى الكلمات المحسوبة بين الطرفين تأخذ لهجة مغلوطة بالنسبة كل

منهما. لكن في العادة يبقى هناك شيء يجتذب الإنسان فتراه يحوم مرتعشاً، كفراشة ضخمة بين الزهور على باب مغارة الأسرار، شيء يمنح يعقوب فلاندرز مختلف أنواع الصفات التي يفتقدها تماماً – ذلك أنَّه على الرغم من مجالسته بونامي وتبادل الحديث معه، فمن المؤكد أنّ نصف ما قاله لبونامي كان مملاً لو شئت أن تكرره، كلام غير مفهوم أبداً (عن أشخاص مجهولين وعن البرلمان). وما عدا هذا لا يعدو كونه من قبيل التخمين. ومع ذلك فإنَّنا نظلّ نرتجف معلقين به، هذا اليعقوب.

«نعم»، قال الكابتن بارفوت، وهو ينفض غليونه على حافة موقد بتي فلاندرز، ويزرّر معطفه، «وذلك يضاعف حجم العمل، لكن بالنسبة إلي شخصياً لا مشكلة عندي».

الكابتن بارفوت أصبح اليوم مستشاراً لدار البلدية بالمدينة. أمعن كلاهما النظر في ظلمة الليل، فكان نسخة من الليل اللندني، وإن كان أكثر شفافية منه. في تلك اللحظة كانت أجراس المدينة تعلن تمام الحادية عشرة. مياه البحر هجرتها الريح. وغرقت شبابيك غرفة النوم في الظلام – لقد نام الخدم، وآوى آل غارفيت إلى الفراش، وكذلك آل كرانش – في حين كان أهل لندن يضرمون النار على قمة بارليمنت هيل، احتفالاً بذكرى محاولة انقلاب «غاي فوك».

الفصل السادس

أخذت ألسنة النار تظهر تقريباً.

هتف أحدهم: «وهناك كنيسة سان باول!».

ما إنْ اضطرَمت النار وعلت حتى أنارت أرجاء مدينة لندن في لحظات. كانت الأشجارٌ حول موقع النيران كثيرةً جداً. أكثر ما تراءى بين الوجوه هنا وجه فتاة، كان يتقَّد حيوية ونضارة وكأنَّه مصبوغٌ بالأصفر والأحمر. جسدها لم يظهر هناك. حَجَبتُه حركة اللَّهب المندلع، وكأنَّها رأسٌ بلا جسد. وجهها البيضوي وشعرها كانا معلَّقين جانباً، يطفوان على خلفيةٍ مفرغةٍ في اللّهب المتموّج. عينا تلك الفتاة الخضراوان مع زرقةٍ خفيفة تحدّقان بألسنة اللَّهب في انبهارٍ واضح، وعضلات وجهها متقلّصة. وإذا تأملتها ستقرأ في ملامحها عمق المحنة التي تعانيها – وهي التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر.

من خلال العتمة الموشومة بخطوط متقاطعة، امتدَّت يدٌ رأسها فثبَّتت قبعتها المخروطية البيضاء كقبعة مهرج. حركت الفتاة رأسها. بقيت عيناها شاخصتين. لاح في الأعلى وجهٌ تُميّزه سبلتان كشاربَي قط. فوق النار تدلَّت رجلا طاولة ومعها أغصان مكسَّرة وأوراق شجر، فاشتعلت وشفّت ألسنتها عن وجوه أخرى بعيدة في الخلف، وجوهٌ مستديرة، شاحبة، ناعمة، ومُلتحية،

بعضها يعتمر قبعات من لبّاد، وكلها ممعنة في وجوم. بين تلك الوجوه تجلّى أيضا وجه القديس باول، طافياً على غمامٍ أبيض متموّج، وبرجان مستدقّان أو ثلاثة أبراج بيضاء ناصعة اتخّذت شكل مطفأة حريق.

كانت النار تئز ملتهمة المزيد من الأخشاب، حيث بدأ الماء يندلق عليها من دلاء مجوَّفةٍ بديعة الجمال تشبه قواقع سلاحف مطلية، لا يعلم سوى الله من أين جاءت. استمَّر انهمار الماء أن صار هسيس النار كدويّ خلية نحل، وتلاشت الوجوه كلَّها.

«آه، يا يعقوب»، قالت الفتاة وهما يصعدان السفح في عتمة الليل، «أشعر بتعاسة قاتلة!».

انبعثت قهقهاتٌ متفاوتة أطلقها بعضهم، ضحكات قصيرة، ومجلجلة – بعضها جاء مباشرة، وبعض في وقت لاحق.

كانت قاعة الطعام في الفندق مضاءة جيداً. عند نهاية الطاولة هناك رأس أيّل من الجبصين، فيما جثم على الطرف المقابل تمثالٌ نصفيّ ملوّن بالأسود والأحمر يُمثّل غاي فوكيس (الذي ثار عام ١٦٠٥ على الملك والبرلمان الإنجليزي انتقاماً للظلم الذي لحق بطائفة الروم الكاثوليكيين* م.)، الذي يحتفلون بذكراه. كانت تمتدُّ بين الطاعمين على العشاء سلاسل من أزهار ورقية، حتى إذا حان دور الأغنية التي تقول كلماتها: «يا لتلك الأيام الطيبة في الماضي»، تشابكت الأيدي معاً، حاملةً معها صفّاً كاملاً من الأزهار الوردية والصفراء سقطت مزهرياته على الطاولة. وكان قرعٌ قويٌ لكؤوس الخمر الطازج. نهض أحد الشباب. وحملت فلورندا كرة زجاجية أرجوانية من على الطاولة، ورمتها على رأسه مباشرة، فتفتت شظايا صغيرة.

صرخت بيعقوب الجالس جنبها، وهي تستدير صوبه: «قلت لك إنني لست سعيدة أبداً!»

فتحرَّكت الطاولة بسرعة حتى نهاية الغرفة وكأنَّها على أرجلٍ سحرية. وخلال لحظة انبعثت موسيقا الفالس من آلة أورغن لها شكل برميل، مزيَّنة بقماش أحمر، وسلّتين تحويان زهوراً ورقية.

لم يستطع يعقوب أن يرقص. اكتفى بالوقوف متّكئاً على الحائط وأخذ يدخّن غليونه.

خرج راقصان من الحلقة. انحنيا ليعقوب، وقالا له: «يبدو لنا أنَّك أجمل رجل رأيناه في حياتنا قط».

ثم وضعا إكليلاً من الزهور الورقية على رأسه. وأحضر الموجودون كرسيّاً أبيض موشّى بالذهبي وأجلسوه عليها. وما إن ابتعد الراقصان حتى بدأ الحاضرون يعلّقون على كتفي يعقوب حبّات عنبٍ زجاجية، فصار كتمثال على مقدّمة سفينة محطّمة. قفزت فلورندا وجلست على ركبتيه ودفنت وجهها في صدره. فأمسكها بيد واحدة وظلّ ممسكاً بغليونه باليد الأخرى.

«الآن دعنا نتحدث عن أمر عقلاني»، قال يعقوب لتيمي دورانت، وهما ينزلان على سفح تلة هافرستوك، ما بين الرابعة والخامسة صباحاً يوم السادس من تشرين الثاني، ويسيران معاً متشابكي الأيدي.

اليونانيون -أجل، هؤلاء تحديداً كانوا محور حديثهما – وكيف استمرت نكهة الأدب اليوناني بعد كل الذي قيل وكُتِب عن أهله، وبعد أن تذوّق القرّاء عُصارة آداب شعوب الأرض واكتحلت عيونهم بها ، بما في ذلك آداب الصينيين

والروس (عدا السلافيين غير المتحضرين). استشهد دورانت بمسرح أسخيلوس – بينما تحدث يعقوب عن أعمال سوفوكليس. صحيح أنّ الإغريق جميعهم لم يتمكّنوا من فهم ما الذي يعنيه انتماؤهم بلاد اليونان، ولا استطاع باحث أن يكتنه حقيقة ما تعنيه السمة الإغريقية – لا بأس، فماذا يعني أن تكون يونانياً ولا تهتف بها من فوق قمة هافرستوك أوان طلوع الفجر؟ على أنَّ الأهمّ أنّ تيمي دورانت لم يسمع صوت سوفوكل، كما لم يستمع يعقوب أسخيلوس. كلاهما، يعقوب وتيمي، كان يتباهيان، وكلاهما كان منتصراً. وقد خيّل إليهما أنّهما قد استوعبا مؤلفات الدنيا كلها ، وأحاطا بكل خطيئة، وكلّ هوى ومتعة. كانت الحضارات تحيط بهما كالزهور، فيجمعان منها ما شاء لهما جمعه. والتاريخ برمته كان يتدفق عند أقدامهما كما الأمواج المواتية للإبحار. وباستعراض ذلك كلّه، كما يوحي ضباب لندن، والمصباح، والظلال اللندنية ذاتها، تمكن هذان الشابان من حسم أمرهما بالانتصار للإغريقيين على غيرهم.

«هذا محتمل»، بدأ يعقوب نقاشه. «ربما كنا الشعب الوحيد الذي فهم قيمة الإغريق».

ومع هذه النتيجة ارتشفا معاً قهوتهما من سماور مصقول في كشك هناك، على ضوء المصابيح الصغيرة على الكاونتر.

ظنَّ صاحب الكشك أنّ يعقوب ضابطٌ رفيع في الجيش، ففاتحه بشأن ابنه الذي يخدم العلم في جبل طارق، فما كان من يعقوب إلا أن لعن الجيش البريطاني، وأخذ يمتدح دوق ولنغتون. بعد ذلك عاد مع تيمي أدراجهما، نازلين على سفح التلة ليكملا حديثهما عن اليونانيين القدماء.

إنّه شيء غريب – لو أنّك فكرت في الأمر - ذلك الحب المتنامي عند اليونانيين في ثنايا هذا الغموض، حُبٌّ تعرّض للتحريف والإحباط، لكنّه ظلَّ يتنامى بقفزاتٍ كبيرة، ومُفاجئة، لاسيما لدى مغادرة الغرف المزدحمة، أو بعد حدوث تخمة في المطبوعات، أو حين يطفو القمر بين سلاسل الجبال، أو يغور في تجاويف الأيام اللندنية السقيمة والعقيمة كراحة مجداف دقيق، ونظيف. إنّها معجزة أبداً. ولم يكن يعقوب يعرف من اليونانية أكثر مما يعينه على قراءة متعثرة في مسرحية. وهو جاهل بالتاريخ القديم جهلاً مطبقاً. على أيّ حال، فكلّما ذهب يعقوب لندن كان يتصوّر أنّ اليونانيين، قد رصفوا الطريق بحجارةٍ رنّانة حتى موقع الأكروبولوس، وأنّه لو اتفق لسقراط أن شاهدهم مقبلين فإنّه سيشجعهم ويخاطبهم بقوله: «أهلا بأروع الأصدقاء»، ذلك أن ضمير أثينا برمتها كان معه حتى النّخاع، كرجلٍ حرّ، وجريء، ونبيل الروح... ولقد دعته باسم يعقوب ولم تطلب منه أن يغادر. أثينا كانت تجلس على ركبتيه. وهذا ما كانت تفعله كل النساء الطيبات في زمن الإغريقيين.

في تلك اللحظة بالذات، سرى في الجو عويلٌ، متهدّج، مضطربٌ وحزين، وبدا في حاجة لمزيد من القوة لكي يعلن عن ذاته، ومع ذلك فقد أخذ يفتر باطّراد، فكان بكاءً انفتحت له الأبواب في الشوارع الخلفية بتجهّم حزين، وانهال العمال خارجها.

فلورندا مريضة.

السيدة دورانت، التي لم تنم كعادتها، رسمت علامة بجانب مسالك معينة في الجحيم.

وطمرت كلارا رأسها بوسادتها ونامت. على منضدتها كانت ورود مبعثرة وزوجًا قفازات بيضاء طويلة.

كانت فلورندا ما تزال مريضة وهي تعتمر قبعة مهرج بيضاء مخروطية الشكل، وقد بدت غرفة النوم ملائمة لمثل هذي الكوارث – عليّة ذات جدران مطلية بلون الخردل الرخيص، ما بين الملحق وستوديو، مزينة بنجوم ورقية فضية ذات أشكال غريبة، وقبعات نساء ويلزية، وقلائد تتدلى من رفوف مقوَّسة. فلورندا أخذت اسمها من أحد الرسامين، كان يتمنى أن يكون دليلاً على أنها زهرة لّما تفقد عفّتها بعد. وأيّاً كانت الحال، فهي لا تحمل اسم عائلة، وقالت إنَّ والدها مدفون في قبر تحمل شاهدته صورته. في بعض الأحيان كانت فلورندا تُمعن في توصيف حجم قبر أبيها، بينما تقول الشائعات إنَّ والد فلورندا مات بسبب ورم تضخّم في عظامه ونخرها، حتى أعيا المعالجين. كما عاشت أمها وهي تحظى بثقة أحد سادة الأسرة الملكية، هكذا كانت فلورندا نفسها مرة بعد مرة أميرة، وخاصةً حين تكون ثملة. وهكذا نبذها الناس أكثر من المتوقع، وهي صاحبة العيون الرائعة والشفتين كشفتي طفل، فأخذت تتحدّث عن العذرية أكثر مما اعتادت النساء أن يثرثرن. وفي الليلة السابقة بالضبط فقدت فلورندا عذريتها، لكنّها كتمت هذا السّر بقلبها، حسبما نقل عنها الرجل الذي روت له قصتها. لكن، هل تتكلم فلورندا دوماً مع الرجال؟ كلا، فهناك من تكتم أسرارها: الأم ستيوارت. والاسم ستيوارت، كما ستوضح لكم السيدة هو اسم عائلة ملكية. ولا أحد يدري ما معنى ذلك كله، ولا ما هي طريقتها في العمل. كل ما في الأمر أَنّ السيدة ستيوارت كان يصلها بعض الحوالات البريدية

كل يوم اثنين. وكانت تُربي ببغاء، وتؤمن بالتقّمص، أي انتقال الروح بعد الموت، وبإمكانها قراءة المستقبل على أوراق الشاي. وقد كانت نزيلة بنسيون، وهي وراء مسألة عذرية فلورندا كلّها.

والحال هذه، أخذت فلورندا تبكي. ثم تجولت في الشوارع. جلست في تشيلسي تتأمل مياه النهر وهي تجري سريعاً. ومشت طويلاً في الشوارع مستعرضة واجهات المحلات. صعدت حافلة عامة. فتحت حقيبتها، ووضعت قليلاً من البودرة على خديها. قرأت رسائل غرامية كانت تسندها على أنية الحليب في دكان «أي. بي. سي»، اكتشفت زجاجة في زبدية السكر. واتهمت النادل بالرغبة في تسميمها، وتحدّثت عن بعض الشباب الذين يتحرّشون بها. وسرعان ما ألفت نفسها تخطر على مهل في شارع يعقوب، فتذكّرت فجأة أنَّها مغرمة بذلك الشاب الذي يحمل اسم يعقوب، وأنّها تفضله على الشبان اليهود القذرين. جلست على طاولة يعقوب (وهو يطبع مقالته حول موضوع «الأخلاق البذيئة»). خلعت قفازيها وراحت تحدّثه كيف أنّ الأمّ ستيوارت ضمدت جراحها بغطاء قماشي تستخدمه عادة لتغطية إبريق الشاي.

يعقوب لم يكذب كلامها، على اعتبار أنها امرأة عفيفة. وهكذا جلست تثرثر بجانب الموقد فتحدثت عن فنانين كبار، وعّرجت في حديثها على قبر والدها. لكن فلورندا بدت ضعيفة، وجميلة وعاصفة معاً. وقد خطر ليعقوب أنّ هذا هو شأن الإغريقيات عموماً. وبالتالي فهذه حياة ويجب أن نعيشها. ويعقوب رجل، وفلورندا عفيفة.

غادرت المكان متأبّطة إحدى قصائد شيللي. وقالت إنّ السيدة ستيوارت كثيراً ما كانت تحدّثها عن هذا الشاعر.

الأبرياء بشر مذهلون. هم مذهلون حين يعتقدون أنّ الفتاة نفسها تتسامى على كل أشكال النفاق (رغم أنَّ يعقوب لم يكن مغفَّلاً بحيث يصدّق أي شيء دونما تبصّر)، وأنَّها تساورها شكوك في الحياة المضطربة – وحياة يعقوب بالمقابل تبدو محبَّبة، بل هادئة في ظاهرها – وأنها تشعر بامتلاك خصوصية شخصية تمكنها من معالجة مختلف الاضطرابات الروحيّة التي عانى منها أدوناي (ذلك اللورد اليهودي القديم) ومسرحيات شكسبير، واكتشافها أَنّ لديها روحاً رفاقية بريئة مُفعمة بالنشاط، ولكنها روح وقائية بالنسبة إلى يعقوب، ومتعادلة بالنسبة لكليهما، إذ إن يعقوب كان يعتبر أنَّ النساء مثل الرجال تماماً – والبراءة بهذا الشكل رائعة، أو أنها ليست سخيفة على الأقل.

ذلك أَنّ فلورندا حينما عادت بيتها ليلاً، بدأت أولاً بغسل رأسها، ثم جلست تتناول كريما الشوكولاتة، استعداداً لقراءة قصيدة شيللي. لكن فلورندا شعرت بضيق شديد. فما هي تلك الجلبة كلها، بحق السماء؟ كان عليها أن تتحدّى نفسها وأن تكمل الصفحة قبل الإجهاز على علبة كريما أخرى. لكن ما حدث أنها غفت. فقد كان يومها طويلاً، والأم ستيوارت لم تَعد تحتفظ بغطاء الإبريق القماشي – وشهدت الشوارع أحداثاً خطيرة. وعلى الرغم من أنَّ فلورندا جاهلة مثل بومة، ولن تتقن حتى قراءة رسائل الحب بشكل دقيق، فهي ليست بلا مشاعر، وتميل بعض الرجال أكثر من غيرهم، كما أنها جاهزة لتلبية نداء الحياة تماماً. وسواءاً كانت عذراء أم غير عذراء فهي مسألة تبدو نافلة ولا تقيم لها وزناً بأيّ حال، اللهم إلا إذا كانت العذرية بحدّ ذاتها هي الشيء الأهم في الحياة.

غادرت فلورندا، وشعر يعقوب بقلق.

إنّ الرجال والنساء على السواء يقضون الليل في حالة غليان. ويمكن لمن يعودون بيوتهم في وقت متأخر، حتى في أهم الضواحي، أن تتراءى لهم خيالات تهدهدها الستائر. فلا مكان سواء أكان بارداً كالثلج أم يكتنفه الضباب يخلو من عاشقيه. وهذا هو الموضوع الذي يشكّل محور المسرحيات كلّها. ولهذه الأسباب ذاتها، لا تكاد تمرّ ليلة في غرف النوم بالفنادق دون أنْ تشهد رؤوساً يخترقها الرصاص. وإذا نجت الأجساد من التشويه، فإنَّ القلب نادراً ما ينتهي القبر دونما جراح. هذه هي الأمور الأكثر تداولاً بين ما تعالجه المسرحيات والروايات الشعبية. مع ذلك كلّه نظلّ نقول إنّ هذه المسألة لا أهمية لها البتة.

في مسرحيات شكسبير وأدوناي وموتسارت والقس بيركلي – وأي فنان من هؤلاء وغيرهم – يتمّ التستّر على الحقيقة، وأكثرية أمسياتنا نقضيها بشكل محترم، أو بلا أي شيء سوى القشعريرة عند سماع حفيف أفعى تنسلّ برشاقة بين الأعشاب. لكن إخفاء الأشياء بحدّ ذاته يذهب بالعقل، ويجعله يشرد عن الكتاب أو عما يستمع إليه. ولو كان عند فلورندا عقل حقاً لتمكّنت من قراءة أكثر منا نحن. لكن فلورندا ومن على شاكلتها حلّوا المسألة برمتها بتحويلها لهو بسيط يتمثّل في غسل اليدين كل ليلة قبل الخلود النوم، ما دامت الصعوبة الوحيدة عندهم هي أيّهما أفضل، الماء الساخن أم البارد، وهي قضية محسومة أصلاً، لأنَّ العقل قادر على التعامل مع مشاغله دون إشكالية.

وبالفعل، خطر ليعقوب خلال العشاء أن يتساءل ما إذا كانت فلورندا تمتلك عقلاً أم لا.

فقد جلسا على طاولة صغيرة داخل المطعم.

ثنت فلورندا مرفقيها على الطاولة لتسند ذقنها براحتي كفيها. فانزلقت عباءتها على ظهرها. بدت بشرتها ذهبية مهفهفة ومندّاة بقطرات عرق لامعة، وتألق وجهها كزهرة يانعة تنبت من بين كتفيها، وجه طافح بالبراءة، ولا تشوبه شائبة. راحت تُحمِلق فيما حولها مباشرةً، واستقرّت عيناها أخيراً على وجه يعقوب دون غيره. فجأة بادرته بالقول:

«يعقوب، أتتذكر تلك العلبة السوداء التي تركها ذلك الأسترالي في غرفتي، قبل مدة طويلة؟... في اعتقادي أنَّ الفراء يجعل المرأة تبدو أكبر عمراً بحقّ... ها هو ذا بيكشتاين يدخل الآن... وأنا كثيراً ما أتساءل كيف كنت وأنت صغير، يا عزيزي يعقوب». قضمت لقيمة من لفافتها ونظرت إليه.

«يعقوب، أنت تشبه أحد تلك التماثيل... وفي المتحف البريطاني الكثير من الأشكال المحبَّة، أليس كذلك؟ كثير من الأشياء المحببة...». كانت تتكلم وكأنَّها تُعايش حلماً. وكانت الغرفة خانقة، والحرارة ارتفاع. وحديث المطاعم هو حديث من يمشي في نومه، كما أنّ هناك كثيراً من الأشياء التي لا بدَّ من النظر إليها – والكثير جداً من الضجيج – حيث القاعة مليئة بالمتحدثين. فهل ثمَّة من يلتقط كلمة؟ لا بأس، لكن لا ينبغي أن يسمعنا أحد.

«ذلك أشبه بإيلين ناغل... تلك الفتاة...» وهلُمَّ جرّاً.

«يعقوب، ما أسعدني أنّي عرفتك. فأنت مثال للإنسان الطيب».

في تلك الساعة كان القمر يكبر ويكبر، والكلام يعلو ويعلو أكثر، وطقطقة السكاكين.

«حسناً. هل فهمتم ما يجعلها تتفوه بأشياء كهذه...».

توقفت هي عن الكلام. وتوقف الجميع.

«يوم غد... الأحد... إنسان بهيمي... تقول... هيا إذن!». صوت تحطم! وانفجرت باكية.

على الطاولة المجاورة كان هناك صوت يدوّم أعلى فأعلى. فجأة رمت إحداهن عدداً من الأطباق على الأرض فتحطّمت. بقي الرجل جالساً في المكان وحده. نظر الجميع لاستطلاع ما يحدث. ومن ثمَّ - «يا له من شاب مسكين. يجب ألا نكتفي بالتفرُّج. إنه حدث مثير! ألم تسمعوا ما قالته تلك المرأة؟ وحق السماء، يبدو صاحبنا مغفلاً! لكن أظن أنَّ الأمور لم تصل إلى نهايتها. انسكب الخردل على غطاء الطاولة، وأخذ النادلون يقهقهون ».

انشغل يعقوب بمراقبة فلورندا. فهم من نظراتها المحملقة وملامح وجهها وهي تجلس قبالته أنَّها لا تمتلك عقلاً.

انفجرت المرأة السوداء ذات القبعة المزينة بريشة مهتزة بالبكاء.

مع ذلك لا بدَّ لها أخيراً من العثور على مكان تلوذ به. والليل لم يكن بحراً مظلماً يمكنك أن تغوص فيه وتختبىء، أو تُبحر كما تفعل النجوم. كانت في

الواقع ليلة ماطرة من ليالي تشرين الثاني، رسمت فيها أنوار سوهو بقعاً ضوئية كبيرة لزجة على الرصيف. أمّا الزواريب الجانبية فكانت مكاناً ملائماً يمكن لرجل، أو امرأة، اللجوء إليه، وتحضنه ممرات البيوت. فما إنْ اقترب يعقوب وفلورندا حتى انسلّ شخص عن الجدار وابتعد.

قالت فلورندا: «لقد أوقعت قفازها».

أسرع يعقوب وناول المرأة قفازها.

شكرته بحرارة. أكملت مسيرها، فسقط القفاز ثانية منها. ما المشكلة؟ ومن أجل من؟ وفي الوقت عينه، من أين وصلت تلك المرأة الأخرى؟ وذلك الرجل؟

أنوار الشارع لا تصل مكان بعيد لتكشف كل ما يحدث في الشارع. لم يكن مسموعاً في عتمة الليل غير أصوات الوحوش في الأقفاص، أصوات مزمجرة، شبقة، محبطة، متّقدة. لكن الوحوش لم تكن داخل الأقفاص، ولا هي من السباع. لو أنّك أوقفت شخصاً وسألته عن الطريق فسيدلك عليه. لكن المرء يخشى أن يسأل عن السبيل. ترى، ما الذي يخافه الإنسان؟ - إنّها العين البشرية. فجأة يضيق الرصيف، وتزداد الهوة عمقاً. انتبه! لقد تلاشيا فيها، المرأة والرجل. وفي مكان أبعد قليلاً، ثمَّة لوحة دعائية يعرضها مأوى، معلَّقة كيفما اتفق خلف نوافذ بلا ستائر، لوحة تقف شاهداً على عمق مدينة لندن. وقد كانا هناك، مشرقين تماماً، ويجلسان على كراسٍ من خيزران في ثياب سيدة وسيد. أرامل السّادة رجال الأعمال يُثبتن بجدية كبيرة أنّهن من

أقارب رجال القضاء. ونساء تجار الفحم لا يتلكآن في الردّ بأنّ آباءهن يستخدمون حوذيين لقيادة عرباتهم. ويستمر المستخدم بإحضار القهوة، وعليه تقع مسؤولية نقل السلة المحبوكة من عساليج الشجر الطريّة. وفي الظلام أيضاً، في الطريق غرفته يمرُّ يعقوب وهو يحتضن فلورندا بذراعه، بفتاة تبيع الأشياء، وامرأة عجوز تبيع الكبريت، ولا شيء غير الكبريت. يخترقان الزحام من ناحية مركز «تيوب»، حيث النسوة بشعرهن المغطى بإشارب، وأخيراً يجتازان المكان فلا يشاهدان غير الأبواب المقفلة، وأعمدة الأبواب المزخرفة بالنقوش، ورجل بوليس يقف منفرداً، حتى يصلا باب غرفة يعقوب. يشعل يعقوب المصباح، ولا تصدر منه كلمة.

قالت فلورندا: أحبك وأنت بهذه الصورة».

إنَّها إشكالية لا حلّ لها. إنّ العقل هو إمام الجسد ومعقله. والجمال متلازم والغباء. جلست فلورندا تُحمِلق في النار كما حملقت قبلها في علبة الخردل المتكسرّة. وعلى الرغم من أنّ يعقوب قد دافع عن ذلك التصرف البذيء لكنّه لم يكن متأكداً ما إذا كان يفضّل قلة الاحتشام لدى قليلي التجربة. يعقوب يميل إلى العودة إلى المجتمع الذكوري، و الغرف المنعزلة، وأعمال الكلاسيكيين، كما أنّه هو مستعد لأن يقدّم تاجاً لأي شخص يسعى صياغة الحياة على هذا النحو.

وضعت فلورندا يدها على ركبته.

وعلى الرغم من كل شيء، لم تكن تلك خطيئتها. لكن الفكرة عكّرت مزاجه. ليست الكوارث، ولا الجرائم، والموت والأمراض هي التي تجعلنا

نهرم ونموت، بل هي طريقة الناس في النظر والضحك، والركض خلف الحافلات على الطرق.

مع ذلك، إنّ أي عذر هو في مصلحة المرأة الغبية. وقد تذرّع لها يعقوب بأنّه يعاني من الصداع.

لكنّها حين نظرت إليه بصمت تام، وهي شبه مدركة، وشبه مستوعبة، وربّما بشيء من الاعتذار، ردّدت العبارة التي قالها هو: «إنّها ليست غلطتي أنا»، بجسدها الممشوق والجميل، وبوجهها الذي يشبه وجه صدفة داخل قوقعتها، أدرك تماماً أنَّ الأماكن المغلقة والكلاسيكيات لا تجدي نفعاً على أية حال. فالمشكلة معقدة ولا حلّ لها.

الفصل السابع

في تلك الأوقات طرحت شركة تجارية لمجموعة من المتعاملين مع المشرق زهوراً صغيرة مصنوعة من الورق، تتفتح وتكبر عند ملامستها الماء. ولأنَّ العادة كانت تقتضي وضع إناءٍ فيه ماء لغسل الأصابع عند الانتهاء من العشاء، فقد شكَّل هذا الاكتشاف الجديد خدمة طيبة للناس. كانت الزهرات الصغيرة الملونة تطفو على وجه الماء وتنزلق سابحة في الآنية المظلَّلة، معتليةً المويجات الزلقة الناعمة، وإن كانت أحياناً تغرق وتتجمّع كالحصيات في قاع الإناء الزجاجي. وفي مختلف الأحوال كان الذي لاقته من نجاح محطّ أنظار المعجبين واجتماعهم. ومن المؤكد أن هذا الاختراع شكل وسيلة رائعة لإئتلاف القلوب وبناء البيوت. كان ذلك من شأن الزهور الورقية.

لكن هذا لا يعني أَنّ تلك الزهور كان ضربة قاضية للتفكير بمكانة أزهار الطبيعة. بقيت الورود، لاسيما أزهار السوسن والقرنفل تملأ الزهريات، وتتسلق على حوافها، ومقياساً لإشراقة أعمار حياة مثيلاتها الاصطناعية ونسبيتها. السيد ستيوارت أوزموند شخصياً هو صاحب هذه الملاحظة، كفكرة آسرة. ومن نتائجها في نهاية الأمر أنْ تزوجته كيتي كريستر إعجاباً بفكرته، بعد ستة أشهر فقط. مع ذلك فالأزهار الحقيقية لا غنى عنها. ولو صحّت فكرة الاستغناء عنها، فإنَّ حياة البشر ستتخذ اتجاهاً مختلفاً تماماً. ذلك

أنّ الزهور الطبيعية، الأقحوان خاصة، قد تذبل. فهي تكون في أبهى حالاتها خلال الليل، لكنّها تصبح صفراء منهكة في الصباح التالي – ومنظرها لا يسرّ الخاطر. وعموماً، على الرغم من فظاعة ثمن القرنفل لكنَّ زراعته جزلة العطاء. على أيّة حال، المسألة تكمن في حكمة أفضلية شمل الضمّة بسوار أو لا. بعض المحلات تنصح بإحاطتها بسلك، وهذه دون شك هي الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها أثناء الرقص. لكن السؤال غير المؤكد يتعلّق بضرورة زهر القرنفل على مآدب الحفلات، إلا إذا كان جو القاعة حارّاً جداً. السيدة العجوز تمبل كانت تنصح بورقة اللبلاب تمثّل – ورقة واحدة فقط – توضع في الإناء. وتزعم أنّ ورق اللبلاب يحافظ على المياه نقية لأيام طويلة. لكنّ هناك ما يجعل المرء يشكّ في دقّة فرضية هذه العجوز.

على أيّة حال، تمثل أدوات تسريح الشعر (المسرّحات) الصغيرة، المحفورة عليها أسماء الخيل، مسألة أكثر خطورة من الأزهار. فهي السبب في تآكل مزيد من أرجل الخيل، وإهدار حياة المزيد من الحوذيين، وتبذير لا طائل منه لساعات كثيرة من أوقات العصر الهادئة، يفوق ما أنفقناه لكسب معركة واترلو، والثمن الذي دفعناه في تلك الصفقة. كذلك فإنَّ العفاريت الصغار هم سبب العديد من حالات الإنقاذ المؤقت والمصائب والهموم، مثل تلك المعركة ذاتها. أحياناً يقولون لي إنّ السيدة بونهام قد خرجت للتوّ، وفي أحيان أخرى تكون في البيت. لكن حتى لو تحتَّم استبدال تلك المسرحات، وهو ما يبدو أمراً مستبعداً، فهناك قوىً جامحة مثلها تثير زوابع في حياة الناس، وتؤدي فوضى الصباحات المنتظمة، والقضاء على استقرار لحظات العصر - أعني أنَّها تقتل طمأنينة المزينين وصانعي الحلويات.

وفي نهاية المطاف، لا يحتاج صحن الكنيسة الواحد لأكثر من ستة أمتار من الحرير لتغطيته، لكنَّ المشكلة تكمُن فيما إذا كان يتوجب ابتكار ستة أشكال من الحرير، وضعف هذا الرقم من مختلف الألوان؟ - تعلوها قبعات من الكريما الخضراء والمشرفيات المصنوعة من معجون اللوز. ذلك لمّا يحصل بعد.

حلّقت أسراب الفلامنغو في مواعيدها، أطراف أجنحتها مغموسة بانتظام بقار أسود، مثل تلّة نوتنغ، على سبيل المثال، أو جنبات تلال كليركنويل المتاخمة. لم يكن مستغرباً أنَ يبقى الفن الإيطالي محجوباً، وآلة البيانو تكرر دوماً السوناتا ذاتها. من أجل شراء زوج من جوارب النايلون للسيدة «بيج»، الأرملة وهي في الثالثة والستين، تسلمت خمسة شلنات كمساعدة خارجية، وبمعاونة ابنها الوحيد العامل في شركة السادة ماكي للأصبغة، وهو الذي يعاني في الشتاء من ألم الصدر، وتدعوه الضرورة إلى إعداد الرسائل اللازمة، وترتيب الجداول الحسابية بجلسة واحدة، وتدوين ملاحظات مختصرة في دفتر مذكرات السيد ليتس بشأن حالة الجوّ، وعن شيطنة الأطفال، ووصف طبيعة يعقوب فلاندرز العُلْوية. على أية حال، كان بإمكان كلارا دورانت شراء الجوارب، وعزف السوناتا الموسيقية، وأيضا ملء المزهريات بالورود، وشراء الحلوى، والتخلّي عن البطاقات. وبعد ظهور الأزهار الورقية كابتكار عظيم، التي تطفو وتنمو على وجه الماء في آنية كالأصابع الصغيرة، كانت كلارا أحد أشدّ المعجبين بها.

وهذه الأحداث ما كانت لتجري دون فضول الشعراء للاحتفال بها. ومن ذلك مثلاً، الأبيات الشعرية التي دبّجها الشاعر إدوين ماليت واختتمها بالقول:

• **وقرؤوا مصائرهم في عينّي كلوي.**

وهي أبيات جعلت وجنتي كلارا تتورد خفراً عندما قرأتها لأول مرة، لكنّها انفجرت ضاحكة بعد القراءة الثانية، وعلّقت بقولها إنّ أحد غير هذا الرجل لا يدعوها بالاسم «كلوي» في حين أنّ الجميع ينادونها باسمها، كلارا. يا له من فتى مضحك! وفي صبيحة يوم ماطر، بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً، حضر الشاعر، إدوين ماليت، وكشف لها عن مكنون قلبه وحياته، فتسلّلت من غرفة الجلوس واندست في سريرها. وفي النتيجة لم يفلح تيموثي طوال فترة الصباح في مواساتها وتجفيف دموعها.

«هذه نتيجة حبّك المتعةَ»، قالت الأم، السيدة دورانت بقسوة، وهي تستعرض برنامج الرقص الذي تتكرّر فيه الأحرف الأولى ذاتها لاسم المدرب، أو ربّما كانت مختلفة هذه المرة ر. ب. (رتشارد بونامي)، اختصاراً لاسم ذلك الشاب ذي الأنف الويلنغتوني، بدلاً من الاسم الذي يبدأ بالحرفين إي. أم (إدوين ماليت).

ردّت كلارا: «لا. لا يمكن أن أتزوج رجلاً له مثل هذا الأنف».

قالت السيدة دورانت: «حكي فاضي».

وفجأة شعرت السيدة دورانت بقسوة كلماتها لابنتها فراجعت نفسها. «هذه قسوة بالغة معها»، قالت في نفسها. كذلك تأثرت كلارا بدورها بهذا الموقف النقدي، حتى أنها فقدت حيويتها، ومزقت برنامج الرقص وألقت قصاصاته الورقية في الموقد.

تلك إذن النتائج الخطيرة المترتبة على ابتكار الأزهار الورقية التي تطفو على سطح الماء في الأواني.

اتخذت الآنسة جوليا إليوت مكانها إلى جانب الستارة، قُبالة الباب تقريباً. وقالت للسيد سالفن «أرجوك. لا تورطني. فأنا أُفضّل الاكتفاء بالمراقبة فقط. ذلك هو الشيء الممتع». وكان السيد سالفن على كرسيه المتحرك الذي قُدّم له لمساعدته، لأنَّ رجله عرجاء. وتابعت جوليا كلامها فأضافت: «إنّ الشيء المُسلّي في الحفل هو الجلوس ومراقبة حركة الناس، جيئةً وذهاباً، وهم يأتون ويذهبون».

«أذكر أننّا التقينا ذات يوم»، قال لها السيد سالفن، «وذلك في بيت آل فاركوهار. يا لتلك السيدة المسكينة! لقد كان عليها أن تتحمل أموراً كثيرة».

سألت الآنسة إليوت، بينما كانت كلارا دورانت تمرّ بهما: «لكن ألا تبدو فاتنة؟»

فسألها السيد سالفن بصوت خفيض، وبطريقة مربكة: «لكن من تقصدين، أي واحدة منهما...؟»

«كثيرات...»، ردت الآنسة إليوت. وكان هناك ثلاثة شُبّان يقفون في عتبة الباب، ويسألون عن مضيفتهم.

«واضح أنّك لا تتذكرين إليزابيث مثلما أذكرها أنا»، قال السيد سالفن، وأضاف «كانت ترقص على عقبيها في بانشوري. كلارا لا تمتلك روح أمّها. وهي تبدو متعبة».

قالت الآنسة إليوت: «ما أكثر ضروب الناس التي يلتقيها المرء هنا!»

قال السيد سالفن: «من حُسن الحظ أننّا لسنا خاضعين لصحف المساء».

ردّت الآنسة إليوت: «بالنسبة لي» ، «أنا عادةً، لا أقرأ هذه الصحف. كما أنّني لا أفقه شيئا في السياسة».

في تلك اللحظة مرّت بهما كلارا، وقالت «البيانو جاهز لمن يريد العزف، لكن ربَّما نحتاج من يساعدنا لنقله».

سأل السيد سالفن: «وهل هناك ثمَّة مجال للرقص؟»

أجابت السيدة دورانت بشكل قاطع، وهي تمرّ به: «لن يضايقك أحد».

«جوليا إليوت. إنّها جوليا إليوت». قالت السيدة العجوز هيبرت، وهي تمدُّ كلتا يديها مهللّة بلقاء جوليا. «والسيد سالفن أيضاً. تُرى ما الذي يحدث لنا يا سيد سالفن؟ على الرغم من تجربتي الكبيرة في السياسة الإنجليزية – لكنّ طيف والدك لم يبارحني طوال ليلة أمس، يا عزيزي – إنَّه أحد أقدم أصدقائي، ياسيد سالفن. والآن، لا تقل لي إنَّ الفتيات لسن أهلا للحُبّ! أنا حفظت مسرحيات شكسبير كلها عن ظهر قلب قبل بلوغي سن المراهقة، يا سيد سالفن!».

رد السيد سالفن: «لكنّك لم تخبريني بذلك».

أكدت السيدة هيبرت: «بل أعلنته».

أضافت: «على أيّ حال، أنا متأسفة جداً، يا سيد سالفن...».

قال لها: «سأغيرّ مكاني هذا إذا ساعدتني، من فضلك».

قالت له كلارا: «أنا سأدفعك لتكون بجانب أمّي»، وأضافت: «يبدو أنَّ الجميع سيصلي... يا سيد كالثورب، لكن اسمح لي بأن أقدمك للآنسة إدواردز».

«هل ستسافرين في إجازة أعياد الميلاد؟» سألها السيد كالثورب.

أجابت الآنسة إدواردز: «طبعاً سنسافر، إذا حصل شقيقي على إجازة».

سألها: «في أي كتيبة يخدم هو»؟

أجابت الآنسة إدواردز: «في كتيبة هوسار رقم عشرين».

قال: «إذن ربما كان يعرف شقيقي».

قالت إدواردز: «أخشى أنّني لم أحفظ اسمك بالضبط».

قال لها: «كالثورب».

تدخل السيد كروسبي فسأل: «لكن ما الذي يؤكد على انتهاء مراسم الزواج عمليّاً؟

وقال السيد بورلي «لا شيء يدعو إلى الشك في أنَّ تشالز جيمس فوكس...». فقاطعته السيدة ستريتون موضحة له أنَّها كانت تعرف شقيقته تمام المعرفة، وأنَّها قضت بصحبتها هنا وقتاً طويلاً قبل أكثر من ستة أسابيع، وأردفت أنّها تعتقد أَنّ المنزل هنا مريح جداً، ولكنّه موحش في أيام الشتاء.

قال السيد فورستر: «الخروج كما تفعل بنات هذه الأيام».

تلفَّت السيد باولي حواليه. وما إنْ لمح روز حتى اقترب منها، مادّاً كلتا يديه نحوها وهو يهتف: «أخبار جديدة».

«لا جديد»، ردّت روز، «لا جديد أبداً – رغم أنّني تعمّدت تركهما بمفردهما طوال فترة ما بعد الظهر».

قال السيد باولي: «غاليتي، غاليتي الطيبة»، سأدعو جيمي على الإفطار».

هتفت روز شو: «لكن من الذي يمكنه أن يقاومها»؟ «يا لكلارا الغالية - أعرف أنّه من واجبنا ألا نحاول منعك...».

قالت كلارا: «أدري أنكما تتحدثان بأشياء مخيفة، أنت والسيد باولي».

هتفت روز شو: «يا لنكد الحياة، ويا لحقارتها».

قال تيموثي دورانت ليعقوب: «ليس بالإمكان التحدّث عن أشياء كثيرة من هذا النوع أليس كذلك»؟

«لكنَّ النساء يفضلن ذلك».

سألت تشارلوت ويلدنغ، وهي مُقبِلة عليهم: «يفضلن ماذا»؟

سألها تيموثي: «من أين جئت؟» أرى أنك كنت تتعشين في مكان ما».

ردت تشارلوت: «لا أرى مشكلة في ذلك».

قالت كلارا وهي تعبر المكان: «أرجو من الجميع النزول الأسفل، هيا بنا يا تيموثي، عليك أن ترافق تشارلوت». وأنت يا سيد فلاندرز، أرجو أن تكون بخير».

مدّت جوليا إليوت يدها لتصافح يعقوب فلاندرز، وقالت له: «أهلاً، يا سيد فلاندرز».

ماذا حدث لك؟

/ من هي سيلفيا؟ ومن تمثّل؟

حتى يمتدحها كلُّ العاشقين؟ /

هذا ما غنته إليزابيث سيدونز.

تسمّر الجميع في أماكنهم، أو جلس الذين وجدوا كرسياً فارغاً.

تنهّدت كلارا، وكانت تقف جانب يعقوب في منتصف المسافة. فتابعت إليزابيث غناءها:

/ إذن فلنغنّ لسيلفيا،

كامرأة متميّزة.

ومتفوّقة دونما استثناء

على كل من دبّ على سطح البسيطة.

فلنحمل لها أكاليل الغار /.

«رائع!»، صاحت كلارا ثانية بصوت عالٍ، وشبكت أصابعها المختبئة في قفاز وهو ما فعله يعقوب أيضاً بيديه العاريتين. ثمَّ تقدمت لترشد المشاركين في الحفل.

سألته الآنسة جوليا إيليوت: «سيد يعقوب، أنت تعيش في لندن».

قال يعقوب: «نعم».

«في غرفة فندقية؟»

«أجل».

«إنه السيد كلترباك. وهو متواجد هنا دائماً. أخشى أنَّه يعيش حياة بائسة في بيته. بعضهم يقول إنّ زوجه السيدة كلترباك...». أسرّت له بشيء ما بصوت خفيض. ثمّ تابعت تقول: «لهذا فهو لا يكاد يبارح بيت آل دورانت. هل كنت حاضراً حين قدّموا المسرحية التي كتبها السيد وارتلي؟ آه. صحيح. لا، بالتأكيد أنت لم تحضر ذلك العرض المسرحي – وهل بلغ كأنه في اللحظة الأخيرة – كان عليك أن تزور والدتك في هاروغيت يا سيد يعقوب، وأذكر - كما كنت سأقول لك، في اللحظة الأخيرة، بعد أن فرغوا من الترتيبات الخاصة بالعرض المسرحي كلها، بما في ذلك تجهيز الأزياء وما ذلك كلّه – ها هي ذي إليزابيث تعود لتغني ثانية. وسترافقها كلارا بالعزف، أم أنَّ كلارا ستعزف مع السيد كارتر، كما أظن. كلا. بل إنَّ السيد كارتر يعزف منفرداً – هذه مقطوعة من موسيقا باخ»، قالت همساً، حالما بدأ السيد كارتر يعزف الفواصل الأولى للمقطوعة.

سألته السيدة دورانت: «هل أنت مغرم بالموسيقى يا سيد يعقوب؟».

أجاب يعقوب: «أجل. أنا أحب السماع. لكني لا أملك أيَّ معلومات عن الموسيقا».

قالت السيدة دورانت: «القلة فقط من الناس يفهمون «الموسيقا»، «وأخشى أنّك لم تتعلمها قطّ. لماذا يحدث هذا، يا سير غاسبر؟ أعني السير

غاسبر بيغهام – السيد فلاندرز. لماذا لا يتمّ تلقين الجميع الموسيقا التي ينبغي أن يعرفوها، يا سير غاسبر؟ مشت وتركتهم واقفين بجانب الحائط.

مرّت ثلاث دقائق ولم يُسمع أيّ كلام من أحد، وإنْ كان يعقوب قد تحرّك عدّة بوصات اليسار، ومن ثم مثلها يميناً. بعد ذلك نخر، ومشى فجأة عبر الغرفة.

قال يعقوب لكلارا دورانت: «هلا أتيت لتأكلي شيئاً»؟

قالت له: «نعم. قطعة آيس كريم. على عجل. حالاً».

وهكذا نزلا معاً.

في منتصف المسافة أثناء نزولهما التقيا السيد والسيدة غريشام، وهربرت تورنر، وسيلفيا راشليغ، مع صديق لهم كانوا تجرؤوا ودعوه فجاء من أمريكا، «لعلمهم أنَّ السيدة دورانت – رغبة منها في رؤية السيد بلشر، – والسيد بلشر نيويوركي – هذه هي السيدة دورانت».

قال السيد بلشر، مع انحناءة احترام لها: «وهي السيدة التي طالما سمعت عنها الكثير».

عند ذلك تركته كلارا.

الفصل الثامن

من عادة يعقوب مغادرة المنزل عند الساعة التاسعة والنصف. يُغلق باب غرفته بقوة، وتتبعه أبوابٌ أخرى. في الطريق يشتري كمية من الورق، ثم يستقلّ الحافلة، أو يتابع سيره مشياً على قدميه إذا سمح الطقس بذلك، شأن الناس كلهم. ثمة رأسٌ محنيّ، وراء مكتب عليه جهاز هاتف، كتب مجلّدة بلون أخضر، مصباح كهربائي... «أتريد فحماً جديداً، سيدي؟»... تفضل الشاي، يا سيدي»... نقاشات تدور حول كرة القدم، حول آل هوتسبرز، وهارلكوينز. صبي المكتب يحضر قهوة «ستار»، وغربان نُزُل غراي المحلّقة لا تكفّ عن التحليق دوماً فوق رؤوس المارّة. أغصان رفيعة واخزة تخترق الضباب. وبين آنٍ وآخر يعلو صوت وسط ضجيج الشارع، منادياً: حكم قضائي – حكم قضائي – فائز – فائز»، في حين تتكوّم الرسائل في سلّة، ليوقّعها يعقوب. وفي كل مساء يراه الصبي وهو يحمل معطفه، بأعصابٍ بعضها مستنفر.

أحياناً يلعب يعقوب منازلة في الشطرنج، أو يشهد تصويراً بشارع بوند، أو يعود أدراجه البيت عبر الطريق الطويلة ليتنسّم الهواء برفقة بونامي. فيمشي وهو يفكر، رأسه مائل إلى الوراء، حيث يرى العالم مشهداً هائلاً، والقمر الهلال يبزغ فوق أبراج الكنيسة ممجّداً الحياة، وطيور النورس تطير أعلى فأعلى، ونيلسون يقف في الطابور يُمعن النظر في الأفق، وبهذا العالم السابح مثل مركب.

في الوقت عينه، تجلس بتي فلاندرز المسكينة على طاولة في مكتب البريد، لتودع رسالتها في الدفعة الثانية من البريد. ولا تكاد تسجل اسم ابنها كاملاً: «يعقوب آلن فلاندرز» المحترم، كغيرها من الأمّهات، بالحبر الباهت، والغزير، فيوحي منظرها بنساء في سكاربورو اللاتي يخربشن أشياءهن، وأقدامهن على حافة الموقد، بعد أَنْ يُرفع إبريق الشاي عنه، دون أنْ يستطعن أبدا الكشف عمّا كتبن من أشياء وتوصيات على الورق، في أي ظرف كان – وربّما في هذا الظرف – من قبيل: إياك ومرافقة النساء السيئات، كن شاباً طيباً، البس قمصاناً سميكة، عُدْ لي سالماً، فأنا في انتظارك، فعد لي بخير.

لكن بتي لم تقل شيئاً كهذا. كلُّ ما كتبته كان: «بنيَّ، هل تذكر السيدة العجوز وورغريف التي عاملتك بمنتهى الرقّة عندما أخذتك نوبةُ برد وسعال؟» وقالت أيضاً: «حسناً، تلك المرأة المسكينة توفيت. ولا شكّ في أَنّ ذويها سيعجبون بك إذا كتبت لهم معزّياً. لقد زارتني إيلين وقضينا معاً يوماً لطيفاً في السوق. كذلك فالعجوز ماوس تخشّب جسمه تماماً. ما عاد قادراً على صعود حتى أصغر تلة، لذلك نضطر لمساعدته. وأخبرك أيضاً أنَّ ربيكا قد رحلت من هنا منزل السيد أدامسون، ولا أدري متى. وهو يقول إنّه بحاجة خلع ثلاثة من أضراسه. أما بشأن الطقس فهو لطيف عموماً بالنسبة مثل هذا الوقت من السنة، وقد بدأت تظهر البراعم في شجرة الإجاص. وقد أخبرتني السيدة غارفز إنّها...». والسيدة فلاندرز تُحبّ السيدة غارفز، ولا تكفّ عن مديحها، كونها امرأة تنسجم مع هذا المكان الهادئ، وبرغم أنّها لم تكن تحفل بكلماتها الساخطة، وأنّها أخبرتها في نهاية الأمر (وهي تنظر

إلى الأعلى، أو تمضغ رأس الخيط لتدخله في سمّ الإبرة، أو ريثما تركّز وضع نظارتها على عينيها) أنّ وجود لفافة من نبات الخُثّ حول جذور السوسن يحميها من الصقيع، وإنّ أفضل يوم يستطيع باروت أن يجري صفقة تجارية رابحة هو يوم الثلاثاء المقبل، «فتذكر يا بنيَّ هذا جيداً». في الواقع كانت السيدة فلاندرز تدرك تماماً حقيقة مشاعر السيدة غارفز. وتعرف كم هي مشوّقة الرسائل التي تكتبها عن السيدة غارفز، وأنَّ بإمكان المرء الرجوع إليها وقراءتها ولو مرة في كلّ سنتين كأدبيّات لم تنشر عن المرأة، كانت هي تكتبها بجانب الموقد لكن بقليل من السلاسة، ومن ثم تعرضها للنار لكي تجفّ، سيّما أَنّ ورقة النشّافة لم تعد صالحة لهذا الغرض، ورأس ريشة الخطّ مثلومة، ويقطر منها الحبر.

هنا يأتي دور الكابتن بارفوت، وبتي فلاندرز تدعوه بـ«الكابتن فقط، وتتحدث عنه بصراحة ولكن ليس دون تحفّظ. الكابتن بارفوت كان يسأل عن بتي من أجل استثمار فدّان الأرض الذي تملكه غارفيت، حيث نصحها بمزرعة للدواجن، فقد تكون مربحة، أو لكي يطمئن ما إذا كانت تعاني من المرض الوركي «عرق النسا»، أو حين تضطر السيدة بارفوت ملازمة المنزل لأسابيع بسبب مرضها. أحياناً قد يتكلم الكابتن بأشياء تبدو غير مستحبّة، كأمور السياسة مثلاً. فيعقوب يعلم أنّ الكابتن كثيراً ما يتكلم عن إيرلندة أو الهند في ساعات المساء. وعندئذ تغرق السيدة فلاندرز بالتفكير بشقيقها مورتي، المفقود منذ سنوات عديدة خلال رحلة بحرية – ولا أحد يدري هل انتشله الأهالي هناك، أم أن سفينته غرقت – وتتمنى على قيادة القوات البحرية إفادتها بشيء عن مصيره؟ في هذه الحالات يعرف يعقوب أَنّ الكابتن يبدأ أولا

بتنظيف غليونه بنفضه مرة بعد أخرى استعداداً للمغادرة، ولا ينسى أَنْ يحني جسده المتيبس لمساعدة السيدة فلاندرز في استعادة كبة الصوف إذا تدحرجت تحت الكرسي. وكثيراً ما كانوا يفتحون سيرة مزرعة الفراريج، وربما أطلقت النسوة الخمسينيات العنان لألسنتهن بشيء من الامتعاض الداخلي، فيستعرضن تلك المشاريع المستقبلية الغامضة، كتربيةأسراب الدجاج من نوع لوغهورن، كوشين تشينا، أربنغتون. وكانت السيدة فلاندرز أثناء حديثها تذكّر يعقوب، الذي غدا الآن شاباً واعداً وقوياً، بماضيه وهو يركض حول المنزل، ويعنف ربيكا كما كانت تفعل هي في شبابها.

رسالة السيدة فلاندرز على طاولة الصالة. ألقتها هناك فلورندا عندما حضرت في تلك الليلة، بينما كانت تقبّل يعقوب. شاهد يعقوب التوقيع على الرسالة فوضعها تحت المصباح، بين علبة البسكويت وعلبة الدخان. ثم أغلقا باب غرفة النوم خلفهما.

غرفة الجلوس لا تدري ولا تهتم بما يجري. الباب مرتج. ومن العبث أنْ نفترض أنّ صرير الخشب يمكن أنْ يشي بسرّ، والفئران منشغلة بمعالجة الخشب الجاف. فهذه المنازل القديمة مصنوعة من الطوب والخشب ليس أكثر، ومجبولة بعرق الناس المشبع بقذارتهم. لكن لو كان مغلف الرسالة الأزرق بجانب علبة البسكويت يملك قلباً ينبض بعاطفة ومشاعر الأمهات لتمزّق من صرير الخشب الخفيف، والحركات المفاجئة. فخلف الباب المرتج يحدث ما يحدث، ودونه حضور مخيف، بينما يعتري الأم رعبٌ يشبه رعب لحظات الموت، أو الولادة. لذلك من الأفضل، ربّما، أن تتفجر شرايينها وهي تواجه تلك اللحظة المرعبة، وهي تجلس في الحجرة الأمامية

وتُصغي صوت الصرير الخفيف، والحركة المفاجئة، ذلك أن قلبها طفح كيله واخترمه الألم. والحال هذه، لم يعد أمام هذه الأم سوى أن تصرخ في يأس: ولدي، أيها الحبيب – وهي تتخيل كيف يرتمي فلذة كبدها بين ذراعي فلورندا، فتأتي صرختها خارج حدود العقل ومنطق الأعذار، صرخة عمياء من امرأة هي في واقع الأمر أمّ لثلاثة أولاد وتعيش في سكاربورو. والملوم وحده هيفلورندا. وبالفعل، ما إنْ فُتح الباب وأطلّ يعقوب وفلورندا منه حتى انتفضت السيدة فلاندرز - حيث خرج يعقوب أولا متجلبباً بقميص نومه، مهيباً، آسراً، وجميلاً، كطفل عائد للتو من نزهة في الخارج، وبعيون أشد صفاء من الماء القراح، وتبعته فلورندا، وهي تتمطّى وتتثاءب قليلاً، وراحت تسوّي شعرها أمام المرآة – فيما أخذ يعقوب يقرأ رسالة أمه.

والآن، دعونا نتأمل معاً بعض رسائل أمّه، السيدة فلاندرز، له – وكيف تصله في موعد تناول الطعام الصباحي، وخلال الليل، وعليها طوابع صفراء وأختام خضر، ويثبتها الختم البريدي – ذلك أنك إذا شاهدت غلاف رسالتك على طاولة غيرك، فمعناه أنْ تدرك كيف تنفصل الأفعال وتصبح غريبة عن صاحبها. ومن ثُمَّ في نهاية المطاف ، تتجلّى قدرة العقل على مفارقة الجسد، ولربما نخشى أو نكره أو حتى نرغب في محق ذلك الشبح الذي يمثلنا، الملقى على الطاولة. لكن هناك رسائل تحدثك عن كيفية تناول العشاء عند السابعة مساء، وأخرى تطلب الفحم، وثالثة ترتب المواعيد. مع هذا فالرسائل لا تعرف الأيادي التي توقّعها، فما بالك بصوت وتقطيبة وجه من كتبها. أجل. لكن عندما يصل ساعي البريد ويطرق الباب ليوصل الرسالة تتكرر المعجزة – فيتم اختبار الكلام. يا للرسائل كم هي مهيبة وشجاعة بلا حدود، وكم هي محرومة ومضيَّعة.

الرسائل تمنع تفتّت حياة الناس. «تعالوا نتناول الشاي معاً، تفضّلوا العشاء. ما هو أصل الحكاية؟ هل قرأتم الأخبار؟ حياة المدينة خليعة. الراقصون الروس...». وهذه هي الأشياء التي تشكّل دعائم حياتنا وتسندنا معاً. الرسائل تشدّ وثاق أيامنا وتربط ما بين أوصال العالم وتوحّده. مع ذلك، أجل، مع ذلك... عندما نخرج إلى العشاء، وتتشابك أصابعنا فإننا نتطلّع لقاء عاجل، وهو شكّ يتسلّل ليخالج عقولنا. فهل هذه هي الطريقة التي نقضي بها أيامنا؟ هل إنّ الشيء النادر، المحدود، الممنوح لنا – هو أن نشرب الشاي؟ أن نتعشى في الخارج؟ الرسائل اليومية تتراكم، ولا تتوقف أجهزة الهاتف عن الرنين. فأنّى اتجهنا تقابلنا الأسلاك والأنابيب ناقلة أصواتنا، وتحاول اختراق حياتنا قبل أن توزع علينا البطاقة الأخيرة وتنتهي أيامنا. أجل، «هي تحاول الاختراق»، إذ عندما نرفع الكأس للأعلى، ونصافح الآخرين، ونعبر عن تطلعاتنا، نسمعه يوشوش في آذاننا متسائلاً: أهذا كل شيء؟ أليس بإمكاني أن أعرف، أن أشارك، وأن أكون على يقين؟ هل قدري طوال الدهر هي مواصلة كتابة الرسائل، أو التحدُّث عبر الهاتف، وهي أشياء مآلها أن تطفو على سطح الطاولة، أن تذوي في الطريق، وهي تغزل المواعيد، بينما تستمر الحياة في التضاؤل، ريثما نلبّي الدعوة عشاء؟ مع هذا كله فالرسائل مهيبة والهاتف شجاع، لأنَّ الرحلة وحيدة، وإذا ما جمعت بيننا الرسائل والهواتف، وسرنا معاً– فمن يدري؟ - لربما تمكنّا معاً من إكمال مشوارنا ونحن نتبادل أطراف الحديث.

لا بأس. تلك أمور اختبرها الناس. الشاعر بايرون كان يكتب الرسائل. وكذا فعل كاوبر. ومنذ قرون لم يخلُ درج مكتب من الورق المناسب للتواصل بين الأصدقاء. وعبر الأزمان تحول أساتذة اللغة والشعراء من الورق الخالد

الورق القابل للاهتراء، وهم يزيحون صينية الشاي جانباً، ويقتربون من موقد النار (ذلك أنّ كتابة الرسائل تحلو حين يطبق الظلام في مغارة تتوهج نوراً ودفئاً)، في سعيهم للوصول الإنسان، وتحسّسه والنفاد إلى قلبه. ولم يكن ذلك مستحيلاً! لكن هؤلاء أكثروا جداً من الاعتماد على الكلمة، وجرى تجريبها وتغييرها، وتركت عرضة لأتربة الطريق. إنّ الكلمات التي نبحث عنها تكون معلقة في الشجرة. وحين نأتي لنلتقطها عند الفجر تكون طيبة المذاق منكهة بعبيرها.

السيدة فلاندرز مواظبة على كتابة الرسائل. والسيدة غارفز أيضاً. وهذا هو شأن السيدة دورانت كذلك. أمَّا السيدة ستيوارت فكانت تعطّر صفحاتها، فتضفي عليها نكهة يصعب أن توفرها لها اللغة الإنجليزية. وكان يعقوب يكتب يومياً رسائل مطوّلة في مجالات الفن، والأخلاق والسياسة لطلبة الكلية. لكن رسائل كلارا دورانت مثل رسائل الأطفال. أما فلورندا – فثمة عائق من النوع الذي لا يمكن اختراقه بين هذه المرأة وقلمها. لنتخيل أنّ هناك فراشة، أو بعوضة أو أية حشرة مجنّحة كهذه المخلوقات، ومعلّقة بغصن غضّ، وأنّ الغصن عالقٌ في الوحل، عندئذ لا بدّ للحشرة أن تتدحرج على سطح الوحل. فلورندا تتهجّأ الحروف بصورة مقيتة. ومشاعرها صبيانية. ولسببٍ ما فهي حين تكتب شيئاً فإنها تجاهر بإيمانها. وبالتالي تأتي رسائلها مليئة بالصلبان – وبقع الدموع. وهي حين تكتب تترك يدها تتجول هنا وهناك، لا يردّها سوى الحقيقة – فهي التي تعيد فلورنداً دوما الواقع – حقيقة ما تهتم به. أجل، فسواء كان الأمر يتعلّق بشيء مثل كريما الشوكولاتة، أم بالحمَّام الساخن، أم شكل وجهها في المرآة فإنّ فلورندا ما عادت تدّعي امتلاكها مشاعر غير رغبتها في احتساء الويسكي. رفضها ذاته ينم عن انقيادها للشهوة. إنَّ الرجال العظام صادقون، وهاته العاهرات الصغيرات،

المحملقات في النار، لا يتوانين في وضع البودرة، والتفنّن في رسم شكل شفاههن قبالة المرآة، ويتمتّعن (كما يعتقد يعقوب) بصدقية منيعة.

بعدئذ، شاهدها يعقوب تبتعد في شارع غريك مع رجل آخر.

كان يقف في الشارع، فحدث دفقٌ كهربائي في مصباح الإنارة القوسية، مولّداً رشقة من الشرر غطّت يعقوب من رأسه حتى قدميه. تسمّر بلا حراك للحظة تحت المصباح. ارتسمت على الأرض ظلال متشابكة مماثلة للشرر، تداخلت مع أشكال أخرى لاحقة، فُرادى وفي مجموعات، ملأت الشارع فحجبته، فلورندا ورفيقها.

كذلك غمر النور جسد يعقوب كله. ارتسمت التقاطعات على سرواله، وعقد عصاها القديمة، وحتى حذائه، ويديه العاريتين ووجهه.

هذا ما كان ظاهراً، أمّا معرفتنا بما يدور في رأسه فمسألة أخرى. إنّ أول شعور ينتابك تجاه يعقوب في تلك الحالة هو الخوف من شكله، حيث بدا أكبر من سنه الحقيقية بعشر سنوات – وهذه مسألة يمكن فهمها من خلال الرغبة في المساعدة – كشعور طاغ، كسبب عقلاني، ولكون الوقت ليلاً، ليعقبه مباشرة شعور بالغضب – غضب من فلورندا، من القدر، يعود ليتشكل من ثمَّ تفاؤل لا مسؤول بداخله. «وفي مثل هذا الوقت لا شكّ في أنّ هناك في الشارع ضوءاً يكفي لغمر همومنا كلها في نقيع الذهب!» لكن أية فائدة من أن تقول ذلك؟ فأنت حتى حين تتكلم وتنظر من فوق كتفك إلى شارع شافتزبري تجد أنّ القدر قد أخذ نتفة منه. ها هو يعقوب يستدير ليمضي. وسنتركه وسبيله، ولن نتعقّبه إلى غرفته – لن نتعقّبه أبداً.

مما لا شك فيه مع هذا أنّ ذلك هو بالضبط الذي يفعله المرء. فقد دخل يعقوب غرفته وأغلق بابها، على الرغم من أنَّ إحدى الساعات في المدينة كانت تعلن تمام العاشرة. ولا أحد يأوي فراشه في الساعة العاشرة، بل لا أحد يمكن أن يفكر في الذهاب إلى السرير في مثل هذا الوقت. إنّه شهر كانون الثاني، وهو وقت موحش. لكن السيدة واغ كانت تقف على عتبة بابها، وكأنّها تنتظر حدوث أمر ما. صوتٌ أرغن يدويّ يتناهى تحت الأوراق الرطبة كعندليب داعر. صبية يتراكضون على الطريق. وهنا وهناك يمكن للمرء أن يرى ألواحاً خشبية بنُية اللون مرمية داخل باب الصالة... المشوار الذي يحفظه العقل تحت نوافذ الآخرين غريب تماماً. فمرة تأخذه الألواح الخشبية بنية اللون، وأخرى ينشغل بنبتة سرخس تقف في إناء. مرة ينشغل باستنباط بضع عبارات جديدة تُراقص ألحان الأرغن اليدوي، ومرة ثانية عبارات تنتزع فرحاً معزولاً من أحد السكارى، لتغمره تماماً الألفاظ التي يطلقها الفقراء الذين يتبادلون الصياح فيما بينهم على جانبي الطريق (وهي بمنتهى الصراحة والفحش) – لكن هذا العقل يظلّ مركّزاً، ومُسمراً مع الفتى الساكن وحده في غرفته.

تهتف روز شو: «الحياة شريرة... وحقيرة».

الشيء الغريب في أمر الحياة أنّ الناس خبروها عبر مئات السنين، لكنهم لم يتركوا لنا سجلاً مقنعاً لملاحظاتهم عنها. وبالمثل، شوارع لندن لها خريطتها الخاصة، لكن ليس هناك خريطة لأهوائنا كبشر. وبالتالي من الذي يمكنه معرفة ما يختبئ لك بعد هذا المنعطف؟

يقول لك الشرطي: «إنَّ هولبورن أمامك مباشرة». هذا صحيح. لكن أين ستمضي لو أنَّك بدلاً من أن تعبر من جانب ذلك العجوز ذي اللحية البيضاء، وصاحب الوسام الفضي والكمان الرخيص، لو تركته يمضي في حال سبيله مع حكايته التي تنتهي بالدعوة مكان ما، وليكن مثلاً غرفته القريبة من ساحة الملكة، وهناك سوف يريك مجموعته من بيوض الطيور ورسالة وصلته من سكرتير أمير ويلز، وهذا سيوصلك في يوم شتوي (إذا أغفلنا أواسط القصة) شاطئ إيسكس، حيث يمضي القارب الصغير بسرعة صوب السفينة، ومن ثم تبحر السفينة، وأنت تحملّق في الأفق اللازوردي، وتحليق طيور الفلامنكو، وعندئذ تقف هناك إلى جانب المستنقع لتناول شراب الروم، تطاردك الحضارة لأنك ارتكبت جريمة، وقد تعاني من الحمى الصفراء أو لا، و...– ولك هنا أن تكمل القصة بالمعلومات التي تريد. لقد أصبحنا في هولبورن نألف هذه الهوّات السحيقة التي تملأ طريقنا كما نألف ناصيات الشوارع. ومع ذلك نحافظ على تقدّمنا بشكل مستقيم.

في الحفلة المسائية التي أقامتها قبل أيام السيدة دورانت وقفت روز شو تتحدث بما يشبه حديث النجوى مع السيد باولي، وقالت إنّ الحياة شريرة، لتخبره أنّ رجلاً يدعى جيمي رفض الزواج من امرأة اسمها هيلين آتكين (إن لم تخنّي الذاكرة).

كلاهما، الرجل والمرأة، كان جميلاً. وكلاهما على شيء من البلادة، والخمول. وقد جلسا متقابلين على طاولة بيضوية، فلم يضيّفها شيئاً سوى طبق البسكويت. ثمَّ إن جيمي انحنى لهيلين فأمالت رأسها. وهكذا رقصا معاً. وكان هو راقصاً مبدعاً. جلسا يستريحان في مكان ظليل. فكان الصمت مخيّماً تماماً

بينهما. وفي النتيجة بكت حتى تبلّلت مخدتها بالدموع. فأبدى السيد باولي البارع والعزيزة روز شو تعاطفهما مع المرأة المسكينة ورثيا لحالها. باولي كانت له غرفة في «ألباني». وكانت روز تتمشّى في الساعة الثامنة تحديداً مساءً كل يوم لتجدّد نشاطها. هذه النماذج الأربعة (باولي، روز، جيمي،هيلين) يمثلون حقيقةً انتصار الحضارة، وإذا بقيت مصّراً أنّ إتقان اللغة الإنجليزية يشكّل جزءاً من تراثنا (الإنجليزي)، فبإمكان المرء أنْ يردّ بالقول إنّ الجمال يكاد يكون أصمَّ دائماً. حين يقترن جمال الرجل مع جمال المرأة فإنّهما يخلقان في نفس الناظر إحساساً بالرهبة. وكثيراً ما كنت أراهما – هيلين وجيمي آتكين – كسفينتين محطّمتين، وخشيت لذلك على عملي البسيط. هل اتّفقَ وأن راقبت كلباً اسكتلندياً من نوع «كولي» اللطيف، على بعد أمتار؟ لا بأس، إذا قدمّت لهذا الكلب طعاماً في إنائه تأخذ خاصرتاه بالارتجاف. وهنا أيضاً، حين كانت هيلين تقدّم لجيمي فنجانه كانت خاصرتاه ترقصان. ولقد أدرك باولي ما الدافع لدعوة جيمي إلى تناول طعام الصباح. ومن المؤكد أنّ هيلين أسرّت بهلروز. بالنسبة إلي شخصياً، أرى أنّ هناك صعوبة كبيرة في فهم الأغاني دون الاعتماد على الكلمات. والآن، بات جيمي يطعم غربان فلاندرز ولا تكفّ هيلين عن زيارة المستشفيات. لهذا يحق تماماً لروز شو أن تصف الحياة بأنّها لعينة وشريرة.

المصابيح في لندن تحمل الظلام على رؤوس الحِراب. الغطاء الأصفر يعلو وينخفض فوق السرير الضخم ذي القوائم العالية. في القرن الثامن عشر كان المسافرون في الحافلات السريعة المتّجهة لندن يحدّقون بإمعان في الأماكن المكشوفة من خلال الأغصان الجرداء من أوراقها، فتبدو متماوجة تحتهم. وتتوهج الأضواء خلف الستائر الصفراء والوردية، وفي زجاج قمرات النوافذ

كما في نوافذ الطوابق السُّفلى. أمّا الأضواء في محلات سوق سوهو فمتقّدة دوماً. لهذا فالأشياء فيها، من اللحوم الطازجة حتى الأكواب الصينية والجوارب الحريرية، تلمع بقوة النداءات تأكل نفسها في صمت حول صنابير الغاز المتوهجة. بائعو الأرصفة يقفون، وأيديهم على خصورهم، وينادون – هلموا أيها السادة. زوجتا كيتل وولكنسون تجلسان في الدكان، أيديهما مكتوفة، والفراء يغمر عنقيهما، وفي أعينهما نظرة ازدراء. هذه هي الوجوه التي يراها المرء هنا، في سوهو. ويتعيّن على الفتى الذي يُقلّب اللحمة ليشويها في كثير من بيوت النزلاء أن يجلس القرفصاء أمام النار المتوهجة. لقد سمع وشاهد وعرف أشياء كثيرة، حتى وكأنّ عينيه السوداوين تنطقان بها، قبل أن تخرج من بين شفتيه المنفرجتين. وهو لا ينوي أن يشوي اللحمة في صمت، وجهه حزين كوجه شاعر، ولا يعرف الغناء أبداً. نسوة ذوات أوشحة يحملن أطفالهن، وعيونهن مظللّة بلون الأرجوان. أطفال يجلسون على قارعة الطريق – أشبه بالرسوم التوضيحية، مثل صور في كتاب نظلّ نُقلّب صفحاته، بحثاً عن شيء نفتقده ونحن في أمسّ الحاجة للعثور عليه. وكل وجه من تلك الوجوه، كل دكان، كل نافذة في غرفة نوم، كل قاعة عامة، وكل ساحة عتماء، هي صورة يتم تقليبها بحماسة – لكن لأيّ هدف؟ هذه بالضبط هي الحال مع الكتب. إذ ما الذي نبغيه من ملايين الصفحات؟ ونحن لا نكفّ عن تقليب الصفحات مفعمين بالأمل – أوه، ها قد قادنا الحديث باب غرفة يعقوب.

يجلس يعقوب الطاولة ويقرأ صحيفة «غلوب». كانت صفحة الجريدة الوردية أمامه مفتوحة كلها. سند ذقنه بيده، فظهرت تغضنات وجنتيه عميقة. بدت ملامحه متجهمة جداً، ومستنفراً ومتحدّياً. (وهي حالة تصيب الإنسان في

ظرف نصف ساعة! لكن لا شيء يمكن أن يساعده. وهذه المشكلات تعدّ أبرز ملامح حياتنا. وقد لا يستغني الزائر مدينة لندن عن زيارة كنيسة القدّيس باول). تأمل ظروف الحياة. هذه الصحف الوردية والخضراء المشغولة ليلاً لا تعدو كونها مجموعة من صفحات هلامية رقيقة مطبوعة في عقل العالم وقلبه. وهي تعكس ملامح الأشياء كلّها. نظر يعقوب إليها، الصحيفة. إضراب، جريمة قتل، كرة قدم، جثث مكتشفة، نداءات متزامنة تأتي في اللحظة ذاتها من مختلف أنحاء إنجلترا. ما أشدّ بؤس صحيفة غلوب لأنها لا تقدم ليعقوب فلاندرز أشياء أخرى أفضل من تلك المكتوبة! من المؤسف أننا ندهش عندما يبدأ الطفل قراءة التاريخ، فنسمعه يتهجى الكلمات القديمة بصوته الجديد.

صحيفة غلوب التي يقرؤها يعقوب تنشر خطاب رئيس الوزراء بما يزيد قليلاً على خمسة أعمدة. تحسَّس يعقوب جيوبه. أخرج غليونه وأخذ يحشوه تبغاً. مرت خمس دقائق، عشر دقائق، وخمسَ عشرة دقيقة. حمل الصحيفة واقترب من الموقد. قرأ أنَّ رئيس الوزراء يقترح وضع ضوابط للاعتراف بالحكم الذّاتي لإيرلندة. نفض يعقوب رماد غليونه. لا بدّ أنّ مسألة الحكم الذّاتي في إيرلندة قد شغلته – قضية في غاية الصعوبة. والبرد في تلك الليلة قارس جداً.

ما يزال الثلج يهطل من الساعة الثالثة بعد ظهر أمس. استمر يتساقط طوال الليل، فتراكم في السهول كلها فضلاً عن منحدرات التلال. لكن بقعاً من الحشائش الذاوية بقيت واقفة في تحدّ فوق القمة. وصارت شجيرات الوزال عاتمة. وبين الحين والآخر، كانت ريحٌ صرصر تتخلّل الهبّات الثلجية الباردة، حاملةً معها حُبيبات البَرَد المتجمّدة، فتزمجر كصوتِ مكنسة لا تهدأ في تلك الأماكن – فتنظّفها.

لم يتوقف سيل المياه على جانب الطريق، لكنَّ أحدا لا ينتبه. أعواد وأوراق الأشجار التي حملها السيل كانت تعلق باستمرار بين الحشائش المتجمدة. السماء مكفهرّة، بينما اصطبغت الأشجار بلون الحديد القاتم. إنّ قسوة الطبيعة لا تعرف المساومة. فعند الساعة الرابعة استأنف الثلج هطوله. وها هو نهار جديد يمضي بلا أمل.

وحدها النافذة المصبوغة لمسافة قدمين بالأصفر هي التي صمدت في مواجهة مشهد الحقول البيضاء والأشجار القاتمة.... عند السادسة، لاحَ شبح إنسان معه قنديل، يجاهد لاجتياز الحقل... وفوق الصخرة بقيَ طوفٌ صغير من أعواد الشجر جرفته المياه، وما لبث أنْ أفلت بغتةً وطفا نحو المجرور. انزلقت كتلة من الثلج وسقطت من غصن شجرة.... وفجأة دوّت في الفضاء صرخة نادبة... وأقبلت سيارة على الطريق فكشفت أضواؤها الطريق.... لتعود العتمة فتبتلع معالمه من خلفها.

تخلل هذه التحرُّكات فواصل زمنية. وبدت فضاءات الأرض بحالة موات... ولم يلبث الراعي العجوز أن عاد يقطع السهول في عنادٍ واضح، على الرغم من أن الأرض المتيبسة تماماً، كالمِدوَس حين تخطو عليها في الجليد. واستمرت تكتكات الساعة المتعبة تعيد بلا ملل حقيقة تفاصيل الزمن.

يعقوب أيضاً سمع تلك الأصوات، وأطفأ النار. هبّ واقفاً. تمطّى قليلاً، وآوى إلى فراشه.

الفصل التاسع

جلست كونتيسة روكسبيير مع يعقوب على رأس الطاولة وحيدين. منذ أكثر من قرنين (بل قل أربعة قرونإذا حسبنا سلالتها من الإناث) وذرية الكونتيسة لوسي تركّز في غذائها على الشمبانيا وأطايب المأكولات، لهذا فهي تبدو في صحة جيدة. ولهذه المخلوقة أنف لا يخطئ في تمييز الروائح، وكأنّها تترصدها سلفاً. في شفتها السفلى نتوء أحمر صغير له شكل الرف. عيناها صغيرتان، وتعلو حاجبيها خصل رجراجة من الشعر، ولها فكّ سفلي ثقيل. في الخلفية (حيث النافذة المطّلة على ساحة غروسفنر) تظهر مول برات جالسة على الرصيف وتبيع زهور البنفسج للمارّة. وبالقرب منها وقفت السيدة هيلدا توماس، وشمّرت تنورتها بيدها لتتمكن من عبور الشارع. كانت إحدى هاتين المرأتين من وولورث والثانية من بوتني. وكلتاهما كانتا تلبسان جوارب سوداء، لكن جوارب السيدة توماس مزنّرة بالفرو في نهايتها، علماً بأنّ هذه المقارنة لا تخدم سوى السيدة روكسبيير. كانت البائعة مول تتمتّع بحسّ فكاهي أكثر من السيدة توماس، مع أنّها تتّسم بالعنف والغباء معاً. والسيدة هيلدا توماس كانت ذات لسان معسول، ولا يخلو قوامها الفضي عموماً من التشوه. وتحتفظ بفناجين لوضع البيض في غرفة الجلوس، والستائر مسدلة. وأيّاً كانت المعايب الشخصية للسيدة روكسبيير، فهي مولعة بركوب الخيل والصيد. وقد أصبحت تستخدم السكين بمنتهى الدقة، مع أنّها تفصفص عظام الدجاجة بيديها، بالاستئذان من يعقوب.

سألت كبير الخدم، بوكسال: «من الذي مرّ بالعربة»؟

«هذه عربة السيدة فرتليمر، يا سيدتي». عندها تذكّرت أنّ عليها أنْ ترسل بطاقة البريد كما قررت اللورد لتسأل عن صحته. فكر يعقوب أَنّ هذه الكونتيسة التي يحلو لها أن تسمي نفسها «المرأة العجوز» كانت جلفة. ولكنْ لديها نبيذ طيب. «وكان جميلاً ليعقوب أن يتناول غداءه مع سيدة كبيرة» – وهو أمرٌ يسعده. أخذت تحدّثه عن جوزيف تشمبرلاين، الذي كانت تعرفه. فقالت إنّ من الضروري أنْ يأتي يعقوب ليتعرّف إليه– كونه أحد مشاهير المجتمع الإنجليزي. وقد حضرت السيدة أليس ومعها ثلاثة كلاب مربوطة مقود، ويرافقها جاكي، الذي هرع لمصافحة جدتّه. دخل بوكسال يحمل لها برقية، فحصل يعقوب على سيجار فخم.

من عادة الحصان أن يخفّف من سرعته استعداداً للقفز. فتراه يمشي مجانبةً، متحجّلاً مستجمعاً قواه، من ثم ليطوّح بجسده إلى الأعلى كموجةٍ عملاقة، وينزل في الجهة الأخرى. ترتسم الأسيجة والسماء بشكل نصف دائري. لكأنَّ جسدك قد ارتطم ملتقياً بجسده، وكأنَّ يديك هما قائمتاه الأماميتان معاً لتحقيق الوثبة، تندفع متقوسة في الهواء، ومقبلاً على الأرض المرنة، كتلة من العضلات، برغم بقائك مسيطراً أيضاً في حالة سكون شاقولي، والعيون منشغلة بتقدير الوضع بدقّة. إذاك تتلاشى المنعطفات، متحوّلة إلى مطرقة حقيقيّة تهوي فترتدّ وترتجّ. وأنت تنتخع وتنشدّ إلأى الوراء، مشرقاً، مِرناناً، بشرايين يغطيها الجليد فتضج لاهثة. وتأتيك أصوات الجياد المعروقة: «آه! هو! ها!»، وهي تتنافس فيما بينها عند مفارق الطرق، قرب شارة السير، وحيث تقف المرأة على الباب مرتديةً مريلتها وتراقب في انتظار. ويهبّ الرجل واقفاً، ململماً أشياءه بين نباتات الملفوف دون أن يكفّ عن التحديق.

هكذا امتطى يعقوب ظهر جواده، وراح يخبّ عبر حقول إيسكس، متخبطاً في الوحول، كمن يبحث عن ضالة يفتقدها. مشى وحيداً وهو يأكل سندويشاته، ويتأمّل كيف أصبحت ألوان الأسيجة باهتة، ويندب حظّه.

تناول يعقوب الشاي في النزل. وهناك وقف الجميع يدقون الأرض بأقدامهم ويرددون «نحن من ورائك»، ورقابهم منتفخة كغدد الديَكة الروميّة، ويتكلّمون بأشياءَ بذيئة إلى أن ظهرت السيدة هورسفيلد وصديقتها الآنسة دودنغ عند الباب، بتنورتيهما المشمرتين وشعرهما المعقوص. طرق توم دودنغ النافذة بسوطه. في الفناء كانت سيارة متوقفة ومحركها يعمل. أخذ الحاضرون يبحثون عن أعواد الكبريت، واندفعوا الخارج، بينما دخل يعقوب مع براندي جونز البار ليدخّن بين هؤلاء الريفيين. ومن بين الموجودين كان جيفون الأعور بثياب لها لون التراب، وحقيبته على ظهره، وقد بدا منشغلاً بالتفكير بجذور البنفسج وجذور نبتات القريص المطمورة تحت الأرض. وهناك أيضا جلست ماري ساندرز مع صندوقها الخشبي، وتوم الذي طلب شراب الجِعة، جانب ابن القندلفت شبه المعتوه.

السيدة بابورث ابنة محلة إيندل، بكوفنت غاردن، كانت تعمل لدى السيد بونامي في تنظيف الأواني داخل حجرة الغسيل في فندق لنكولن بمنطقة نيو سكوير. وذات يوم سمِعَت في الغرفة المجاورة جانباً من نقاش يدور بين الشبّان. وكان السيد ساندرز في تلك الأثناء قد عاد هناك أيضاً. واستشفَّت السيدة بابورث أنّ المقصود هو فلاندرز(يعقوب). وأنت حين تسمع امرأة كبيرة فضولية الطبع تردد اسماً بشكل مغلوط، فأين هي فرصتها لتنقل النقاش الذي تسمعه بكل صدقية؟ على أيّة حال، بعد أن نظفّت السيدة بابورث الأطباق بمياه

الصنبور أخذت توزعها على الرف تحت ماسورة الغاز. أصاخت سمعها. فسمعت السيد ساندرز يقول بصوتٍ عالٍ، وخالٍ من الغطرسة: «طيب»، ويردد عبارات مثل «بصورة مطلقة»، و«عدالة»، و«عقاب»، و«إرادة الأكثرية». ثم شرع معلم السيدة بابورث بالكلام، فساندت كلامه ضد ساندرز. ولكن ساندرز كان شاباً رائعاً (كذا فكرت بابورث وهي تراقب القاذورات المتحلّقة حول البالوعة قبل أنْ تجرفها المياه، فتفركها بأصابعها التي تكاد تكون بلا أظافر). «إنّها المرأة»، فكّرت، وأحد جفنيها يرفّ بشدة– وتساءلت عما كان يدور بين ساندرز ومعلّمها في هذا الصدد، ذلك أنّها أم لتسعة أولاد – ثلاثة منهم ولدوا موتى، وخُلق الرابع أصمَّ أبكمَ. أخذت توزع الأطباق على الرفو وتفكّر، فسمعت ساندرز يكرر ثانية ما قاله للتو(فهجست بداخلها: «ساندرز لا يُعطي فرصة لبونامي»). وسمعت بونامي يقول أشياء مثل «شيء ما موضوعي،» «أساس مشترك» وعبارات أخرى – لاحظت أنهَّا مطوّلة. وفكرت في نفسها بأنَّ «التعليم من خلال الكتاب يحلّ الأمر». دسّت يديها في كميّ جاكيتها فسمعت وراء الجدار صوت سقوط شيء - ربّما المنضدة الصغيرة قرب النار – أعقبه صوت ضرب بكعب القدم: ستامب، ستامب، ستامب – وكأنهم يهاجمون بعضهم بعضاً – في جنبات الغرفة، ما جعل الأطباق تهتزّ بقوّة.

«غداً، يا سيدي، في موعد طعام الإفطار»، قالت عندما فتحت الباب، وحيث رأت ساندرز وبونامي يتصارعان بعنف كزوج من ثيران «الباشان»، ما أحال المكان فوضى حقيقية، لاسيما أنهما يستخدمان الكراسي. لم يلاحظا وجودها. أما هي فنظرت إليهما نظرة أم. «طعام إفطارك، يا سيدي» قالت، لَمَّا اقتربا منها. عندئذ حرر بونامي نفسه. كان شعره مشعّثاً وربطة عنقه

تلوح. ودفع ساندرز صوب الكنبة، قائلاً إنّ السيد ساندرز حطّم غلاية القهوة، وإنّه كان يعلّمه ال....

وبالفعل، كان كلامه صحيحاً، كانت غلاية القهوة محطمة بالفعل.

«في أي يوم من هذا الاسبوع عدا يوم الخميس»، كتبت الآنسة بيري، مع أنّها لم تكن أول دعوة توجهها. هل حقاً كانت تعطل أيام الأسبوع كلها باستثناء يوم الخميس، وأنّ رغبتها الوحيدة كانت أن تلتقي ابن صديقتها القديمة؟ الآنسة بيري عادة تقضي وقتها في حياكة أوشحةٍ بيضٍ طويلة للصبايا الثريات اللاتي فاتهن قطار الزواج. والعانس من هؤلاء تظلّ تلفّ وشاحها وتلفه، مرة بعد أخرى، مستعينة بخمس خادمات، وكبير الخدم وببغائها المكسيكي، في خمسة أوقات منتظمة داخل مكتبة مودي، والأصدقاء لا يتوقفون عن التقاطر إليها. لكن ثمة ما ظل يحزّ بنفسها، أنّ يعقوب لم يأت لزيارتها.

قالت له الآنسة بيري: «إنّ أمك إحدى أخصّ صديقاتي الأكثر حميمية».

جلست الآنسة روسيتر قرب الموقد، حاملة بيدها صحيفة سبكتانز لمنع النار من الوصول خدها.وقد رفضت مبدئياً استخدام واقية النار العادية، لكنها في نهاية المطاف أذعنت واستعملت إحداها. دار نقاش عن أحوال الطقس، كونهم أجّلوا مناقشة أفكار أكثر خطورة بوجود باركس، الذي لا يكفّ عن تقديم مقترحات صغيرة جديدة. وهنا لم تنس الآنسة روسيتر أن تلفت انتباه يعقوب جمال الخزانة.

قالت له: «الآنسة بيري ماهرة في انتقاء الأشياء. وقد عثرت على هذه الخزانة في يوركشاير». وهكذا بدأ حوار جديد عن الشمال الإنجليزي.

وكانتبيري وروسيتر حريصتان على الإصغاء يعقوب إذا بدأ يتكلم. وحين فتح الباب وأطلّ منه السيد بنسون كانت الآنسة بيري تذكر روسيتر بالاكتفاء بقول أشياء مناسبة وشجاعة. وهكذا أصبحوا أربعة أشخاص في الغرفة. الآنسة بيري كانت في السادسة والستين، بينما كانت الآنسة روسيتر في الثانية والأربعين، وبنسون في الثامنة والثلاثين، ويعقوب في الخامسة والعشرين.

«يبدو أنّ صديقي القديم لا يزال على حاله»، قال بنسون وهو ينقر بإصبعه على قفص الببغاء. في تلك الأثناء كانت الانسة روسيتر تمتدح الشاي، لذلك قدمت ليعقوب طبقاً مغلوطاً. أما الآنسة بيري فأكدت على رغبتها في الاقتراب أكثر، وسألت يعقوب في غموض عن «شقيقيه».

«تقصدين شقيقيَّ آرشر وجون»، ردَّ يعقوب، متعمداً ذكر اسميهما. فشعرت بالسعادة أنها تذكرت اسم ربيكا أيضاً، وكيف أنهم ذات يوم: «عندما كنتم صغاراً، تلعبون في غرفة الجلوس...».

قالت الآنسة روسيتر: «لكن الآنسة بيري تحمل صينية القهوة». نظر الجميع، وبالفعل أقبلت تحضن بيديها صينية القهوة على صدرها. (من يدري، هل كانت تحب والد يعقوب؟).

«ذكاءٌ حادٌ» – لم يكن هذا منصفاً، كالعادة» – «كنت أعتقدُ أنَّ الأمر غير عادل»، هكذا جرى الجدل بين السيد بنسون والآنسة روسيتر بشأن تنافسهما في ستردای ویستمنستر. ألم يتنافسا مراراً للفوز بجوائز؟ ألم يفز السيد بنسون بثلاثة جنيهات في مرات ثلاث، بينما فازت هي (الآنسة روسيتر) في مرة واحدة بعشرة شلنات وستة بنسات؟ لا شكّ في أنّ السيد

إفرارد بنسون ضعيف القلب، لكنَّ فوزه بالجوائز يحتّم عليه أنْ يستذكر البغاوات، ويتملّق الآنسة بيري، وأنْ يزدري الآنسة روسيتر، كما كان عليه أيضاً إقامة حفلات الشاي في غرفته (المبنية على نمط غرف الويستلر، حيث تتكدس الكتب على الطاولات)، وهذا ما جعل يعقوب يشعر بأنّه رجل أبله، مع أنّه لا يعرفه. أمّا بالنسبة الآنسة روسيتر، فقد عملت ممرضة في قسم السرطان، وأصبحت الآن من هواة الرسم بالألوان المائية.

قالت الآنسة بيري بصورة غامضة: «ألا ينقضي الوقت بسرعة؟»، وأنا لا أخرج من البيت بعد الظهر، فتعالي إلي إذا لم تجدي ما يشغلك– عدا أيام الخميس».

قالت لها الآنسة روسيتر: «لم أذكر أبداً أنّك تخليت يوما عن صديقاتك القدامى»، بينما كان السيد بنسون ينحني فوق قفص الببغاء، والآنسة بيري تقترب من الناقوس.

كانت النار مضطرمة بين عمودين من الرخام الأخضر، وعلى رف الموقد أُسندت ساعة خضراء وبجانبها تمثال لملكة بريطانيا تتكىء على رمح. وهناك صور أخرى كثيرة – فتاة تعتمر قبعة عريضة، وتقدّم ورداً من وراء بوابة الحديقة لأحد النبلاء بزيّ من القرن الثامن عشر، وصورة لكلب حراسة من نوع الدرواس يتمدّد قبالة باب مهشّم. كان المصراعان السفليان لنافذة الغرفة من الزجاج المرقّش، وتتداخل ستائرها المصنوعة من قماش مزأبرٍ أخضر.

جلس يعقوب ولورييت بجانب بعضهما، على كرسيين واسعتين قماشهما أخضر مزأبر أيضاً، وأقدامهما على جدار الموقد. كانت لورييت

ترتدي تنورة قصيرة، قلّما تغطي ساقيها الطويلتين والنحيلتين. فجعلت لوروبيت تمسّدهما حتى الكاحلين.

قالت وهي غارقة في التفكير: «الأمر ليس أنّني لم أفهمهم تماماً. لذلك لا بدّ من تكرار المحاولة».

سألها يعقوب: «متى ستكونين هناك»؟

هزّت كتفيها بلا اكتراث.

«في الغد مثلاً؟»

«لا. ليس بالضبط».

«أحوال الطقس تمنعني من الذهاب القرية»، أضافت، وهي تدير رأسها وتتأمل المباني الشاهقة من فوق كتفها عبر النافذة.

قال يعقوب لها: «ليتك كنت معي يوم السبت».

ردّت بلباقة وهدوء وهي تنهض: «لطالما كنت أخرج للتنزه». فهبّ يعقوب واقفاً. ابتسمت له. أغلقت الباب، فأخرج هو بضعة شلنات ووضعها على سياج المدفأة.

كان حديثهما معقولاً جداً عموماً في تلك الغرفة المحترمة جداً، مع فتاة لامعة. وحدها تلك «المدام» هناك كانت تشيّع يعقوب بنظرات خبيثة، بشيء من القباحة، وتساؤل واضح (ينعكس أساساً في العينين)، ينذر بتفريغ سلة المهملات، التي يصعب لملمتها على قارعة الرصيف. وبكلمة، ثمَّة ما هو خاطئ في الأمر.

ليس من وقت بعيد جداً طلى العمال الحرف الأخير **(ي)** في اسم اللورد ماكولي بالذهب، وكذلك الأسماء المشابهة التي كانوا يخطّونها حول محيط قبّة المتحف البريطاني. على مسافة محددة من القبة، جلس المئات من الناس على أذرع دولاب العربات، لنسخ الكتب المطبوعة المخطوطات التي بين أيديهم. وبين الفينة والأخرى كانوا ينهضون من أمكنتهم لمراجعة الفهارس، ثم يعودون بخفّة إلى أماكن جلوسهم، ومن وقت لآخر يأتي رجلٌ صموت لإعادة تزويد حجيراتهم بمواد النسخ.

تبقى ثمَّة مشكلة بسيطة هناك. فقد غصّت الحجرة المخصصة للآنسة مرشمونت بالصفحات المتراكمة، وفاض بعض ما جمعته حجرة يعقوب. والواقع أنّ مثل لهذه الأمور كثيراً ما تحدث مع الآنسة مرشمونت. لكن تُرى، ما الذي كانت تريده هي من هذه الملايين من الصفحات، بثوبها المهترىء، وبلمّة شعرها الحمراء الدّاكنة وحليّها، وبرغم كل مافي يديها من تقرحات؟ في بعض الأحيان تراها منشغلة بالبحث عن هذا الشيء أو ذاك، لمجرد التأكيد على فلسفتها الشخصية بأن اللون هو صوت – أو ربّما كانت له علاقة بالموسيقا. لكنَّ الشيء المهم هو أنّ الآنسة مرشمونت لم تتحدّث عن ذلك، مع أنّها امرأة لا تنقصها التجربة. كذلك لم تعد تجرؤ على دعوتك **(يا يعقوب)** لزيارتها ثانية في غرفتها، «وذلك لكون غرفتها ليست نظيفة جداً، على ما أظن»، وبالتالي فهي تتحين الفرص لتلتقيك في الممرات أو في الهايد بارك، حيث تحجز مقعداً هناك، لتتمكّن من شرح فلسفتها تلك. ههنا يكمُن مرتكز إيقاع الروح – **(**وستقول لك «ما أكثر فظاظة الصبيان الصغار**!»)**، ومُرتكز سياسة السيد أسكويث بشأن المسألة الإيرلندية أيضاً،

وهكذا تبدأ الحديث عن شكسبير، وتخبرك بأنَّ «الملكة ألكسندرا تفضّلت مشكورة جداً بالاعتراف مرة بأنّها تسلّمت نسخة من كتابي»، لصرف انتباه الأولاد الصغار بطريقة مهذّبة. لكنّها، الآنسة مرشمونت، بحاجة المال لنشر كتابها، ذلك «أنَّ الناشرين رأسماليون – الناشرون جبناء». وفي غمرة حماستها تلك تغرزكوعها في كومة الكتب التي لديها وتتابع نسخ الأشعار.

بقي يعقوب هادئاً تماماً.

وفي المقابل، جاء ذلك الملحد فريزر، الذي كان يكره القماش المزأبر حاملاً كَّراساته، لكنه سرعان ما انفلت غاضباً. فريزر كان يكره الغموض في أيّ شيء – ومن ذلك مثلاً تعاليم الدّين المسيحي، كما يُبغض تصريحات دين باركر. كان دين بارك مؤلِّفاً لعددٍ من الكتب. وقد اعتاد فريزر أن يفنّد ما يقوله في كتبه بقوة المنطق. كذلك رفض تعميد أطفاله – فاضطرت زوجته لتعميدهم خفيةً في الحَّام – ولكنّه كان يتجاهل ما تفعله زوجه، ولا يتوانى عن دعم المجدّفين من خلال الكتيبات التي يوزّعها، ويحصل على معلوماته الأولية من المتحف البريطاني، وتجده دائماً ببذلته الأنيقة عينها وربطة عنقه الحمراء المنقطة، وإن كانت باهتة قليلاً. المهم أنّك تجد في سلوكه العجب العجاب، كونه يشوّه وجه الدين!

أكمل يعقوب نسخ مقطع شعري كامل من أشعار مارلو؟

جلست الآنسة جوليا هيدج، داعية الحركة النسوية، تنتظر تسلّم كتبها، لكن الكتب لم تصل. غمست قلمها بالحبر. تلفتت حولها. شدّتها الأحرف الأخيرة في الاسم «لورد ماكولي». قرأت كل الأسماء المخطوطة

على محيط القبّة كلها – أسماء الرجال العظام التي تُذكّرنا بِـ... ثمَّ قالت جوليا هيدج «باللعنة»، وتساءلت: «ترى، لماذا لم يترك الذين كتبوا الأسماء مجالاً لأسماء مثل إليوت، أو برونتي؟».

جوليا هيدج، أيتُّها التَعِسة! تغمسين قلمك بالمرارة، وتتركين رباط حذائك يلوح. وأخيراً ها قد وصلت كتبها، فكّرست لها جهوداً جبارة، واستنتجت برهافة إحساسها النازفة بأيّ ثقة وطمأنينة، وبأيّ تقدير واهتمام يتعامل الرجال مع ذلك العمل. خذ مثلاً ذلك الشاب. ما الذي أفاد منه غير نسخ الأشعار؟ وجوليا كان عليها أنْ تدرس علم الإحصاء. فأعداد النساء يَفوق عدد الرجال. هذا صحيح. ولو كان مسموحاً بأن تعمل النساء مثل الرجال، فإنَّ الأجل سيكون أسرع وصولاً إليهن من الرجال. سينقرضن تماماً. ذلك كان محور نقاشها. وها أنت ترى، الموت والمرارة والهوان لا تفارق ريشة قلمها، وما إن يأتي المساء حتى يتورد خداها إنهاكاً وتلتمع عيناها ببريق واضح.

لكن لنسأل: ما الذي دعا يعقوب فلاندرز لقراءة أشعار مارلو في المتحف البريطاني؟ إنَّها الفتوّة، الفتوّة – عنف الهمجية – شيء من الحذلقة. خذوا مثلاً السيد ماسفيلد، والسيد بينيت أيضاً. دعهما وقوداً لنيران مارلو، واحرقهما حتى يتفحما. لا تترك منهما ولو نتفة صغيرة. لا تعبث بالفئة الثانية. تجاوز زمانك. احتقره لكي تبني زمناً أفضل. وحتى تتمكّن من إنجاز هذا كلّه اقرأ على أصدقائك مقالات مضجرة حتى النّخاع عن شاعرك مارلو. وذلك يتطلّب من المرء عقد مقارنة دقيقة بين النسخ الموجودة في المتحف البريطاني. وعليه أن يقوم بهذا شخصياً. فلا فائدة من

أن تعهد بأمر التقييم أهل الزمن الفكتوري الذين كانوا يحتاجون الأشياء، أو الذين يعدهم الناس شعبويين لا أكثر. هكذا، فإنَّ بناء مستقبلٍ حيّ بحقّ لا يقوم إلا على أكتاف ستة شباب. ولأنَّ يعقوب هو أحد هؤلاء الستة، لذلك من الطبيعي أن يبدو حدّ ما ملكياً ومغروراً حيث يقلب الصفحة، ومن الطبيعي أن تكرهه جوليا هيدج تلقائياً.

عندئذ أتى رجل منتفخ الوجه ودفع بورقة صغيرة يعقوب. وكان يعقوب يجلس مضطجعاً الوراء في كرسيه، وبدأ بينهما حوار مجهد، أقرب التمتمة، ومن ثم خرجا معاً (وجوليا هيدج تراقبهما)، وأخذا يقهقهان (هكذا خُيّل لجوليا) حالما وصلا القاعة.

لم يضحك أيٌّ من الموجودين في قاعة القراءة. بدلاً من ذلك، خيّم هدوءٌ متماسك، وسرت همهمات، ونوبات عطاس تبريرية، تبعها سعالٌ مدمر ووقح. أوشك وقت المحاضرة على الانتهاء. أخذ الحاضرون يجمعون أشياءهم. تريّث كس المتعلّمين ممعنين في التمطّي، وبقي المجدّون غارقين في الكتابة – ها قد انقضى يومٌ آخر دون إنجاز يذكر! بين آن وآخر كانت تسمع من عمق المكان زفرة حرّى، تعقبها كحة مخجلة يطلقها رجل عجوز، فتئن لها الآنسة مرشمونت مثل مهرة.

رجع يعقوب في الوقت المحدّد إلى إعادة كتبه؟

ها هي الكتب الآن تستوي في أماكنها. وثمَّة حروف ارتشقت متناثرة حول القبّة المدوّرة. من حولها تجمع في حلقة واحدة معاً: أفلاطون، أرسطو سوفوكليس، شكسبير، إلى جانب آدباء روما واليونان والصين وبلاد فارس

والهند. تراصّت بشكل متقابل أوراق كثيرة جداً تحمل أشعاراً، وتعانقت الحروف اللامعة، محملة بالمعاني المكثفة، لتشكل كتلة من الحُبّ.

قالت الآنسة مرشمونت، وهي تقرّب إليها مظلّتها البالية: «أشعر باشتياق كأس من الشاي».

أجل، الآنسة مرشمونت تتوق لتناول كأس من الشاي، لكنّها لم تستطع مقاومة إلقاء نظرة أخيرة على تماثيل «الجن» الرخامية. نظرت تلك التماثيل نظرة مواربة، ولوّحت بيدها، مطلقة عبارة إعجاب، أو ربما عبارتين. تصرّفها أثار انتباه يعقوب والرجل الجالس معه فالتفتا إليها. ابتسمت لهما في ودّ. فما رأته في تلك التماثيل يتفّق وفلسفتها في الحياة – بأنَّ اللون هو صوت، أو ربّما كان على علاقة بالموسيقى. وما إنْ فرغت من عملها حتى انطلقت لتناول الشاي. كان ذلك أوان الانصراف، فتجمّع الجميع في القاعة لتسلّم مظلّاتهم.

وقف القسم الأكبر من الطلبة في انتظار دورهم بصبر بالغ. بدا الانتظار بالنسبة إلى أكثريتهم أمراً مهدّئاً ريثما ينتهي أحدهم من تفحّص الاسطوانات الفضّية. ومن المؤكد أنْ يتم العثور على المظلّة. لكنَّ البحث عملياً يقودك طوال اليوم مراجعة مكاولي، وهوبز، وغيبون، والمرور بمؤلفات مختلفة الحجم، من قطع الثُمن والربع وأخرى من القطع الكبير، ويضطرك للغوص أعمق وأعمق في الصفحات العاجّية للمؤلفات المجلّدة بجلد الماعز للوصول الأفكار المكثّفة، في هذا الرُكام من المعلومات.

عكّازة يعقوب التي يتوكأ عليها لم تكن تختلف عن العصي الأخرى. ومن المحتمل أنهم أخطأوا في ترتيب البطاقات داخل تلك الحجيرات الشبيهة ببيوت الحمام.

المتحف البريطاني يمثل عقلاً هائلاً. ولنتذكر أنّ أفلاطون هناك صنو أرسطو، وشكسبير لصيق بهارلو. هذا العقل الكبير في المتحف مختزن بطريقة يصعب على أيّ عقل بمفرده احتواء مفرداته. مع هذا (ما دام هؤلاء يستغرقون كل هذا الوقت للعثور على آلة المشي في طريق المعرفة)، فلا يمكن للمرء إلا أنّ يفكرّ بإمكانية أنّ اصطحاب دفتر ملاحظاته، والجلوس على طاولة ومراجعة الملاحظات المدوّنة عن بكرة أبيها. إنّ الإنسان المثقّف أحرى بالاحترام من الجميع – المثقّف من نمط هكستبل من ترينتي، الذي يقال إنّه كان يكتب باللغة اليونانية، ويتواصل تماماً مع «بنتلي». وبالتالي، يجب ألا ننسى وجود معارف أخرى، كالعلوم والصور وفن المعمار – وهذه تُشكّل عقل المتحف الهائل بحق.

أخيراً دفعوا بالعكاز عبر الكاونتر. كان يعقوب يقف تحت شرفة المتحف البريطاني، احتماءً من المطر. وفي الجو الماطر بدا شارع راسل صقيلاً كالزجاج ولامعاً بألوانه – ههنا أصفر، وهناك خارج الصيدلية أحمر وأزرق فاتحاً. تراكض الناس للتلطي بظل حائط المتحف. وتدافعت العربات بشكل عشوائي في الشوارع. لكن القليل من المطر ليس مؤذياً لأحد. لذا مشى يعقوب مبتعداً كما كان في القرية. وفي البيت أمضى الليل ساهراً حتى وقتٍ متأخر مع غليونه وكتبه.

كان المطر ينهمر مدراراً. وعلى سفح التلة الكبيرة، على مسافة ربع ميل تراءى المتحف البريطاني ليعقوب شبحاً باهتاً وباذخاً، ومغسولاً بمياه المطر. كان هذا الكنز الضخم العامر بالعقول المستنيرة يقف شامخاً بقميصه

الحجري، وبحجراته الداخلية كلها التي بقيت سليمة وجافة. وها هم الحراس الليليّون يلقون أضواء مصابيحهم القوية على أغلفة المؤلفات، مؤلفات أفلاطون وشكسبير، للتأكد من أن تلك الكنوز لا تزال حتى اليوم - الثاني والعشرين من شباط - سليمة، لم تطلها الحرائق ولا عبثت بها القوارض أو سطوة اللصوص – كانوا حراساً طيبين يعيشون مع زوجاتهم بين أُسر مدينة كنتش، ولا يبخلون بجهد طوال هذه السنوات العشرين خدمة لأفلاطون وشكسبير، قبل أن يحتضنهم ثرى هايغيت.

كان المتحف البريطاني مقمّطاً بقميص حجري يحيط به كإحاطة الجمجمة بالدماغ بكل ما يساوره من تخيلات، فيحميه من الحرِّ والقرّ. ليس سوى في هذا المكان يبقى دماغ أفلاطون محافظاً على حقيقته، ودماغ شكسبير أيضاً. والدماغ هو مبتكر الآنية والتماثيل، وصانع الأجساد الضخام والمجوهرات الدقيقة، وهو الذي لا يعرف التّوقف لحظة عن عبور نهر الفناء جيئة وذهاباً، باحثاً عن رصيف يأوي إليه، مرة ليلفّ الجسد جيداً في نومه الأبدي، وطوراً تعميةً للبصر، وتارة ميماً شطر الشرق. في الوقت عينه، يواصل أفلاطون حواراته هناك، على الرغم من المطر، وصافرات القطارات، بالرغم من النسوة اللّاتي تعصف بهن الأخبار خلف شارع أورموند الكبير، النساء اللّاتي يرجعن بيوتهن ثملات ويقضين الليل باكيات عند الأبواب: «أرجوكم، دعونا ندخل! نريد الدخول».

هناك جلبة كبيرة في الشارع الذي تطلّ عليه غرفة يعقوب.

لكنَّ يعقوب لم يكن ليهتمّ بما يجري، وظلّ يقرأ. وعلى الرغم من كل شيء لم تنقطع حوارات أفلاطون العنيدة الهادئة. وهاملت لم يوقف مناجاته. تماثيل الجن هناك ترقدُ تحت جنح الليل كلّه، وقنديل جونز القديم يذكّره تارة بعوليس، أو برأس جواد، وتارة أخرى ببريق الذهب، أو بخدٍّ لعبةٍ غائر وشاحب. وأبداً يظلّ أفلاطون وشكسبير معاً. تناهى إلى سمع يعقوب الذي كان يقرأ «فيدر» صخب المتجمعين عند عمود الإنارة، وبينهم تلك المرأة التي وقفت أمام الباب وهي تصرخ «دعوني أدخل!»، هشّة مثل قطعة فحم سقطت من النار، أو كذُبابة ضعيفة لفظها السقف فوقعت على ظهرها، ولم يعد لها حول ولا قوة.

قراءة فيدر غاية في الصعوبة. لكن إذا ما أمسكت رأس الخيط أخيراً وحققّت نجاحاً فلن تتوقف، وتصبح بصورة مؤقتة (كما يبدو) جزءاً من عملية التقدّم الأمام، تلك الطاقة الهادئة في تعاظمها، التي ما تزال تكنس الظلام أمامها منذ أن خطا أفلاطون خطوته الأولى في رحاب الأكروبوليس، وإن تعذّر رؤية نيرانها.

وصل الحوار إلى نهايته. انتهى جدل أفلاطون الذي تلبّس عقل يعقوب، فأكمل المشوار بمفرده متقدّماً الأمام، عبر الظُلمة. استفاق يعقوب، فتح الستائر. أدرك بكل وضوح كيف كانت «سبرينغيت» تغفو، وكيف تساقط المطر، وكيف كان يقف اليهود وتلك المرأة الغريبة معاً بجانب صندوق البريد العمودي يتجادلون عند ناصية الشارع.

في كلِّ مرة يفتح الباب ليدخل زوار جُدد، تتململ قليلاً أجساد الموجودين في الغرفة لتوسّع المجال للداخلين. يلتفت الواقفون هناك من فوق أكتافهم، وتتقطع عبارات الجالسين، فتخرج عباراتهم غير مكتملة. ويتكررَّ هذا عينه أيضا كلَّما شعّ النور أو عند تناول شيء من النبيذ أو صدح صوت الغيتار، أو كلّما طرأ طارئ مثير. لكن تُرى، من هو ذاك الداخل الآن؟

«غيبسون».

«غيبسون الرسام؟»

«لا عليكم، تابعوا حديثكم».

كان للحديث الذي يدور هناك طابعٌ شخصيٌ جداً، ولا يمكن الجهر به على الملأ. أما تأثير الأصوات العالية في عقل السيدة ويذرز فكان يشبه تأثير المُخشخِشة، تلك الآلة الخفيفة التي تُفزع جماعات الطّير فتهرب بعيداً لتهدأ بعدها، فيعاود السيدة ويذرز خوف عصبي داخلي، فتتلمس شعرها بيدها، ثمَّ تشبك يديها معاً على ركبتيها، وتحدّق في أوليفر سكيلتون بعصبية، وتقول له:

«عدني يا أوليفر، وبصدق، أنَّك لن تخبر أحداً...» وأوليفر سكيلتون شديدُ الحذر، ورقيق جدّاً. وكانت السيدة ويذرز قد حدّثته عن زوجها ووصفته بالبرود.

والآن ها قد جاءت ماجدلين الرائعة، تلك السمراء، الدافئة والغزيرة الإنتاج. ماجدلين قلما سمحت لنفسها بالمشي على الحشائش وهي تنتعل

حذاءها. شعرها طائر في الهواء، وقد تركته يداعب خصلاته، كما يبدو، إذ أنّها لا تربطه أبداً. ماجدلين ممثلة، وترافقها الأضواء طبعاً. وهي حين تتكلم كلاماً عاماً تخاطبك دوما بعبارة «يا عزيزي»، فينساب صوتها رقيقاً مسافراً بين شعاب الألب. حالما وصلت أقبلت على الميكرفون وبدأت تغنّي، مع أنّ كلّ ما رددته هو «آه» و«أوه»، فخرجت تأوهاتها مضخّمة. توجّه صوبها مانغين الشاعر، وأخذ يتأملها ويدخن، ثم بدؤوا يرقصون.

طلبت السيدة كيمر ذات الشعر الأشيب من ديك غروفز أن يحدّثها قليلاً عن شخصية الشاعر مانغن، وأخبرته أنّها شاهدت العديد من أمثاله في باريس، وأنّها صدمت بشخصيته (وكانت ماجدلين تجلس على ركبتيه، حتى كاد غليونه يدخل في حلقها). كانتا لسيدة كيمر تلبس نظّارتها، وسألت ديك غريفز وهما يقتربان من يعقوب: «ن هو هذا الشخص؟». لكن يعقوب بقي صامتاً، بلا مبالاة، وكأنّه يجلس على الشاطىء، ويمارس التأمل.

«عزيزتي، دعني أستند عليك»، قالت لها هيلين آسكيو فجأة، وهي تعرج من إحدى رجليها، حيث أفلت الخلخال الفضي الذي تضعه فوق كاحلها. لكنَّ السيدة كيمر استدارت وراحت تتأمل الصورة المعلقة على الحائط.

«انظري إلى يعقوب»، قالت هيلين (وهي تعصُب عينيه على سبيل المداعبة).

بدا ديك غريفز، الرجل المخلص والطيب، ثملاً قليلاً. أخبرها أنّه ينظر يعقوب كأعظم إنسان عرفه. جلسا على أريكتين وصالبا رجليهما، وأخذا يتحدّثان عن يعقوب. كانت هيلين تتكلّم بصوت متلجلج، كونها

تعد ديك غريفز ويعقوب بطلين، وتفضّل صداقتها معهما أكثر من النساء بكثير. وتقدّم أنتوني باوليت طالباً منها أن تراقصه. استجابت لطلبه، وأخذت ترقص وتنظر إليهما من فوق كتفها. كانا جالسين معا على الطاولة، ويتبادلان الأنخاب.

هذا العالم رائع – عالم حيٌّ، رزين، وقوي... بهذه الكلمات يمكن وصف عالم الفَجر في كانون الثاني، بين الساعة الثانية والثالثة صباحاً، على الرصيف الخشبي الممتّد بين هامرشاير وهولبورن، حيث يقف يعقوب. أجل، كان ذلك جوّاً صحياً وبديعاً لأن هناك غرفة، فوق مجموعة الاصطبلات قرب النهر، كانت تأوي خمسين ثرثاراً من المتحمسين المخلصين. ومن ثمَّ فإنَّ المشي على الرصيف (حيث ينعدم تقريباً وجود العربات أو رجال البوليس على امتداد النظر) كان مبهجاً. عقدة المواصلات الطويلة في شارع البيكاديللي، المطرّزة بالياقوت، تبدو في أفضل محاسنها حين تكون خالية. وهناك ليس ثمّة ما يخيف الفتى. بل بالعكس، فرغم أنّ يعقوب لم يقل شيئاً يتّسم بالذكاء، ربّما، لكنّه كان يشعر بثقة مطلقة لأنّه قادرٌ على السيطرة على مخاوفه. ولطالما شعر هو بالارتياح لأنه التقى بالسيد مانغين، كما أبدى إعجابه بتلك الفنانة التي تحمل الميكروفون. لقد أحبّ ذلك كلّه، وخاصة هذا الذي يجري، وخلاصته أنّ الطبول وآلات الترومبيت كانت تصدح بالموسيقى. وفي تلك اللحظات أيضاً، لم يكن يتجوّل في الشارع سوى عدد من الباحثين في الفضلات عن الأشياء. ونحن في غنى عن التّحدث عن مدى رضا يعقوب عن هؤلاء جميعاً، وكم كان يسرّ بالعودة إلى غرفته المرتج بابها، ومدى سروره حين يعود إلى غرفته الفارغة

وبرفقته عشرة أو أحد عشر شخصاً، ممّن لم يكن يعرفهم قبل خروجه، وكيف كان يبحث بحماسة هنا وهناك عن شيء يقرؤه، وما إنْ يعثر على ضالته، حتى يغطّ في النوم بدلاً من القراءة.

صحيحٌ أنّ الطبول والترومبيت ليست طريقة صحيحة للتعبير. وبالفعل، فإنّ البيكاديللي وهولبورن، والغرفة الفارغة، ومثلها تلك الغرفة التي يتجمّع فيها خمسون شخصاً ويمكن أن تصطخب بضجيج الموسيقى في أيّة لحظة. وفي هذه الأجواء، تبدو النساء أكثر حماسة من الرجال. لكن من النادر أن تسمع إنساناً يتحدّث بشيء عن حماستهن، وأن تشاهد جحافل الناس تعبُر تباعاً جسر واترلو للّحاق بالصربيين، وتعتقد أنّ ذلك هو السبب المفروض عليهم. لكن لا. لا. الطبول والأبواق كانت هي السبب. وما عليك، إذا ما استدرت جانباً نحو إحدى الفتحات الصغيرة على جسر واترلو، إلا أن تفكّر بالسبب مليّاً، وقد يبدو لك ذلك الأمر لغزاً.

إنّهم يعبُرون الجسر بلا توقف. أحياناً تظهر شاحنة أو حافلة محمّلة بأشجار حراجية ضخمة مشدودة فيها. وقد تظهر سيارة لأحد البنّائين محمّلة بشواهد قبور تحمل أسماءً نُقشت حديثاً في مقبرة بوتني، تعبيراً عن الحُبّ الذي كان يوماً ما بين شخصين. فجأة يزمجر محرك السيارة الأمامية محاولاً ان يتحرّك، فيتاح لك أن تقرأ الأحرف التي نُقشت على تلك الشواهد بوضوح أكبر. ويستمر سيل العابرين على مدى الساعة، من ناحية «صوري» «ستراند»، وبالعكس - من ستراند صوري. ويبدو الأمر برمّته وكأنَّ الفقراء قد أغاروا على المدينة، وها هم الآن يعودون ثانية أحيائهم، كالخنافس المسرعة لتدخل جحورها. هناك امرأة عجوز تمشي مُتثاقلة

صوب واترلو، وبيدها حقيبة لامعة، وكأنّها كانت قد خرجت لتوّها الضوء، وهي الآن تغذّ السّير إلى كوخها السُّفلي بهيكلها العظمي المفرغ، كهيكل صوص مُنهك وهزيل. وتمشي الصبايا هناك بأيدٍ متشابكة، مردّداتٍ أغنية جميلة، في مواجهة الريح العاصفة، بلا خوف ولا تهيّب. كنَّ سافرات، بلا قبعات على رؤوسهن. إنَّهن المنتصرات.

الموج يضطرب بقوة مع الريح. والنهر تحت أقدامنا يسابق مجراه. يتمايل البحّارة وهم يقفون على الدّفة. وثمّة قطعة قماش من التربولين الأسود مسدلة لتغطي حمولة ضخمة من الذّهب، فيما تتوهّج في البعد تلال من الفحم الأسود. وكعادتهم، ينتشر الرسّامون فوق الأرصفة أمام الفنادق الضخمة عند الشاطئ، فنادق تتلألأ أضواؤها عبر النوافذ المتناثرة. ووحدها المدينة في الجهة المقابلة تتمَّدد شاحبةً كما المدن العتيقة. ومن فوق الأبنية المتآكلة، ذات النهايات المستدقّة أو المتطاولة المحيطة تُطلّ كنيسة القديس باول متلألئة، وصليبها البارز وحده يشعّ متورّداً. لكن، في أي زمن نعيش نحن؟ هل ذلك المهرجان الذي كان يقاوم ما بين مدينتي صوري وستراند قد انتهى مرة و الأبد؟ وذلك العجوز ما يزال منذ ستمئة سنة يعبر الجسر، وحين يكون ثملاً أو حين تغشى عينيه من البؤس تطارده أصوات الأطفال، فيتابع سيره متستراً بأسمالٍ بالية، كتلك التي قد يتدثر بها الحجاج. العجوز يتجرجر في مشيته المتثاقلة. لكن لا أحد يتوقف ساكناً ويصغي. ويبدو كما لو أنّنا نمشي إلى صوت الموسيقى، وربّما صفير الريح وهدير النهر، وتلك الطبول والأبواق عينها – حيث انتشاء الروح وصخبها. لماذا يا ترى، حتى الضحكة غير السعيدة والشرطي الذي لا يقدّر

السكارى، يتبادلان نظرات ساخرة، والصغار يعاودون الهروب ثانية، ولا يلقى الموظف في سومرست هاوس سوى التسامح. لماذا الذي يقرأ نصف صفحة عن (الامبراطور القديس) لوثير وهو في كشك بيع الكتب تراه يقف مفكّراً بكل كياسة، بعينين شاردتين بعيداً عن المطبوعة، بينما تقف الصبية في حيرة عند مفارق الطرق، وتستدير نحوه وفي عينيها نظرة ساحرة، نظرة غامضة كضحكة طفل.

ضحكة الصبية رقيقة لكنَّها غامضة. كانت في الثانية والعشرين من العمر، ربّما وترتدي ثياباً رثّة. الصبية تعبر الطريق وتنظر أزهار النرجس والتوليب الأحمر في شباك بائع الورود. إنّها تتردّد قليلاً، ثم تواصل السير نحو تمبل بار. تسير مُسرعةً، لكنّها قد يذهلها أي شيء فتشرد. في بعض الأوقات تبدو مُبصِرة، لكنّها أحياناً تكون فاقدة قدرتها على الملاحظة.

الفصل العاشر

ضلَّت فاني إلمر طريقها باحثة بين الحشائش النامية كثيراً عن اسم يهمّها وسط المقابر المتهالكة المتّكئة على السُّور داخل أبرشية القدّيس بنكراس. لمحت خلال تجوالها هناك حارس المقبرة مقبلاً فتوجّهت بسرعة الطريق. أخذت تتلّكأ عند نافذةِ محل يبيع أواني الخزف الصيني، لكنّها سرعان ما غيرت رأيها وهرعت لتعوّض عن الوقت الذي أضاعته. ثمّ فجأة دخلت إلى محل يبيع الخبز، لشراء بعض اللُّفافات، وقليل من الكيك، لتعاود من ثمّ سيرها الحثيث، فلا يكاد يلحقها أحد إلا راكضاً. فاني إلمر، كما قلنا، ترتدي ثياباً بالية وتستر ساقيها جوارب حريرية، وتلبس حذاءً له إبزيم فضيّ. وهي تزين قبعتها بريشة مائلة، لكن حمّالة حقيبتها الضعيفة، تسببت بسقوط نسخة من برنامج المدام «توسود» في الطريق. كاحل فاني نحيف ككاحل أيل، ووجهها مغطّى. ولا شكّ في أنّ حركتها السريعة ونظراتها الخاطفة وتطلعاتها المجنّحة هي أمور عادية في أوقات الغسق. وقد شاءت المصادفة أنّها مرّت من تحت نافذة يعقوب.

كان المنزل بسيطاً، مُظلماً وغارقاً بالسكون. كان يعقوب ساعتها في غرفته، يفكر بحلّ مسألة شطرنجية على رقعة الشطرنج التي يحتضنها مع الطاولة بين ركبتيه. أصابع يعقوب تعابث شعره. وسرعان ما أنزل يده

ونقل بها الوزير الأبيض من المربع الذي يحتلّه، لكنّه تراجع وأعاد الوزير مكانه. ملأ غليونه تبغاً، وغرق في تفكيرٍ عميق. حرّك اثنين من البيادق. قدّم الحصان الأبيض، وظل يفكّر وإصبعه على الفيل. على أيّة حال، ها هي ذي فاني إلمر تمرّ من تحت نافذة يعقوب.

فاني كانت أصلاً في طريقها إلى مرسم النحّات نيك برامهام، لتكون موديل صورة.

جلست وهي ترتدي شالاً إسبانياً مرقوشاً بالزهور، وفي يدها رواية.

«أدنى قليلا»، قال الرسام لفاني وهو يشير بإصبعه. «خففي قليلاً من توترك، هذا جيّد – هكذا أفضل. أحسنت». بهذه الإيماءات الصوتية وبأصابعه كان نيك يوجهها لتتّخذ الوضعية المناسبة قبيل البدء بالرسم. اقترب منها وهو يدّخن، ولم يتكلم طبعاً. بدا رأسه وكأنّه من عمل نحات، وهو يقيس حجم الجبهة ويمطّ الفم، تاركاً آثار إبهامه وخطوطاً من أصابعه في الصلصال. لكنّ عينيه بقيتا مفتوحتين، وجاحظتين، وتقدحان شرراً، ربما لكثرة ما يحدّق فيمن يرسمهم. وإذا ما تكلّم تبقيان مرتعشتين للحظة، قبل متابعته التحّديق، على ضوء المصباح غير المظلل فوق رأس فاني.

جمال المرأة يشبه ضوءاً على صفحة ماء البحر. الضوء لا يثبت على موجة بحد ذاتها. فكلّ الموجات تحتضنه، وكلّها يفقده. هكذا، أحياناً تكون المرأة مملّة وسمجة كلحم الخنزير، بينما تغدو شفافة كإناء زجاجيّ معلّق. الوجوه الثّابتة عادةً هي الوجوه المملّة. وكمثال على هذا إليكم صورة السيدة فينيس المعروضة. صورتها تبدو مثيرة للإعجاب مثل تحفة، لكنّها

مقطوعة من مرمر لتوضع بجانب الموقد، ولا تتعرض للغبار. المرأة السمراء الرشيقة، المرأة الكاملة من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها لا تصلح إلا كنموذج توضيحي على طاولة غرفة الجلوس. وللنساء في الشارع وجوه كوجوه ورق اللعب. ملامحهن العامة ورديّة اللون أو شاحبة، ومحاطة بخطّ محكم. وبإمكانك وأنت تقف وتطلّ من شباك الغرفة العُلْوية أن تشاهد الجمال مشخْصاً، وكذلك لو نظرت من زاوية نافذة الحافلة التي تستقلها، بل وأنت تجلس القرفصاء في حفرة خندق – حيث تراه بألوان شتّى ويتفجّر فتنة، ليخبو بعد لحظات. مثل هذا الجمال ليس في الإمكان الاعتماد عليه، ولا الإمساك به أو لفّه بورقة كالصرّة. ربما يخيّل للمرء أنّه رابح إذا تجوّل في السوق، لكن ويعلم الله، أنّ البقاء في البيت أفضل من التردّد على المحلات التجارية ذات الأبواب الزجاجية، على أمل الحصول على أشياء خضراء لامعة، أو بلون الياقوت المتوهج. إنّ المنظار البحري إذا وضعته في إناء عميق يفقد بريقه بسرعة لا تقلّ عمّا يحدث للحرير. هكذا إذا تحّدثت مثلاً عن امرأة جميلة فإن كلامك ينطبق على مظهر سريع الزوال لا أكثر، كوجه استعار للحظة واحدة توهّج عينيّ فاني إلمر أو شفتيها أو خديها.

لم تكن فاني إلمر جميلة وهي تجلس متخشّبة. شفتها السفلى تبدو شديدة البروز، تحت أنف ضخم وعينين حولاوين. وهي ذلك ضعيفة الجسم، بخدّيها المستدقّين وشعرها الفاحم. فهي أقرب العبوس، أو قل مقطّبة، إذا جلست. خربش برامهام بقلمه الفحم بقوة فأجفلت. كان برامهام معكّر المزاج. جلس أمام موقد الغاز ليدفيء يديه. في تلك الأثناء كانت تتأمل ما رسمه على الورق. أطلق نخرة. ولبست فاني عباءتها وأخذت تغلي القهوة.

«هذا سيء، والله»، قال برامهام لها.

جلست فاني على الأرض، وشبكت يديها حول ركبتيها، ورمقته بنظرة. عيناها الجميلتان – بكلّ ما يعنيه الجمال المتلألئ الذي يملأ فضاء الغرفة. بدت عيناها متسائلتين، مشفقتين، حقيقيتين وتشعّان بالحُبّ. لكنَّها كانت مُغالية. لم ينتبه برامهام لأيّ شيء. وعندما غلت القهوة أخذت فاني تُحمحِم، كمهرة، أو مثل جروٍ صغير، وليس كامرأة عاشقة.

مشى يعقوب حتى النافذة، ويداه في جيوبه. في تلك اللحظة خرج السيد سبرنغيت قبالته، وتأمل شباك دكانه وعاد الداخل. عبرت مجموعة من الأطفال الشارع. كانوا ينظرون أصابع الحلوى الورديّة. تحرَّكت في الشارع سيارة فان من نوع بكفورد. أفلت طفل من حبلٍ مُلتف. استدار يعقوب نحو الباب. وبعد دقيقتين، فتح الباب الأمامي وخرج قاصداً هولبورن.

تناولت فاني إلمر عباءتها المعلّقة على المشجب. وفكَّ نيك برامهام اللوحة من الحامل الخشبي ولفّها تحت إبطه. أطفأا الأضواء وسارا في الشارع بين زحام السيارات والحافلات والعربات حتى وصلا ساحة ليسستر، قبل وصول يعقوب بخمس دقائق. طريق يعقوب أبعدُ قليلاً، كما أنّه تسكّع في هولبورن ليتابع مرور الموكب الملكي، فضلاً عن توقيفه عند الحاجز، ليصل أخيراً إلى الباب المتأرجح في شارع إمباير حيث كان نيك وفاني متكئين على حاجز المتنزّه. وهكذا شقّ يعقوب طريقه، وأخذ مكانه بين الجالسين حتى بلغ مكانهما.

قال نيك بعد خمس دقائق: «مرحبا، لم أنتبه لوصولك».

ردّ يعقوب: «هراء. لا معنى لذلك».

قال نيك: «هذه الآنسة إلمر».

أبعد يعقوب غليونه من فمه بعصبية واضحة.

كان يعقوب مرتبكاً بالفعل، وبقي هكذا حتى حين جلسوا على الكنبة المخملية، ودخان السجائر يحجب خشبة المسرح. أخذوا يستمعون الأصوات الآتية من بعيد وموسيقى الأوركسترا المبهجة، التي جاءت في وقتها. ودّت فاني أن تقول: «يا له من صوت جميل!» خطر في بالها أن يعقوب لم يقل سوى كلمات قليلة، لكنها كانت كلمات ذات وقع مؤثّر. وخطر لها أنَّ الفتيان محترمون ومتحفّظون جداً، وأنّهم قليلو وعي، وأنّه من اللطيف أن يجلس المرء بجانب يعقوب طويلاً ويمعن النظر إليه، فهو يبدو كطفل، ربما، حيث يرجع في المساء متعباً. وقالت في نفسها: «لكن لن استسلم». وكان يعقوب عندئذ ما يزال متّكئاً على الحاجز، وفوقه سحابة من الدّخان.

التدخين فيما يبدو يزيد من جاذبية الشباب، رغم كل ما يظهرون من حيوية في ملاحقة الكرة أو في لعبة الكريكيت، مهما رقصوا، ومهما ركضوا في الطرقات. لكن من المحتمل أنّهم يفقدوا حيويتهم سريعاً. فاني فكّرت أيضاً (وهي ترتجف مثل وتر الكمان)، إنّ هؤلاء الشباب قد يطيلون النظر في عيون الأبطال البعيدين، ويمكثون بيننا بمايشبه الازدراء، وعلى أيّ حال، فهم يميلون الصمت، ويتكلمون كلاماً جميلاً، فتهوي كلماتهم كالزهرة المقطوفة للتّو، وليس كجلجلة القطع المعدنية في معصم الصبايا. الفتيان يتحرّكون بحزم، كما لو أنَّهم يعرفون كم سيطول بهم البقاء ومتى سيرحلون – أجل، لكن السيد فلاندرز (يعقوب فلاندرز) ذهب لحضور برنامج الرقص.

عاد يعقوب وقال: «الراقصون يصلون في نهاية الوقت تماماً».

بقي عقل فاني يعمل. وتساءلت، أليست لطيفة طريقة الفتيان وهم يخرجون مقادير من النقود الفضية من جيوب سراويلهم، فيتأملونها، بدلا من الاحتفاظ بمبالغ كبيرة في محافظهم؟

فاني كانت هناك، تدور عبر المسرح مرتديةً ثوباً ذا حاشية بيضاء، وكان للموسيقى رقصة الروّح واندفاعها. ومن حيث توقفت وهي تتكىء بقوّة على الحاجز، على بعد خطوة من يعقوب فلاندرز، أحسّت أنّ آلية هذا العالم وكلّ حركته كانت تنسج في سلاسة ضمن تلك الحركات المدومة السريعة والانهيارات.

سقط قفازها الأسود المزموم على الأرض. التقطه يعقوب وقدّمه لها، فأجفلت بشيء من الغضب. فذلك يُمثّل غاية الهوى اللّاعقلاني. في المقابل، شعر يعقوب للحظة بالخشية منها – وأحسّ برهبة تجتاح كيانه، رهبة تصبح خطيرة حين تقف أمامك إحدى الصبايا وقفة صارمة. عندئذ، ستتشّبث بالحاجز، وتقع في الحُبّ.

حدث هذا كلّه في منتصف شهر شباط. ويومها كان الضباب يكتنف أسطح ضاحية «همستيد غاردن»، ويجعل من المتعذّر على الإنسان السير بسبب قسوة الطقس. عوى أحد الكلاب، وظلّ ينبح بلا توقف، في الخواء. واستمرت الظّلال المتغيرة في سفرها فوق الحقول.

يفقد الجسم بعد أن يتعافى من مرض طويل يفقد جانباً كبيراً من قدراته الحيوية، ويصبح سلبياً ويشتهي الحلوى، لكنّه يكون أضعف من أن

يستسيغها. الكلب ينبح في الفراغ فيترقرق الدمع في العيون، والأولاد يتراكضون متقافزين خلف إطاراتهم الخشبية. القرى تغرق في العتمة فيعقبها نور، فتبدو وكأنّها قابعة خلف حجاب. لكن لجعل الحجاب أكثر سمكاً حتى لا يغمى عليّ لكثرة الحلاوة. كانت هذه بعض الأفكار التي خطرت لفاني إلمر حين جلست على مقعد خشبي في حديقة «جدجز وول» المطلة على ضاحية همستيد غاردن، فأطلقت زفرة عميقة. لكنّ الكلب لم يكفّ عن النباح. كذلك لم يتوقف هدير السيارات على الطريق. وفي البعيد تناهى لسمع فاني حركة متعجّلة وطنين. فصار الدمّ يضجّ بقلبها. نهضت وغادرت المكان. كان العشب أخضرٌ يانعاً، والشمس حارّة. وحول البركة كلّها كان الأولاد مُنشغلين بالانحناء لتشغيل قواربهم الصغيرة لينطلقوا بها، وإلا تعرضوا للإبعاد حتى لو استمرّوا في الصراخ.

عند الظهيرة تخرج الصبايا إلى الهواء الطلق. وينشغل الرجال كلهم في المدينة. يجلسون على حواف البركة الزرقاء. الريح تتلهى بتبديد ضجيج الأطفال. فكرت فاني إلمر: هؤلاء هم أطفالي. النسوة يجلسن على حافة البركة أيضاً، وينشغلن بطرد الكلاب الضخمة الشعثة التي تتقافز هنا وهناك في المكان. وثمة يد تهدهد رضيعاً فيغفو مطمئناً في عربته الصغيرة. عيون الممرضات جميعاً الأمهات والنساء المتجولات لا تكفّ عن التحديق فيبدون منهمكاتٍ بشيء ما. لذلك يكتفين بهزّ رؤوسهن وتجاهل أطفالهن المتشبثين بثيابهن لحثّهن على المسير.

فاني إلمر لم تتريث، بل تقدمت، إذ سمعت صوتاً – صفيراً ربّما أطلقه أحد العمال – وحملته إليها الريح. لكن مهلاً، ربّما هو طائر السمّان الذي يغرّد في الهواء

الدافيء، منشداً أغنيته المرحة بين الأشجار. استمعت فاني إليه، وفكرت بأنّه هو أيضاً يعاني من القلق رغم كل مظاهر الفرح، ولكن الخوف يدفعه الغناء – وأنّ أحداً لا يهتم بألحانه، ليندفع إذن الغناء بكل هذا الشكل المضطرب. أصيخوا السمع! الطائر كان هناك، فقفز شجرة أخرى. وفاني لم تعد تسمعه بوضوح، لاسيّما وسط دوي السيارات وصفير الريح.

دفعت فاني عشرة بنسات ثمن غدائها.

«يا سيدة، أيتُّها الآنسة الغالية، لقد نسيت تلك المرأة مظلّتها هنا» دمدمت المرأة الرقشاء داخل الحجرة الزجاجية، بجانب الباب في محل إكسبرس ديري كومباني.

«سأحاول اللّحاق بها»، ردّت النادل التي تعمل هناك، ميلي إدواردز، ذات الغدائر المُشَقَّرة، ثمّ هرعت خارجةً عبر الباب.

«لا فائدة، للأسف»، قالت ميلي إدواردز بعد عودتها بلحظة ومعها مظلة فاني الرخيصة، فرَدَت بيدها غدائرها للأعلى.

«يا له من باب سيء!»، قالت المرأة «الكاشير» من خلف الصندوق في الحجرة الصغيرة. وكانت تلبس قفازين أسودين، وأطراف أصابعها منتفخة كقطع النقانق لكثرة القصاصات الورقية التي تسحبها في تعاملها مع زبائن المطعم.

«فطيرة وخضروات. فنجان كبير من القهوة مع كعكة محلّاة. بيض على الخبز المحمص. كعكتان بالفواكه... ووو».

بهذه الطريقة كان يتوالى صراخ النادلين عالياً. وكان الطباخون يسمعون بآذانهم كيف يردّدون ما قالوه دلالةً لقبول طلباتهم، وعيونهم معلّقة بالطاولات المجاورة وما عليها من طعام أعدَّ مسبقاً. وأخيراً تَحمُل النادل الأشياء المطلوبة، كالبيض مع الخبز المحمص وغيره. وعندها فقط يكفُّ هؤلاء عن استراق النظر هنا وهناك.

وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى يأخذوا بالتهام قطع الحلوى الندية بأفواهٍ مفتوحةٍ كأبواب الحقائب الجلدية.

فتتّت نيللي جنكنز، عاملة الآلة الكاتبة، كعكتها قطعٍ صغيرةٍ بتمهل.

وكانت نللي ترفع رأسها كلّما فتح الباب. فما الذي كانت تتوقع رؤيته؟

قرأ تاجر الفحم البرقية التي تسلَّمها دفعةً واحدةً. بدا شارد الذهن، فأخطأ طبقه، واضعاً فنجان القهوة على قماش الطاولة.

قالت السيدة بارسونز ملخصة الموقف: «هل بلغتك ذات يوم مثل هذه الوقاحة»؟ وراحت تنفض فتافيت الكعك عن معطفها الفرو.

صاحت النادل: «واحد حليب ساخن مع الكعك. إبريق شاي. سندويشة بالزبدة».

فُتح الباب وأُغلق.

هكذا هي حياة الذين يكبرون في السّن.

إنّ من الممتع أن تراقب الموج وأنت جالس في قارب. ها هي ذي ثلاث موجات مُقبلة، الواحدة تلو الأُخرى، ولها الحجم نفسه. وهناك موجة رابعة

تُجاهد للّحاق بها أيضاً. إنّها موجةٌ ضخمةٌ جداً وخَطِرة. لاحظْ كيف تحمل القارب، وتقترب أكثر فأكثر. لكنَّ الموجة الرابعة سرعان ما تكسَّرت وفقدت زخمها، لتتلاشى أخيراً في بطون الموجات الثلاث التي سبقتها.

هل يوجد ما يفوق عنف الأغصان حين تطوّح بها الريح العاصفة، فتتأودَّ دفعةً واحدةً وتجثمُ على جذع الشجرة، حتى الأغصان العالية، متَّجهة حيث تدفعها الريح، مع أنّها لا تضطرب جداً؟ ذلك لا يحدث لحبّات الذّرة، التي تتمعَّج في جوف الأرض وتخمد حركتها، وكأنّها تحاول التفلّت من الجذور لتشطأ عالياً، لكنّها مع هذا تبقى رهينة المكان.

إنّ المرء ليطمح، حتى في ساعة الغسق، لمشاهدة حشود الناس من خلال النافذة، حيث يتدفّقون في الشارع كجيوشٍ في حالة انتشار، عيونهم يملؤها التوَّق وأفواههم فاغرة. ذلك يبعث الراحة في أنفسنا. لكن إذا بقيت هذه المشاعر تتراكم في داخلنا فمن المؤكد أخيراً أن ننفجر في الهواء مثل الفقاعات. فتتوهّج النجوم عبر أرواحنا. ونغرق بالعاصفة مع قطرات مالحة – وهذاما يحدث بين وقت وآخر. ذلك أنّ الأرواح المندفعة لا تُدرِك مثل هذا التموضع. كما أنّها لا تحظى أبدا بمثل هذا التّأرجح أو التّراخي الذي لا معنى له. هي لا تعرف هذا التّظاهر، أو التّكاسل، أو الافتراض المعتدل بأنَّ الأشخاص متشابهون جداً، وأنّ النار دافئة، والنبيذ سلس، والتطّرف آثم.

«الناس رائعون حين تعتادهم».«لا يمكنني أن أظَنّ سوءاً بتلك المرأة. هذا ما ينبغي على المرء تذكّره...» لكن نيك ربّما، أو فاني إلمر، المؤمنين في قرارة نفسيهما بحقيقة اللحظة، يرغيان، ويلطمان خديهما، ويتلاشيان كحبَّات البرَد اللّاذعة.

«أوه»، قالت فاني بغتة داخل الاستوديو، بعد أن تسكّعت ثلاثة أرباع الساعة بجوار فاوندلنغ هوسبيتال، لعلَّها تلتقي يعقوب مصادفة في الطريق، فتأخذ منه المفتاح وتدخل الغرفة. تقول لنيك: «أخشى أن أكون قد تأخرت». فلا يرد نيك بكلمة، فتزداد جرأةً وتحدّياً.

تصرخ أخيراً: «لن تراني هنا بعد الآن».

قال لها نيك: «لا بأس، لا تعودي». فخرجت مسرعة دون أن تعلّق، ودون أن تتمنى له مساء طيباً.

كم كان رائعاً – ذلك الثوب المعلّق في محل إيفلينا بشارع شافتزبري أفينيو! الساعة الآن حوالي الرابعة مساء يوم من أيام نيسان الأولى، وفاني عادةً ما كانت لتقضي هذه الأوقات بالذّات في البيت إذا كان النهار صحواً؟ في متجر إيفلينا بشارع شافتزبري يعرضون أزياء امرأة بأكثر من شكل: وهي تُمسك تنورتها باليد اليسرى ووشاحها مزيّن بالريش حول سارية في الوسط. وهناك قبعات متفاوتة الألوان كرؤوس الأشرار فوق «تمبل بار» – قبعات خضراء زمردية وبيضاء، قبعات مجعدة قليلا أو متدلية وعليها ريشات عاتمة اللون. وصورة المرأة ذاتها تظهر جالسة وقد وضعت قدميها على السّجادة – وأظافرها معلّمة بالذهبي أو بجلدٍ لامع ومنثور بشرائط قرمزية.

حتى الساعة الرابعة عصراً، بقيت النسوة يمتّعن نظرهن بالثياب المرقوشة بالأبيض، وكأنّها قطع من الكعك المحلّى في نافذة مخبز. وفاني شاهدتها أيضاً. في تلك اللحظات في شارع جيرارد، أقبل رجل طويل القامة يرتدي معطفاً رّثاً. كان ظلُّهُ مرئياً في شباك إيفلينا– كظلّ يعقوب، لكنه لم يكن هو

يعقوب. استدارت فاني ومشت في ذلك الشارع ذاته، شارع جيرارد. وتمنّت لو أنّها قرأت كتباً أكثر. نيك لم يعتد على قراءة الكتب، كما لا يتحدّث عن إيرلندة، ولا مجلس اللوردات. فاني ستتعلّم اللاتينية وتقرأ فيرجيل. فقد كانت قارئة عظيمة ذات يوم. وسبق لها أنْ قرأت سكوت، ودوماس أيضاً. على أيّ حال، هناك في «السليد»،لا يحبون القراءة، ولم يتعرفوا على فاني، كما لم يقدّر أحد كيف كانت تراها مؤسسة فارغة. رغبات الناس هناك متّجهة الأقراط، الرقص، «التونكس» و«الستير» – الفرنسيون وحدهم كانوا مهتمين بالرسم، على حد قول يعقوب. أمَّا المحدثون فلا جدوى في أعمالهم الفنية. الرسم عندهم أقلّ ضروب الفن قيمة. والحال هذه، على قول يعقوب، إذا كان لا بد من قراءة الروايات، فما الحاجة قراءة غير مارلو، وشكسبير، وفيلدنغ؟

لذلك عندما سألها أحد موظفي الصليب الأحمر الخيري عن الكتاب الذي تفضّل قراءته، ردّت عليه: «فيلدنغ».

فاني اختارت أن تشتري رواية توم جونز.

في حوالي الساعة العاشرة صباحاً، بدأت فاني إلمر بقراءة توم جونز، في الغرفة التي تسكنها مع معلّمة مدرسة – وهي الرواية التي تدور حول معنى الزهد. إنّ المادة المضجرة لهذه الرواية (كما خطر لفاني) في تركيزها على الناس الذين لهم أسماء غريبة هي التي يفضلها يعقوب. إنّها رواية يحبّها كل الطيبين. وفي العادة، النسوة اللّاتي يقرأن توم جونز– ذلك الكتاب الصوّفي - هن من يرتدين ملابس رثّة، ولا يهمّ كيف يصالبن أرجلهن عندما يجلسن. وبرأي فاني هناك شيءُ ما في الكتب يجعلني أحبّها إذا كنت

على جانب من الثقافة – وهذا أمرٌ أهمُّ بكثير من أقراط الأذن ومن الأزهار. تنهَّدت فاني وحملها تفكيرها بعيداً أروقة السليد وثوب الرقص الخيالي الذي تخيّلت أنّها ترتديه في الأسبوع التالي. فاني ليس لديها ما تلبسه.

وضعت فاني إلمر رجليها على سياج الموقد، وغرقت في التفكير أنّ تلك أشياء حقيقية. أجل إنّ بعض الناس حقيقيون. على سبيل المثال نيك، ربّما، وإن كان يشكو من الغباء. النساء ليست كذلك إطلاقاً – باستثناء الآنسة سارجنت، ولكنّها غادرت في موعد الغداء لتشمّ الهواء النقيّ. ثمّ خطر لها أنّهم جلسوا هناك ليلاً بهدوء يقرؤون. لم يذهبوا الحفلات الموسيقية، ولم يتسكّعوا لاستعراض الحاجيّات في نوافذ المحلات، ولم يتبادلوا ملابسهم، كما فعلت هيوروبرتسون الذي ارتدى وشاحها بينما ارتدت هي صدريته، وهو أمرٌ لا يفعله يعقوب دون أنْ يرتبك، لأن يعقوب كان يحبّ توم جونز.

في تلك الغرفة، جلست فاني وفي حضنها الكتاب المطبوعة صفحاته على عمودين، وعلى غلافه السعر المدوّن، ثلاثة جنيهات وستة بنسات، وهو الكتاب الصّوفي الذي عنّف فيه هنري فيلدنغ قبل سنوات طويلة فاني إلمر بسبب استمتاعها باللون القرمزي، وهذا ضرب من الابتذال، على حد قول يعقوب، الذي لم يكن يقرأ الروايات الحديثة. فيعقوب كان يفضّل قراءة توم جونز.

لكنّ فاني أكّدت بأنها تحبّ قراءة توم جونز، وقالت في تمام الساعة الخامسة تماماً من اليوم نفسه في أوائل نيسان «أنا أحبّ توم جونز، بلا شك»، فأخرج يعقوب غليونه ليدخّن، وهو يجلس على كرسي في مواجهة فاني.

من المؤسف أنّ النساء يكذبن! باستثناء كلارا دورانت. فهي ذات عقل مكتمل، ولها طبيعة صريحة. فهي كانت عذراء موثوقة صخرة (في مكان ما خارج ساحة لاوندز سكوير)، ولا تتعب من صبّ الشاي لكبار السنّ المرتدين صدارياتهم، بعيونهم الزرقاء، والنظرات المُبحلِقة مباشرة في وجهك، وأنت تعزف موسيقى باخ. وكلارا مُميزة في عيون يعقوب، ويكنّ لها احتراماً كبيراً جداً. لكن أنْ تجلس طاولة بين أرامل نبلاء يرتدين المخمل وأمامك الخبز والزبدة، بينما تقوم الآنسة الكهلة بيري بصبّ الشاي، ثمَّ لا تقول لكلارا دورانت أكثر ما قاله بنسون للببغاء فهذا أمر يُمثّل انتهاكاً غير مقبول ضد الحريات والآداب العامة المميزة للطبيعة البشرية – أو عبارات تصبّ بهذا المنحى. ذلك أنَّ يعقوب ظلّ ملتزماً الصمت، مكتفياً بالتحديق في النار. ووضعت فاني الرواية من يدها جانباً.

فاني انشغلت بالخياطة أو الحياكة.

سألها يعقوب: «ماذا تفعلين»؟

«أُجّهز بعض الأشياء من أجل حفل الرقص في السليد».

وهكذا أحضرت غطاء رأسها، وسروالها، وحذاءها ذا الشرّابة. فما الذي سترتدي؟

قال يعقوب: «في ذلك الوقت سأكون في باريس».

وفكرت فاني: تُرى ما معنى الرقص وأنت ترتدي ثوباً خيالياً؟ فأنت في الحالات كلها تلتقي بالناس أنفسهم، وتلبس الثياب نفسها، وتشاهد

مانغين وهو يسكر، وفلورندا تجلس على ركبتيه. وتمزح معه مُزاحاً فاضحاً – كما تفعل الآن مع نيك برامهام.

سألته فاني: «في باريس؟»

ردّ يعقوب: «نعم، في الطريق اليونان».

ثم أضاف أنّه وجد لندن مدينة ممقوتة جداً خلال شهر مايو.

ولهذا فإنه سينسى هذه المدينة.

طار ببغاء عبر النافذة، حاملاً قشة – أخذها من كيس القش بجانب حظيرة حيوانات لأحد المزارعين. وفي الخارج، كان كلب من نوع سبانيل يتشمّم الأرض بحثاً عن جرذ. كانت أشجار الدردار العملاقة مليئة بأعشاش الطيور. وأغصان الكستناء يحرّكها الهواء كالمراوح، وتطير الفراشات مزهوة بين دروب الغابة. وكما يقول موريس، ربّما كان الكاردينال بلباسه الأرجواني يتناول طعام إفطاره الفاسد في ظلِّ شجرة البلوط.

فاني تظنّ أنَّ توم جونز هو السبب في كل ما يحدث هناك. كان بإمكانه، توم جونز، أن يخرج وحيداً وكتابه في جيبه، وملاحقة حيوانات الغرير. بعد ذلك، في حوالي الثامنة والنصف، يمكنه أن يستقلّ القطار ويهيم على وجهه طوال الليل. وسيرى اليراعات المضيئة في عتمة الليل، ثمَّ يعود ومعه حشرات سراج الليل التي يضعها في علب الدواء، وقد يخرج الصيد وكلاب الصيد غير المدرّبة تلحق به في الغابة. كل هذا وذاك سيكون بسبب توم جونز أيضاً. كذلك في وسعه أن يسافر باريس وفي جيبه كتاب، وينساها.

تناولت مرآة اليد. تفقّدت وجهها. كان هناك. افترضت أنّه وجه يعقوب، لكنه معمَّم بطربان ملفوف عدّة لفات؟ ها هو وجهه، وجه يعقوب. أشعلت الضوء. لكنَّ الضوء المتسلّل من النافذة، قلّل من سطوع المصباح. ومع أنّه بدا في حالة مريعة وجليلاً فقد يهجر الغابة، حسب قوله، ويحضر السليد، ويصبح فارساً تركياً أو امبراطوراً لروما (ويسمح لها بأن تصبغ شفتيه بالأسود، فيطبق أسنانه ويبدو عابساً في المرآة)، لكن مع ذلك، فإنَّ توم جونز لا يفارق مكانه.

الفصل الحادي عشر

قالت السيدة فلاندرز برقة نألفها غالباً عند الأم حين تتحدث عن ابنها البكر: «آرشر سيكون في جبل طارق غداً».

كانت هي تنتظر رسائله (إذ ترتقي سفح تلّة دودز هيل، مصغية لأجراس الكنائس العشوائية وهي تردّد ألحانها في الأعلى، عندما تُعلن الساعة تمام الرابعة، فيما تكتسي المرآة لوناً أرجوانياً في ظلال الغيمة المُنذِرة بالعاصفة، وبيوت القرية المعدودة ترتعد في تواضعها الأبدي تحت حُجب الظلال). أحياناً كانت موضوعات الرسائل التي تتسلمّها بتي فلاندرز متنوعّة، وأغلفتها تحمل خطوطاً غامقة ومكتوبة بشكل مائل، ومهورة بأختام إنجليزية أو بأختام أجنبية، وربَّما جاءت معلَّمة أحياناً بشريط أصفر. على أنَّنا هنا لا يهمنا أن نتحدث عمّا إذا كانت هذه الخدمة الاتصالية المعروفة على نطاق واسع في شتّى بقاع الدنيا مربحة أم لا. لكن يبدو محتملاً جداً أنّ كتابة الرسائل قد أصبحت اليوم ممارسةً مزيفةً، لاسيما من قبل الشباب الذين يسافرون بلدان بعيدة.

خذوا مثالاً على ما نقول المشهد التالي.

لقد سافر يعقوب فلاندرز الخارج، لكنَّه تريّث في باريس وتأخّر عن متابعة الرحلة (فقد توفيت السيدة المسنّة بيرباك، ابنة عم والدته خلال حزيران الماضي، وتركت له مئة جنيه).

قال مالنسون، الرسّام الصغير الأصلع الذي كان يجلس على طاولة رخامية ملطّخة بالقهوة، وتحيط بها الخمرة، حتى أصبح شبه ثمل ويخرج منه الكلام رشّاً. «لا أرى أنّك في حاجة لتكرار هذه القصة كلها مرة بعد مرة، يا كروتندن».

دخل يعقوب وفي يده مغلف عليه عنوان مسكن والدته، السيدة فلاندرز، قرب مدينة سكاربورو، بإنجلترا. وما إنْ أخذ مكانه بين أفراد المجموعة حتى سأله كروتندن: «طيّب، هل انتهيت يا سيد فلاندرز من الكتابة والدتك؟»

وأضاف: «أخبرني. هل أنت مع فليسكيز»؟

قال مالنسون: «أي والله، هو يساند فليسكيز».

قال كروتندن بحدة: «هو دائماً ينتهي مثل هذه الحال».

نظر يعقوب مالنسون بكثير من رباطة الجأش.

وقال كروتندن بقوة: «سأحدثكم عن أعظم ثلاثة أعمال كُتبت في تاريخ الأدب. (ظلّي معلّقة هناك بقلبي كما الثمرة أيّتها الروح)».

قال مالنسون: «كلا. إيّاك أن تستمع إلى رجل لا يحبّ فليسكيز»،

قال كروتندن: «وأنت يا أدولف، لا تعطِ السيد مالنسون مزيداً من النبيذ».

قال يعقوب بلهجة القاضي: «هذا مُنصف، مُنصف»، «لكن دع الرجل يسكر، ما دامت هذه رغبته». هذا ما يقوله شكسبير يا كروتندن.

وأنا معك فيما ترى. فشكسبير أكثر شجاعة من تلك الضفادع اللعينة».
وبينما أخذ يملأ كأسه بالنبيذ كرّر عبارة شكسبير بإيقاع مفعم بالموسيقى: (ظلّي معلّقة هناك بقلبي كما الثمرة أيتّها الروح). ثمّ صاح والنبيذ يكاد يفيض على حواف الكأس، قائلاً: «فلتأخذك الشياطين أيها الأسود، يا صاحب الوجه المصفرّ!»

«(ظلّي معلّقة هناك بقلبي كما الثمرة أيتّها الروح)»، ردّد كروتندن ويعقوب في اللحظة ذاتها، وانفجرا ضاحكين معاً.

تحسس مالنسون رأسه الأصلع وقال: «يا لها من ذبابات لعينة. ما الذي تظنُّ بي؟»

«تحسبك شيئاً طيب الرائحة»، قال كروتندن.

قال يعقوب: «اخرس يا كروتندن». وتوجه مالنسون قائلاً بأدب جمّ: «إنّه رجلٌ بلا أخلاق. يريد أن يحرم الناس من الشراب. هذا ما أريدك أن تنتبه إليه. أنا أريد عظماً محمّصاً. لكن ما الكلمة الفرنسية مقابل العظم المحمّص؟ أجل. أقول لك عظماً محمّصاً، يا أدولف. ولكنّك تعتبر الأمر مزاحاً، هل فهمت؟».

فرد كروتندن: «لكن دعني أخبرك يا فلاندرز عن ثاني أروع شيء في عالم الأدب كلّه». أنزل رجله الأرض، واتكّأ على الطاولة، حتى كاد وجهه يلامس وجه يعقوب.

«خداع وإضاعة للوقت، قصة القطة والكمان»، قال مالنسون مقاطعاً، وهو ينقر بأصابعه سطح الطاولة. ثمّ أضاف بثقة، وهو يومئ برأسه: «إنّ

أروع شيء في عالم الأدب طرّاً... أن كروتندن صديق طيب جدا، لو لم يكن أحمقَ بعض الشيء».

لا بأس. فهذه الكلمات لم تبلغ مسامع السيدة فلاندرز، كما لم يخبرها أحد بما حدث، متى دفعوا الفاتورة وغادروا المطعم، عبر شارع بوليفار راسبيل.

وإليكم جانباً من حديثٍ دار هناك، عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، من يوم الأحد داخل الاستوديو أيضاً.

فقد قال كروتندن ليعقوب: «سأخبرك، يا سيد فلاندرز بأنّني حصلت على صور صغيرة لمالنسون وهو يبيع لوحات تشاردان. وعندما أقول ذلك...»، وهنا أخذ يعصر نهاية أنبوبٍ رفيعٍ يحمله... «فقد كانت موضة دارجة... وهو يبيعها ليتمكّن من دفع ثمن طعامه الآن. لكن لننتظر حتى يقع بأيدي المتعاملين. موضة هائلة– هائلة جداً بحق».

«هذه حياة لطيفة جداً، قال يعقوب»، أعني العبث بالأشياء والفوضى. لكن مع ذلك، فهو فنٌّ غبيّ، يا كروتندن». أخذ يعقوب يتجوّل في أنحاء الغرفة.

تناول كروتندن كتاباً وقال: «لكن دعني أحدثّك عن رجل، اسمه بيير لويس».

ثمّ أضاف: «والآن يا صديقي العزيز، هلّا استرحت قليلاً؟».

قال يعقوب بعد لحظات، وهو يثبّت الكنفا على كرسي: «إنّه منظر عظيم».

قال كروتندن من فوق كتفه: «أجل. ذلك ما أفعله منذ أمد طويل».

مرّت بضع ثوان؛ فقال له يعقوب: «أنت يا صديقي رسام كفؤ».

وضع كروتندن لوحة الكنفا أمام يعقوب وقال: «إذا كان لديك فضول لمعرفة ما أعمله الآن، فتأمّل هذا. هذا هو العمل الجديد. إنّه أكثر شبهاً بذاك. أعني أنّه...». رسم بإبهامه دائرة حول رسمة تُمثّل مصباحاً مدوّراً باللون الأبيض.

قال يعقوب، فاتحاً رجليه ليحتوي اللوحة: «هذا منظر بديع». أضاف: «لكنّي أتمنى عليك أن تشرحه لي...»،

فجأة فُتح الباب، ودخلت منه الآنسة جيني كارسليك، وهي امرأة نمشاء شاحبة ونحيلة.

«العزيزة جيني، يا للسعادة. هذا صديقي فلاندرز. إنجليزي ومن أهل الثراء، ومن أسرة مرموقة. هيّا، تابع يا صديقي فلاندرز...».

بقي يعقوب صامتاً.

قالت جيني كارسليك: «الأمر ليس هكذا – ذلك ليس صحيحاً».

قال كروتندن بشكل جازم: «كلا، هذا لا يمكن فعله»،

تناول لوحة الكنفا عن الكرسي ووضعها على الأرض، وظهرها إليهم. «تفضلوا بالجلوس أيتّها السيدات والسادة. يا سيد فلاندرز، الآنسة كارسليك من دياركم، من ديفونشاير على وجه التحديد. أجل، أظن أنّك من ديفونشاير، كما أخبرتني سابقاً؟ حسنٌ جداً. وهي إحدى رعايا الكنيسة

أيضاً ومن أسرة بسيطة. أمّها تكتب لها رسائل موصوفة. وسؤالي – هل لديك واحدة منها، من هذه الرسائل؟ وعموماً، هم يأتون في أيام الآحاد، حين يُقرع جرس الكنيسة، كما تعلم».

فسألت جيني: «هل التقيت بأتباع الرسَّام كلهم؟ ومالنسون، هل كان ثملاً؟ إذا قمت بزيارة مرسمه فإنّه سوف يُهديك أحد أعماله. وأقول لكان تيدي...».

«لحظة صغيرة»، قال كروتندن. «في أي فصل من فصول السنة نحن الآن؟» أضاف وهو ينظر إلى الخارج عبر النافذة.

«نحن عادةً نعطّل في أيام الآحاد، يا فلاندرز».

«وهل هو س...»، قالت جيني وهي تومئ بعينيها يعقوب. «وأنت يا...».

ردّ يعقوب: «نعم، هو سيكون معنا»،

وبعد هذا كلّه، هناك قصر فرساي.

جلست جيني على حافة الحائط الحجري وانحنت لتتفرج على البركة، فأمسكها كروتندن لئلا تسقط. وهتفت «انظروا، هناك سمكة تسبح على سطح الماء!» وبالفعل كانت السمكة عالقة حتى غلاصمها في الوحل لتتصيّد فُتات الخبز. ولكنّها سرعان ما قفزت الماء الخانق، فأخذ يُبقبِق. وشيئاً فشيئاً اتسعت دائرة النافورة. وانبعث من أعماقه صوت مارش عسكرية بعيدة. وأخذ سطح الماء يتموّج، وتمتص موجاته الفقاعات الهوائية الزرقاء. ويا للدهشة كيف تجمّعت حشود الممرضات والأولاد والعجائز

عند حواف الماء، وأحنوا أجسادهم وهم يلوّحون بِعصيّهم! ومدّت الفتاة الصغيرة ذراعيها، لتلهو بالتقاط الفقاعات الهوائية التي سرعان ما تغرق في الماء.

مشى إدوار كروتندن، وجيني كارسليك ويعقوب فلاندرز صفاً واحداً في الممر المفروش بالحصى الأصفر. مشوا في ظلّ الأشجار حتى وصلوا إلى البقعة المعِشبة، حيث الغرفة التي كانت ماري أنطوانيت تجلس فيها لتتناول الشوكولاتة السائلة. دخل إدوار وجيني الغرفة وبقي يعقوب ينتظرهما في الخارج، متّكئاً على عكازته، حتى رجِعا.

لدى خروجهما ابتسم كروتندن ليعقوب ملاطفاً، وقال: «لا بأس، إذن»؟

انتظرت جيني، وانتظر إدوار، ونظر كلاهما إلى يعقوب.

«ماذا هنالك؟ سأل يعقوب وهو يبتسم، ويضغط بكلتا يديه على مقبض عصاه.

بعد لحظة قال بحزم «هيا بنا». ثمَّ مشى، فتبعه كلاهما مبتسمَين.

اتّجه ثلاثتهم مقهى في الشارع المجاور، اعتاد الناس ارتياده لتناول القهوة، ومراقبة كيف ينفض العساكر رماد سجائرهم في صحون السيجارة، في تأمّل.

قالت جيني، وكفّاها يحضنان حواف كأسها: «لكن تيد شخص مختلف تماماً. ثم أضافت «أعتقد أنّكما لا تدركان ما الذي يرمي إليه حين يقول أشياء كهذه». توقّفت لحظة ورمقت يعقوب بنظرة، وتابعت كلامها

«أمّا أنا فأعرف مقصده جيداً. أحياناً، كنت أشعر أنني سأقتل نفسي. فقد كان يقضي النهار في الفراش – يبقى مضطجعاً هناك لا أكثر... والآن لست في حاجة لكما على هذه الطاولة». قالت ولوحت بيديها مودّعة. وكانت بضع حمامات تتمشّى بين أرجلها بحثاً عن الطعام.

قال كروتندن: «لاحظوا قبعة تلك المرأة، وأتساءل كيف اهتدوا لصنعها؟... لا يا فلاندرز، لا أعتقد أنّ بإمكاني العيش بطريقتك، أعني أن يظلّ المرء يتمشّى في الشارع المقابل للمتحف البريطاني – ولا أذكر اسمه بالضبط؟ - هذا ما أقصده على وجه الدقّة. الأمور كلّها تسير على هذا النحو. تلك النسوة البدينات – وذلك الرجل الذي يقف في وسط الشارع، كمن يتوقع أن تصيبه نوبة...».

قالت جيني، وهي تهشّ الحمام تبيدها: «كلهم يقدمون الطعام لهذه الطيور، إنّها حيوانات غبية قديمة».

أشعل يعقوب سيجارة، وقال: «لكنّي لست متأكداً، هناك القدّيس باول».

قال كروتندن: «أعني في الطريق إلى المكتب».

قال يعقوب معترضاً: «دعونا ننهي هذه السيرة كلّها».

قالت جيني وهي تنظر كروتندن: «لكنّك لا تحسب حساباً للأشياء، أعني أنّك مجنون، لا تفكر إلا بالرسم».

«أجل. أعرف ذلك. لكن لا حيلة لي في الأمر. تُرى، هل سيعطي الملك جورج موافقته فيما يخصّ قضية النبلاء؟».

قال يعقوب: «على رسلك! الملك سيكون مضطراً للموافقة».

قالت جيني: «كلام مقنع، وهو شخصياً يدرك ذلك».

قال كروتندن: «سأفعل هذا لو كنت قادراً، لكن ذلك بكل بساطة خارج إمكانيتي».

قالت جيني: «أعتقد أنَّ بإمكاني عمل هذا»، لكن لا يفعل ذلك إلا الذين يكرههم الناس. أعني من في داخل الوطن. هؤلاء لا حديث لهم إلا عن هذا. وحتى من أمثال أمُيّ».

قال يعقوب: «لو جئت وبقيت هنا...، فما هي حصتي، يا كروتندن؟ لا بأس. لك أن تتفهم الأمر كما تريد. تلك الطيور الغبية، التي يتمناها الإنسان – لقد هاجروا وكلّهم».

أخيراً، تحت أعمدة الأنوار في شارع «غير دو إنفاليد»، انسحب كروتندن وجيني معاً، بخطّةٍ غريبة، بسيطة جداً لكنّها محكمة، حركة ربّما مرت دون أن تثير انتباه أحد، لكنّها عموماً مدعاة لقدر كبير من الاستياء. وهكذا انسحب كروتندن وجيني وحدهما، ووقف يعقوب بمفرده. وكان لا بدّ لهم من أن يفترقوا، ولا بدّ من قول شيء ما. لكن أحداً لم يعلّق بكلمة. وفجأة مرّت حافلة من أمام يعقوب تماماً، فكادت تهشمَّ رجليه. وربّما استعاد يعقوب توازنه، كان كروتندن وجيني ينعطفان في طريقهما. عندئذ التفتت جيني يعقوب من فوق كتفها، بينما اكتفى كروتندن بالتلويح له بيده، ليبتلعه الطريق مع عبقريته الفنية التي عرف بها.

كلا – السيدة فلاندرز لم تكن تعلم بالذي يحصل كلّه، على الرغم من شعور يعقوب بإمكانية إخبارها به بكل بساطة، بل بأنّ لا شيء في هذا العالم يفوق في أهميته هذا الواجب تجاه أمّه. كذلك شعر يعقوب أنّ كروتندن وجيني هما أبرز شخصين التقى بهما في حياته – لكونه لم يستطع أنْ يتكهَّن كيف أنَّ كروتندن اعتاد مع الزمن على هواية تصوير البساتين، وهو ما اضطره للعيش في مدينة كِنت. قد يخطر للمرء أنَّ على كروتندن مواصلة هوايته أوان تفتّح أزهار التفاح، ذلك أنّ زوجته، وهي التي عمل البستان من أجلها، قد هربت مع روائي. لكن لا. فكر وتندن ظلّ يرسم البساتين بأسلوبه الوحشي، حين يخلو بنفسه. أمَّا جيني كارسليك، بعد أن قطعت علاقتها بالرسام الأمريكي ليفانو، فأخذت تزور بعض الفلاسفة الهنود، أصبحت الآن إحدى زبائن البارات الإيطالية، ومتعلّقة بعلبة صغيرة في محل صائغ تحوي عدداً من البحصات العادية التي جُمِعَت من الطريق العام. لكن جيني شخصياً تقول: إنَّك إذا ما تأملت ملّياً بتلك الحصيات ستدرك أنّ التعددية تتحول إلى وحدة، والوحدة تكاد تكون سرّ الحياة، مع أنّها لا تمنع جيني من متابعة حركة قطع المعكرونة على طاولة الطعام. وفي بعض ليالي الربيع لا تتورَّع جيني عن الكشف عن أحد أغرب أسرارها لإحراج الشبَّان الإنجليز.

يعقوب لم يعتد إخفاء أشيائه عن أمّه. كلُّ ما في الأمر لا يتعدّى أنّه لم يستطع هو شخصياً أن يبرر انفعاله الاستثنائي، وأمَّا بشأن تسجيل مشاعره خطيّاً في رسالة...

قالت السيدة غارفز وهي تطوي رسالته: «رسائل يعقوب تشبهه تماماً».

فعلّقت السيدة فلاندرز بقولها: «حقاً، يبدو أنّه يمرّ...». توقفت فجأة، إذ كانت مشغولة بتفصيل ثوب وتعديل نموذجه... بظرف سعيد جداً.

انخرطت السيدة غارفز بالتفكير في عالم باريس. كانت النافذة خلفها مفتوحة، إذ كان الجو لطيفاً تلك الليلة. كانت ليلة معتدلة، قمرها بدا مكبوتاً، وأشجار التفاح ساكنة تماماً.

أزاحت السيدة غارفز الوسادة لتسند ظهرها، وقالت وهي تشبك أصابعها خلف رأسها: «لا أُشفق على الأموات»... لكن بتي فلاندرز لم تسمع ملاحظتها بسبب صوت المقص وهي تضعه بقوة على المنضدة.

أضافت السيدة غارفز: «الموتى يستريحون، بينما نحن نقضي أيامنا في إنجاز أشياء لا ضرورة لها، دون وعي بالسبب».

أهل القرية لا يحبّون السيدة غارفز.

وسألت للسيدة فلاندرز: «ألا تخرجين للمشي ليلاً في مثل هذا الوقت؟».

أجابت السيدة فلاندرز: «لا شكّ في أنّ الجو لطيف جداً اليوم».

مع ذلك فالسيدة فلاندرز أمضت سنوات عديدة ملازمة منزلها، سنوات لم تفتح خلالها باب الحديقة، ولم تصعد سفح تلة دودز هيل بعد وقت العشاء.

«كل شيء متيبّس تماماً، قالت السيدة غارفز حالما فتحت الباب ووصلت برفقة السيدة فلاندرز البقعة المعشبة داخل الحديقة.

قالت بتي فلاندرز: «لا يجدر بي أنْ أبتعد أكثر الآن، يعقوب سيغادر باريس يوم الأربعاء».

قالت السيدة غارفز: «يعقوب، خاصّة كان رفيقي الدائم من بين أولادك الثلاثة».

كررت السيدة فلاندرز، وهما تتسلقان سفح تلة دودز هيل المظلم: «هيّا الآن يا عزيزتي، يجب ألا نبتعد أكثر من هذا».

فالمتاريس اللينة الناهضة – وهي عادة شكل دائري يحيط بمعسكر أو مقبرة– تشير أنّهما على مشارف المعسكر. فجأة قفز ذهن السيدة فلاندرز الكمّ الكبير من الإبر التي أضاعتها هناك، ودبوسها العقيق الأحمر.

وقفت السيدة غارفز على مكان مرتفع وقالت: «يبدو لي أنّ ملامح هذا المكان أحياناً كانت مُتباينة أكثر منها الآن». وكانت السماء خالية من الغيوم، مع أنَّ الضباب يغطّي سطح البحر، ويتمدد فوق المستنقعات. وتبدو أضواء سكاربورو متوهجة كعقد الألماس في جيد امرأة كثيرة التلُفت يميناً ويساراً.

قالت السيدة غارفز: «ما أروق هذا الجو!»

مسحت السيدة فلاندرز بقعة العشب بإبهام رجلها، علّها تعثر على دبوس العقيق؟

واتَّضح للسيدة غارفز أنّه من الصعب عليها التفكير بنفسها تلك الليلة. لقد كان الجو هادئاً. فلا رياح فيه، وليس هناك ما يُعكّر صفو

الخاطر، سائراً، أو طائراً، أو راكضاً. ليس سوى الظلال السوداء التي أرخت سدولها فوق المستنقعات الفضية. لذلك بقيت شجيرات الوزال ساكنة تماماً. ومن المؤكّد أنّ السيدة غارفز في تلك الساعة لم تكن تفكر في السّماء. وكانت الكنيسة خلفها. وساعتها تدقّ مُعلنة تمام العاشرة. تُرى، هل وصل صوت الساعة آذان شجيرات الوزال، وهل سمعتها شجرة الزعرور الشائكة؟

انحنت السيدة فلاندرز لتلتقط حجراً صغيراً. فخطر للسيدة غارفز أنّ الناس أحياناً يعثرون على أشياء هنا وهناك، على الرغم من أنّ الرؤية مستحيلة في الظلام عدا العظام، أو كسرات الطبشور الأبيض.

تمتمت السيدة فلاندرز وكأنَّها تخاطب نفسها: «دبوس العقيق اشتراه يعقوب من حرّ ماله. وأنا بدوري دعوت السيدة باركر لتتفرج عليه. ولا بدّ أنّه وقع منّي في مكان ما...».

ترى، هل تتحرك العظام، أو السيوف الصدئة؟ وهل دبوس السيدة فلاندرز، الذي يساوي بنسين ونصف البنس، قد فارق مجموعة مقتنياتها مرّة والأبد؟. ولو كل الأشباح تجمعت معاً وتواصلت مع السيدة فلاندرز في دائرة تواجدها، فهل كانت ستجعلها كسيدة إنجليزية، تظهر في مكان آخر وتجعل قوتها أعظم؟

دقّت الساعة العاشرة والربع ليلاً.

تسلّلت النّسمات الرقيقة على مهل كأمواج متلاحقة عبر شجيرات الوزال القاسية وأغصان الزعرور، كلَّما دقت ساعة الكنيسة في كلّ ربع الساعة.

واستقبلت المساحات المستنقعية تلك التقسيمات الربعية للزمن بلا اكتراث، برحابة صدر، وكأنّها تقول «ها قد مرّت خمس عشرة دقيقة من الساعة الكاملة»، لكن دون جواب إلا ما تهامست به سرّاً قضبان العلّيق بحركتها الخفيفة.

على الرغم من الضوء الخفيف في تلك السّاعة كان يمكن للمرء أن يقرأ الأساطير المنقوشة على شواهد الأضرحة، والأصوات التي تردد: «أنا بيرتا روك»، «أنا توم كيج». وهؤلاء لا ينسون تاريخ الوفاة باليوم، ويقرؤون في كتاب العهد الجديد عبارات بحق الموتى، إمَّا تمجيداً، أو توكيداً، أو تعزية.

والمستنقعات تتقبّل ذلك كله بطيب خاطرٍ أيضاً.

ينزل ضوء القمر على حائط الكنيسة فيلونه بالأصفر، وينير وجوه العائلة المتعبّدة في الجوار والرُقُيم المؤرَّخ في العام ١٧٨٠ تخليداً لراعي الأبرشيّة الذي دأب على تخليص الفقراء من كوابيسهم، والذي آمن بالله – بحيث إنّ الصوت المدوزن ينساب ما تحت اللوح الرخامي للرقيم، كما لو كان قادراً على فرض نفسه على الزمن والفضاء أيضاً.

يتسلّل ثعلب من بين شجيرات الوزال.

في العادة الكنيسة تغصّ بالمصلّين، حتى خلال الليل. مقاعد الكنيسة الخشبية الطويلة مهترئة ومليئة بالدهون، لكن غفارات الكهنة تحتل أماكنها، وتتكدّس كتب الأناشيد على الرفوف المخصّصة. الكنيسة سفينة مُبحرة

بطواقمها كافة. والغابات جهدها لتضم رفات الموتى وأجساد الأحياء على السواء: الفلاحين والنّجارين وصيادي الثعالب، والمُزارعين الذين تفوح أجسادهم برائحة الأرض والبراندي. ألسنة هؤلاء جميعاً تشترك معاً لتهجئة المقاطع الواضحة للكلمات، تلك التي تقطّع الزمن والمستنقعات الواسعة. ومنذ خمسمئة عام لا يزال التفجّع والإيمان والمراثي، لا يزال اليأس والنجاح، وأكثرية الذوق السليم واللامبلاة المرحة تدوس بأقدامها الأشياء وتهرب من الشبابيك في الوقت الذي تشاء.

مع ذلك، فكما قالت السيدة غارفز، وهي في طريقها إلى المناطق السبخية، «ما أشدّ هدوء تلك الأماكن!» فهي هادئة عند منتصف النهار، اللهم إلا حين يتزايد عدد الطرائد فيها، وفي ساعات بعد الظهر إلا من الأغنام التي تردها، وهادئة تماماً أيضاً آناء الليل.

بين حشائش تلك المستنقعات ضاع دبوس العقيق. وهناك أيضاً يتسلّل الثعلب خفية. وتنقلب ورقة شجر فتقف على حدها. وتحت ضوء القمر الغارق بالضباب عند المعسكر تستريح السيدة غارفز، ابنة الخمسين سنة.

وهناك وقفت السيدة فلاندرز باستقامة لتعلن: «... و...، أنا لم أكن أهتم بالسيد باركر».

«ولا أنا أيضاً»، أكّدت السيدة غارفز، وقفلتا (فلاندرز وغارفز) عائدتين إلى المنزل.

لكن كلماتهما بقيت فترة بسيطة تطفو عبر فضاء المخيّم. ضوء القمر لم يستطع تحطيم أيّ شيء. والمستنقع يتقبّل كل شيء. وظلّ توم كيج يصرخ

قدر ما بقيت شاهدة قبره تحتمل الصراخ. والهياكل العظمية الرومانية ترقد في أمان. كذلك بقيت سليمة إبر خياطة السيدة فلاندرز، مثل دبوس شعرها العقيق. وفي بعض الأحيان، في حمأة الحرّ مع انتصاف النهار، يبدو المستنقع مكاناً أميناً يختزن هذه التحف الصغيرة ويحميها، كممرضة. وعندما ينتصف الليل، حيث يسكت الجميع أو يتوقفون عن العدو، وتهدأ شجرة الزعرور تماماً، عندئذ ليس من الحكمة إثارة حفيظة المستنقع بطرح الأسئلة – ماذا؟ ولماذا؟

على أيّة حال، ها هي ساعة الكنيسة تُعلن تمام الثانية عشرة.

الفصل الثاني عشر

نزل الماء من الميزاب مثل الرصاص – كسلسلة في طرفيها حلقتان فضيتان سميكتان. وابتعد القطار مُخترِقا نجداً منحدراً مُخضوضراً. في إيطاليا شاهد يعقوب زهور توليب مخطّطة، واستمع جيدا إلى غناء العصافير.

على الطريق المنبسطة، مرَّت سيارة محملة بضباط إيطاليين، تتحرك بموازاة القطار، مخلّفة وراءها عجاجاً كثيفاً. الأشجار تنمو على نكهة نبيذ الكرمة – كما قال فيرجيل. كانت المحطة تغصّ بالمودّعين، بينهم كثير من النسوة بأحذية صفراء، وأطفالٌ شاحبون غرباء، يلبسون في أرجلهم جرابات قصيرة ذات حلقات. وكانت نحلات فيرجيل ترتحل عبر سهول لومباردي. فالقدماء اعتادوا أن يزرعوا شجيرات العنب بين أشجار الدردار العملاقة. وعلى سطوح مدينة ميلان صقور ذات أجنحة حادة بنيّة فاتحة وأشكالُ انسيابية.

السيارات الإيطالية تسخُن كثيراً في أشعة الشمس، لاسيما بعد الظُهر. وقد شاءت المصادفات هذه المرة أنّ جنزيرٍ الصدر أخذ يُصدِر صوتاً خشنا لدى إقلاع المحرك، مُنذراً بكسر الصمّام. وبدأ صوت العربة يعلو ويزمجر، كقطار يتجرجر على سكة حديد مكشوفة. وفي البعيد كانت القمم تغطيها الأشجار الناتئة، والقرى البيضاء المذهلة المليئة بالطنف البارزة. وهناك دوما

برج يرتفع فوق القمة بالضبط، وأسقف مزينة بالقرميد الأحمر، تطلّ على منحدر شديد الانحدار. والغريب أنّ قرى الأرياف الإيطالية ليست من النوع الذي تطمع بالتّجول فيه لتناول الشاي. أحد أسباب ذلك أنّك تعدم الأعشاب النَضِرة. وهناك سفوحٌ بكاملها تغطيها أشجار الزيتون. وبحلول شهر نيسان، تعجّ الفرجات بين الأشجار بالتراب الجاف. ولا يظهر فيما بينها ممّر للمشاة ولا آثار خطىً، كما لا توجد دروب مكسوّة بأوراق الشجر، ولا خانات للاستراحة من نمط النزل التي عرفها أهل القرن الثامن عشر، لها شبابيك مقوسّة، وبإمكان العابرين هناك أن يتناولوا فيها لحم الخنزير والبيض. ذلك كله مفقود في القرى الإيطالية. فإيطاليا بلادٌ مسكونة بالقوة، والعراء، مثلما هي موطن للكهنة السود الهائمين في الطرقات. ومن الغريب أنّك لا تجد سبيلاً للهروب من الفيلات.

مع ذلك فالمرء لا يشعر بالانزعاج إذا سافر بمفرده وفي جيبه مئة جنيه ليصرفها. لكن في حال نفدت نقودك، وهو أمر مرجّح، فبإمكانك متابعة الرحلة مشياً على قدميك. في إيطاليا بإمكان المرء أن يعيش على الخبز والخمرة وحدهما – فالقرويون يخزّنون النبيذ في قناني مغلّفة بالقش – ومسافرٌ كيعقوب سينتهي في روما بعد زيارته اليونان. على أنّ حضارة الرومان أقلّ شأناً، بلا شك. وقد تكلم بونامي كثيراً عن الفساد في ذينك البلدين على حد سواء. ويعقوب، بعد عودته قال لبونامي: لا بدّ من زيارة أثينا. وعليك أن تصعد إلى البارثينون»، أو ربّما أخبره أيضاً «أنّ آثار الكوليزيوم مصدر إلهام للأفكار النبيلة»، وهذه أشياء سوف يسجلها يعقوب في رسائله لأمه طبعاً. وما يكتبه يعقوب قد يتحوّل مقالة عن الحضارة. وستكون مجالاً

للمقارنة بين الحضارات القديمة والحديثة، لإبراز الفوارق الدقيقة بينهما وهو ما يذكرنا بالسيد أسكويث – الذي يكتب بأسلوب غيبون.

دخل رجل ضخم الجثة في كثير من الجهد والصعوبة. كان معفّراً بالتراب وتُثقله أكياس منتفخة وسلاسلُ ذهبية. نظر يعقوب عبر النافذة، متأسّفاً لأنه شخصياً لم يكن من أصول لاتينية.

من الغريب أن يفكر المرء بأنّه يبلغ قلب إيطاليا في غضون يومين بلياليها. وهناك تجد الفيلات العرضية محاطة بأشجار الزيتون، ومجموعات من الخدم يسقون النباتات الشوكية. وبين الأعمدة الفخمة تسير عربات سوداء مكشوفة زجاجها الأمامي عليه ستائر بلون الجبصين. وهي على أيّ حال ستائر مؤقتة وتوحي بالدفء إلى حدّ مدهش – لو عرضت أمام المشاهدين الغرباء. كانت هناك تّلة لا تصل قمتها قدم إنسان، لكني تمكنت شخصياً من رؤيتها في وقت متأخر وأنا نازل من البيكاديللي في حافلة عامة. على أنّ ما توجّب أن أتمناه حقاً هو الخروج للتنزّه في السهول، فأجلس فيها وأصغي لأصوات الجنادب، ومن ثمَّ أعود بكمشة تراب – تراب إيطاليا، لأنَّ حذائي كان معفّراً بتراب تلك البلاد.

سمعهم يعقوب في محطات القطارات ليلاً ينادون بعضهم بأسماء غريبة. توقف القطار فسمع نقيق الضفادع قريباً من المحطّة. أزاح الستارة قليلاً بهدوء فرأى في ضوء القمر مستنقعاً كبيراً وغريباً في الجوار، كلّه باللّون الأبيض. كانت العربة مُثخنة بدخان السجائر المحيط بالقبة الكروية التي يعلوها ظلٌ أخضر. كان المسافر الإيطالي معه في العربة يشخر وقد خلع نعليه، وكانت صدريته مفتوحة الأزرار... هذه الرحلة اليونان بدت في نظر

يعقوب كلّها معاناة لا تطاق – حيث الوحدة في الفنادق، وزيارة المعالم الأثرية اليونانية للتفرّج عليها– وكان من المفضل أن يسافر كورنيل برفقة تيمي دورانت.... «أووووه»، زفر في ضيق حيث أخذ الظلام ينقشع أمامه أكثر فأكثر والضوء ينبلج. ورأى كيف مدّ المسافر الآخر يده أمامه باحثاً عن شيء ما – ذلك الإيطالي السمين، بصدريته ولحيته النابتة وقسماته المتغضنة، كان يريد أن يفتح الباب ليخرج ويغتسل.

عندما نهض يعقوب في الصباح الباكر، رأى رياضياً إيطالياً ضعيف الجسم يمشي في الطريق، وبيده مسدس، فأدرك الفكرة من البارثينون بكاملها في رمشة عين.

فكر يعقوب في سره «من الضروري، وحقّ أيوب! ينبغي أن نصل مبكرين البارثينون!» مدّ رأسه من الشبُّاك، فشعر بالهواء يلفح وجهه.

من المثير للسخط أن تجد خمسة وعشرين شخصاً ممن تعرفهم يحدّثونك عن العيش في اليونان حديث اليقين، في حين ثمة ما يمنعك أنت نفسك من التعبير عن مشاعرك، أيّاً كانت. بعد أنْ استحمّ يعقوب بالفندق في باتراس، مشى على خطّ سكة الترامواي لمسافة ميل أو نحوه، وعاد أدراجه ماشياً من الطريق ذاته أيضاً. وخلال ذلك كلّه شاهد بضع مجموعات من طيور الحبش، والكثير من الحمير التي ضلّت طريقها في الزواريب الخلفية. كذلك قرأ يعقوب عدداً من الإعلانات التي ترّوج لمشدّات الخصر، وصلصلة الماجي. وكان الأطفال أثناء تراكضهم ولعبهم يدوسون على رجليه مرة بعد مرة. كان المكان كلّه يفوح برائحة الجبنة الفاسدة. وأخيراً شعر بالسعادة إذ وجد نفسه فجأة أمام الفندق؛ فصعد الدرجات. كانت في الصالة نسخة من صحيفة

الديلي ميل مع مجموعة من فناجين القهوة، فأخذ يقرؤها، وتساءل عمّا يمكن ان يفعله بعد العشاء؟

إنّ من الأسوأ بما لا يقاس أن نبقى محايدين ونراقب من بعيد، كما لو كنّا محرومين من موهبة العيش في الوهم التي أُعطيناها. حين نصبح في سن الثانية عشرة، بعد أن نكون تخلّصنا من التعلّق بالدمى وحطّمنا قطاراتنا البخارية، تكون خيالاتنا المستفيضة مشدودة إلى فرنسا، وربّما أكثر إلى إيطاليا، بل الهند على وجه اليقين تقريباً. لقد اعتادت عمّاتنا زيارة روما. ولكلّ منا عمّ أو خال كان آخر ما عرف من أخباره – ذلك العم المسكين – أنّه في رانغون. وهو لن يعود منها أبداً. لكن الأساطير اليونانية تخلق وتكتمل على يدي المربيات. ويمكنك أن تستشف هذا (كما يقولون) من تأمل رأس اليوناني – فترى الأنف أقنى كما السهم، والشعر مجعّداً، والحاجبين – كلّ شيء متوافق والجمال الذكوري، بينما تتميز الأرجل والأيدي بخطوط تدلُّ على التّطور المكتمل – ذلك أنّ اليونانيين يهتمّون بأجسادهم اهتمامهم بملامح الوجه. اليونانيون بإمكانهم أن يرسموا الفاكهة بإبداعٍ حقيقي، حتى أنّ الطير يشتهي أن ينقرها بمنقاره. عليك أولاً بقراءة زينون، ومن ثمّ يوروبيدس. ويبدو أنّ ما قاله الناس ذات يوم بحقّ – وهذا ما ثبت في أحد المهرجانات – لا يخلو من الصحة: قالوا فتّش عن «الروح اليونانية». فاليوناني هو هذا وذاك، وغيرهما. مع ذلك من العبث، بالمناسبة، أن تقول إنّ اليونانيين كلّهم يرقون مستوى شكسبير. على أيّ حال، ما أريد قوله هو أننا نشأنا في عالم من الوهم.

من المؤكّد أنّ يعقوب كان يفكر بهذه الطريقة، ويده تضغط على صحيفة الديلي ميل. شعر بالضعف في رجليه، وهذه هي الصورة لحالة الضجر عينها.

على أنّ يعقوب ظلّ يفكّر: «لكن هذه هي الطريقة التي تربيّنا عليها».

على أيّ حال، كل شيء بدا في نظر يعقوب بلا نكهة. إذن، لا بَّد من عمل شيء ما بهذا الشأن. ذلك الشعور جعله ينتقل من حالة اكتئاب معتدل، ليصبح مثل رجل يواجه حكماً بالإعدام. وما زاد في الطين بلّة أنّ كلارا دورانت في إحدى الحفلات تجاهلته وتحوَّلت للتَّحدث مع رجل أمريكي اسمه بلتشارد. وحتى في هذا الوقت، هو قد تجشّم عناء السفر إلى اليونان وتركها هناك. كان الجميع في الفندق يرتدون ثياب السهرة، ويتحدثون بأشياء لا معنى لها – ثرثرة فارغة – فمدّ يعقوب يده ليتناول مجلة «غلوب تروتر»، وهي مجلة عالمية توزّع مجاناً لأصحاب الفنادق.

شبكة التراموای في اليونان الحديثة متطورة، برغم تداعي الأوضاع العامة. لذلك كان يعقوب يسمع عربات التراموای تطقطق حتى وهو في غرفته بالفندق، وتطلق صفاراتها: رَنغ، رَنغ، رَنغ، لإجبار الحمير على الابتعاد عن السكة، وتنبيه تلك العجوز التي أبت أن تتزحزح من مكان وقوفها، تحت النوافذ. وهذا يشكل إدانة لكل تاريخ الحضارة.

حتى النادل لم يعبأ بشيء. وما إنْ دخل هذا الرجل المتَّسخ والمتباهي، واسمه أرسطو، الغرفة حتى أخذ يُبدي اهتمامه بجسد الضيف الوحيد الجالس على الكرسي، وكأنّه من آكلي لحم البشر، فأخذ يرتب الأشياء أمامه، ويعدّل وضع غيرها، وكلّ همّه التأكد من أنَّ يعقوب كان لا يزال موجوداً.

قال له يعقوب من فوق كتفه: «سأحتاج لمن يوقظني في الصباح الباكر، حيث إنني سأذهب لزيارة الأولمب».

هذه السوداوية، هذا الاستسلام لمتطلبات الكوابيس السوداء المحيطة، هي بدعة جديدة. ربّما كنّا نفتقد إلى الإيمان حدّ بعيد، كما يعتقد كروتندن. وفي الحالات كلّها، كان لا بَّد لآبائنا من تدمير شيء ما. لذلك تساءل يعقوب: ألهذا السبب جعّده وجريدة الديلي ميل بيده؟ يعقوب ينوي زيارة البرلمان، وإلقاء خطب بليغة هناك – لكن ما فائدة البرلمانات، وما نفع الخطب البليغة فيها ما دُمتَ قد استسلمت ولو قليلاً للظروف القذرة؟ يقيناً، ليس هناك من تفسير لعملية انحسار الدَّم وتدفُّقه في عروقنا – لا تفسير للسعادة والبؤس. إنّ الشعور بالاحترام في الحياة وإقامة الحفلات المسائية التي تجعل المرء يرتدي أفضل ثيابه، ووجود الأحياء القصيرة خلف فندق غراي بالمقابل – كأشياء ثابتة وغريبة ولا سبيل للخلاص منها– هي برأي يعقوب في صميم الموجبات لما نراه ونشاهده في الواقع. لكن الشيء الذي بدأ يوقع يعقوب في حيرة فكانت الامبراطورية البريطانية. يعقوب لم يكن كلّياً مع إعطاء إيرلندة كامل استقلالها. فما هو رأي الديلي ميل؟

اليوم أصبح يعقوب رجلاً ناضجاً، وعلى وشك الانخراط في صلب الأمور وإدراكها بوعيه – مثل الخادمة المسؤولة عن تنظيف المغسلة في الدور العلوي وتفقد المفاتيح وأزرار الزينة كلها والقناني والأشياء المنثورة على طاولته.

مسألة نضوج يعقوب تدركها فلورندا كما تدرك الأشياء الأخرى كلها، بغريزتها.

الشخص الوحيد الذي لا تزال تساوره الشكوك حتى اللحظة فيما يتعلق بتطور شخصية يعقوب هي أمه، بتي فلاندرز. حين قرأت رسالته التي بعثها لها من ميلان اشتكت للسيدة غارفيز وقالت: «إنّه يخبرني بما لا يروق لي سماعه»، لكنّها سكتت عن حقيقة ما تشعر به.

أمَّا فاني إلمر فقد أصابها ذلك باليأس. واستذكرت كيف أنّ يعقوب اعتاد أن يحمل عصاه وقبعته ويتمشّى حتى النافذة، ويبدو متجهماً وشارد الذهن.

وكان يقول «أنا خارج، لتناول الطعام مع بونامي».

وتصرخ فاني وهي تمرّ مسرعة من أمام مستشفى فاونلنغ: «على أيّ حال، سأُغرق نفسي في التيمز».

«لكن الديلي ميل ليست موثوقة»، خطر ليعقوب، لذلك راح يبحث عن شيء آخر يقرؤه. تنهّد بحسرة للمرة الثانية بسبب شدة اكتئابه، إذ أنّ السوداوية لا بدّ أنّها صارت جزءاً من طباعه، وقد تطغى عليه في أيّة لحظة، الأمر الذي يعدّ غريباً بالنسبة إلى رجل يملك كل هذه الإمكانيات، وهو رجل يرى بونامي أنه لم يكرس نفسه للتحليل المعمق، بل كان رومانتيكياً محضاً بكلِّ تأكيد، وهو في غرفته في فندق لنكولن.

في الواقع، تفكير بونامي ذهب أنَّ «هذا الرجل سيقع في الحُبّ. سيحب امرأة يونانية ذات أنف أقنى».

وبونامي - الذي لم يقع في حب امرأة ولم يقرأ حتى ولو كتاباً سخيفاً في حياته - بنى قناعته على أساس أنّ يعقوب كتب رسالته وبعثها له من مدينة باتراس.

لكن الكتب القيّمة لم تكن متوفرة كثيراً، إذ لا يمكن الاعتماد على وفرة الكتب التاريخية، ولا قصص السفر في عربات تجرّها البغال لاكتشاف أعالي نهر النيل أو موهبة النبوغ في الأدب.

بالنسبة إلي أنا أفضّل الكتاب الذي يمكن تلخيص محاسنه في صفحة أو صفحتين. وأُحبّ العبارات التي لا تتزحزح حتى أمام الجيوش العارمة. أُحبّ الكلمات التي تحافظ على صلابتها – كآراء بونامي، وهي الكلمات التي جلبت له عداوة الذين تتجه ذائقتهم لاستقبال إشراقة الصباحات الجديدة، أولئك الذين يشرعون نوافذهم فيكتشفون أنَّ نبات الخشخاش ينمو في أشعة الشمس، ولا يحجمون عن رفع عقيرتهم بالصياح احتفاء بخصوبة الأدب الإنجليزي المذهلة. وهذا ليس أبداً هو أسلوب بونامي. فذائقة هذا الرجل، بونامي، في مجال الأدب أثرت كثيراً في صداقاته، وجعلته يميل دائماً الصمت، ومتحفظاً، وشديد الحساسية، ولا يكون لطيفاً وهادئاً إلا في حضرة شخص أو اثنين من الشباب من يفكرون بطريقته، وهنا مقتله وموضع إدانته.

لكن أسلوب يعقوب فلاندرز في التفكير لم يكن أبداً كطريقة بونامي – كان بعيداً جداً من أسلوب صديقه، وهذا ما جعل بونامي يتنهد في حسرة، وهو ينظر الأوراق التي أمامه على الطاولة، ويغرق في تفكير معَّمق لشخصية يعقوب، وإنْ لم تكن هذه ليست هي المرة الأولى التي يجلس فيها ليتأمّل.

بونامي خرج بنتيجة هي أنّ مشكلة يعقوب تكمن في ميله الرومانتيكي، وهي رومانتيكية «مشوبة بحماقة تقود يعقوب إلى هذه الورطات السخيفة. «من المؤكَّد أنّ هناك شيئاً ما – مشكلة بعينها عنده» – هذا ما قرره بونامي وهو يتنهّد، لأنّه كان يحبَّ يعقوب أكثر من أي إنسان في هذا العالم.

دسَّ يعقوب يديه في جيوبه ومشى النافذة. لفت انتباهه ثلاثة يونانيين يرتدون تنانير ذات ثنيات (كالتي كان يلبسها الجنود الإنجليز). وكانت

هناك سفنٌ شراعية، وعمّال يتسكّعون أو يقومون بأعمال روتينية، يتمشون أو يتحركون في خفة، أو كانوا يتوزّعون مجموعات ويؤشرون بأيديهم. لكن عدم اهتمام هؤلاء جميعاً بيعقوب لم يكن هو ما بعث فيه الكآبة. كآبة يعقوب كانت نتيجةً لقناعة أعمق من ذلك – ولم تكن بسبب أنّ المصادفات دعت إلى بقائه وحيداً، فالناس كلّهم يعانون من الوحدة.

مع ذلك، في اليوم التالي كان القطار الذي يقلّه إلى أولمبيا يدور ببطء حول التلة، فشاهد الفلاحات اليونانيات في طريقهن إلى كروم العنب، بينما يجلس الرجال على أرصفة المحطّات ويتلذّذون بالنبيذ الحلو. وبرغم أنّ شعور يعقوب بالكآبة لم يتوقف قطّ، لكنَّه كان على ثقة بأنَّ وحدته كانت السبب في إحساسه الغامر بالرضا. كان وجوده خارج إنجلترا، وبمحض إرادته، هو ما وضع حدّاً متاعبه كلها. كانت الطريق إلى أولمبيا مليئة بالتلال الجرداء ذات التضاريس الناتئة، التي يمكن من خلالها أن تشاهد سطوحاً مائية مثلثية الأشكال. وهي إلى حدّ ما كمشهد كورنيش الشاطئ. والآن، كان على يعقوب أن يتخبَّط طوال النهار وحيداً – حتى يصل الطريق غير المعبدة ويتابع سيره بين الشجيرات – أم أنها كانت أشجاراً صغيرة؟ - لبلوغ قمة ذلك الجبل التي يمكن منها أن ترى نصف أراضي العالم القديم...

«أجل»، ردّد يعقوب، حيث كان بمفرده في عربة القطار، «دعني أراجع الخريطة». إنَّ من الواضح أنّ فرساً جموحاً يسكننا، سواء قبلنا أم لا. الفرس في داخلنا يحثّنا على الركض المجنون، أن نقع منهكين على الرمل، فنشعر بأنّ الأرض تدور بنا وتدور – ونظلّ نغذُّ السير – بموافقتنا– لتكوين علاقات

صداقة مع الحجارة، مع أعشاب البراري، وكأنَّ الإنسانية قد تلاشت. فليذهب الناس كلّهم إلى جهنم – ذلك أنّه من الصعوبة بمكان أن نقفز على حقيقة أنّنا غالباً ما نكون رهينة هذه الرغبة الجارفة فينا (الهيام بالطبيعة).

هبّت ريح خفيفة في المساء، اهتزّت لها الستائر القذرة على شبابيك الفندق في جبل أولمبيا.

هجست السيدة وينتوورث وليامز وهي جالسة هناك: «قلبي يشتعل حبّاً لكل الناس – لاسيما الفقراء– للفلاحين الذين يعودون في المساء وهم يئنون تحت أحمالهم. الأشياء بسيطة ويلفّها الغموض والأسى القاتل. وهذا شيء محزن، محزن حقاً. لكن كلّ شيء بحدّ ذاته ينطوي على معنى ما». هذا بالضبط ما خطر على بال ساندرا وينتوورث وليامز، وهي ترفع رأسها قليلاً، فبدت بارعة الجمال، ومثيرة ورائعة. ثم فكّرت أيضاً بأنّ «على المرء أن يمحض حبه كلّ شيء».

تناولت ساندرا كتاباً صغيراً يمكن حمله وقت السفر – مجموعة قصص لتشيخوف – ووقفت بوشاحها وثوبها الأبيض عند شباك الفندق في أولمبيا. يا لروعة ذلك المساء! وكأنَّه يستمد جماله من بهائها. التراجيديا اليونانية هي تراجيديا جميع ذوي النفوس النبيلة جميعهم. التراجيديا مُصالحة لا بدّ منها مع الحياة. وهنا بدت ساندرا وكأنّها وضعت يدها على فكرة مهمة. لا بدّ لها إذنان تدوّنها. مشت المنضدة، حيث يجلس زوجها وبيده كتاب يقرؤه. احتضنت ذقنها براحتيها، وأخذت تُفكّر في أوضاع الفلاحين، في نظام القنانة، وجمالها الشخصي والمصالحة الحتمية، كما فكرت كيف

ستسجل هذه الأفكار كلها. اقتربت من زوجها، السيد إيفان وليامز، وأطبقت الكتاب الذي يحمله وألقته جانباً، لتخلي مكاناً لطبقي الحساء الذي يجمعهما على الطاولة.بقي السيد إيفان وليامز صامتاً، ولم يقل عبارة قاسية أو مبتذلة أو سخيفة. وحدهما عيناه المتهدلتان كعيني سلوقي صيد، ووجنتاه الضعيفتان كانت تعكس مشاعر الكآبة المتسامحة التي تلمّ به، كما تعكس قناعته بأنَّه على الرغم من اضطراره للعيش بشيء من الاحتراس والمداورة فإنّه ربّما لن يكون قادراً على تحقيق تلك الأشياء التي يُدرك أنّها الوحيدة التي تستحق منه العمل لتحقيقها. كان تفكير هذا الرجل سليماً، وصمته لا يعرف الوهن.

قالت ساندرا: «يبدو أنّ هناك معنىً كبيراً لكل شيء». ويبدو أنّ جرس صوتها ذاته قد قطع «السكرة وأحلَّ بدلها الفكرة». نسيت الفلاحين. ولم تعد تفكّر إلا بجمالها. ولحسن الحظ كانت هناك مرآة أمامها.

فكرت وهي تنظر في المرآة: «يا لي من جميلة رائعة».

أزاحت قُبعتها قليلاً. لاحظ زوجها حركاتها قُبالة المرآة. بدا موافقاً على أنّ الجمالَ أمرٌ مهم، وأنَّه بكل تأكيد تركة يمكن توريثها. لكنَّ الجمال قد يكون عائقاً، ومصدراً للضيق. أخذ يشرب حساءه، وعينه لا تحيد عن النافذة.

قالت السيدة وينتوورث وليامز بفتور غامض: «أظنُّ أنّها طيور حجل. وكذلك تيس، ومن ثمّ...».

ردّ الزوج بفتور مماثل، بعد أن أبعد من فمه القشة التي كان ينقّب أسنانه بها: «كاستر الكراميل، فيما أعتقد».

وضعت ملعقتها على طبقها المملوء حتى نصفه حساء. فالسيدة ساندرا وينتوورث تتصرف بكثير من الوقار، جرياً على الطريقة الإنجليزية المتجذّرة أيضاً في أعماق اليونانيين، وإنْ تناساها القرويون اليوم، على الرغم من أنَّها لا تزال سلوكاً مرعيّاً بين الكهنة في مقرهم. وكان الجنائنيون بمختلف صنوفهم يقفون احتراماً لساندرا حين تنزل وتتمشّى على المصطبة الواسعة صباح أيام الأحد، حيث تلهو بعض الوقت مع رئيس الوزراء، وتقطف وردةً من إحدى الجِرار الحجرية – وهذا ما تحاول الآن نسيانه ربّما، لانشغالها بملاحظة جنبات غرفة الطعام في الفندق بأوليمبيا، ومحاولتها معرفة أي نافذة كانت قد وضعت كتابها فيها، فاكتشفت منذ دقائق قليلة شيئاً ما – شيئاً كان له عميق الأثر فيما يتعلق بالحُبّ والحزن وبالفلاحين.

لكن الذي تنهد هذه المرة كان زوجها، ليس بدافع اليأس، وليس احتجاجاً بكل تأكيد. فإيفان كان أبعد الرجال طموحاً، وأكثرهم كسلاً بطبيعته، ولهذا فلم يحقّق شيئاً، وهو الذي يعرف تاريخ بريطانيا السياسي بتفاصيله. ولأنّه عاش في عالم شاتام، وبيت، وبيرك، وتشارلز جيمس فوكس فهو لم يستطع تجنّب التشبه بهم ومقارنة زمانه بزمانهم. وقد اعتاد أن يردّد مقولته: «ومع ذلك لم يحدث أن كان التاريخ بحاجة إلى رجال عظماء أكثر من حاجته اليوم»، ويتنهد. وها هو الآن ينظف أسنانه بعود، هنا في أحد فنادق أوليمبيا. وقد فرغ من ذلك، لكن عيني ساندرا كانتا تبحثان عن شيء هنا وهناك.

قال إيفان فجأة بكآبة: «من المؤكد أنّ تلك البطيخات الوردية خطرة، وما كاد ينهي عبارته حتى فتح الباب، ودلف منه شاب ببذلة رمادية مخطّطة.

وقد ردّت ساندرا على زوجها مباشرة أمام الشاب الزائر: «صحيح. هي جميلة لكنها خطرة»، (وهجست في نفسها «من المؤكَّد أنّه شاب إنجليزي يقوم بجولة سياحية»).

وهذا أيضاً ما فهمه إيفان نفسه بملاحظة هيئة ذلك الشاب.

أجل. إيفان أدرك ذلك كلّه. وكان معجباً بزوجته. وخطر له أنّها امرأة ممتعة للغاية، وجديرة بالعلاقات مع الناس. لكن إذا تكّلمنا عنه شخصياً، فما المشكلة في أنّه غير طول القامة (وتذكر أنّ نابليون كان طوله خمسة أقدام وأربع بوصات)، وما مشكلة بنيته، بصرف النظر عن عجزه في فرض شخصيته؟ (فخرجت من صدره زفرة حرّى وفكّر بمقولته المأثورة بأنَّ «التاريخ لم يحدث أن كان بحاجة إلى عظماء أكثر من حاجته لهم هذه الأيام»). رمى إيفان عقب السيجارة، ونهض مرحباً بيعقوب. ثم سأله ببساطة تعكس صدق طويته وأثارت إعجاب يعقوب ما إذا كان قد وصل الآن مباشرة من إنجلترا.

«إنّه إنجليزي في الصميم!»، قالت ساندرا وهي تضحك، حين أخبرهم النادل في اليوم التالي أنّ ذلك الشاب غدا مبكراً في الخامسة صباحاً جبل أولمبيا. فقالت للنادل «أنا متأكدة أنّه طلب منك أن ترشده إلى الحمّام». فهزّ النادل برأسه موافقاً، وأفادها أنّه سأل مدير الفندق عن ذلك.

قالت له ساندرا: «أنت لم تفهم قصدي»، لكن لا بأس».

استلقى يعقوب على قمة الجبل وحيداً، فكانت متعة غامرة. كان سعيداً حقاً كما لم يعرف من قبل.

على العشاء تلك الليلة سأله السيد إيفان وليامز ما إذا كان يريد قراءة الصحيفة. وبدورها سألته السيدة وليامز (وهما يتمشيان ويدخّنان على المصطبة – وهل كان بإمكانه أن يرفض قبول السيجار الذي قدمها لزوجها؟)، ما إذا كان قد حضر عرضاً مسرحياً في ضوء القمر، وإذا كان يعرف إدوارد شيربورن، وما إذا كان درس اللغة اليونانية، وأي من الأدبين الفرنسي أم الروسي سيختار لو خُيّر بينهما؟ (وفي هذه الأثناء نهض إيفان على مهل ودخل إلى الغرفة).

«والآن يا صديقي»، كتب يعقوب في رسالته بونامي، «يتوجب علي أن أقرأ كتابها اللعين» – وهي مجموعة قصص لتشيخوف، كانت قد أعارته ليعقوب.

يقيناً، إنَّ ما سأقوله فيما يلي لا يحظى بقبول واسع النطاق، لكن ربّما كانت الأماكن الجرداء، الجزر المليئة بالصخور حتى تتعذر فلاحتها، وتلاطمها مياه المحيط في منتصف المسافة بين إنجلترا وأمريكا، أكثر ملاءمة لحياتنا من هذه المدن الضيقة.

فثمَّة شيء مطلق في داخلنا يرفض القيود. ذلك الشيء هو الذي يحاصره المجتمع بأسئلته ويلفه. حين يجتمع الناس في غرفة، فيبادر أحدهم بالقول لآخر «يسعدني جداً أن ألتقي بك». هذا نفاق. وقد يضيف بعد ذلك «أنا شخصياً يبهجني الربيع أكثر من الخريف الآن. في اعتقادي أنّ هذا ما يحدث للإنسان عندما يتقدّم بالسن». والنساء بخاصة لا يتوقفن عن الكلام العاطفي حصراً، المشاعر هي طعامهن وشرابهن. وحين تقول لك المرأة «عندما يتقدّم بالسن»، فإنّها بذلك تدفعك للرد بشيء بعيد جداً عن الفكرة المطروحة.

جلس يعقوب وحده بين حجارة المقلع التي كان الإغريقيون يستعملونها لبناء مسارحهم. إنّ الصعود قمم التلال اليونانية في منتصف النهار أمرٌ مجهد تماماً. سفوح تلك التلال لا تنمو عليها نباتات مثل بخور مريم، بل أشجار. وكان يعقوب يستمتع بمراقبة السلاحف الصغيرة وهي تنتقل بتثاقل من شجرة أخرى. كان الهواء ساعتها شديداً لكنّه ما لبث أن أصبح لطيفاً فجأة. والشمس تسطع بشدة على صفحات الصخور الناتئة ذات الأشكال المثلّثة فتُبهر العيون. في هذا الجو القاسي جلس يعقوب متماسكاً رابط الجأش، وعلى ذرا شفتيه ابتسامة مرّة، فيما عكست ملامحه شيئاً من الكآبة المتسببة من حرارة آب اللاهبة، فراح يتلهّى بمتابعة دخان غليونه.

لو كان الأمر لبونامي لاعتبر ذلك ضرباً من الأسباب المثيرة للقلق - فالاكتئاب جعل يعقوب يبدو أشبه بصياد «مارغريت» الكسول، أو مثل أدميرال في القوى البحرية الإنجليزية. ويعقوب حين تلمّ به حالة مزاجية كهذه يصبح من الصعب إقناعه بأي شيء. من الأفضل في هذه الحال أن يُترك وشأنه. وباختصار كان يعقوب شاباً مُضجِراً. كان إنساناً أميل إلى النكد.

استيقظ يعقوب باكراً. أخذ يتأمل صور التماثيل في كتابٍ للإرشاد السياحي.

قبل تناول الفطور أرخت ساندرا وينتوورث وليامز العنان لخيالها ليجوب أنحاء الدنيا، بحثاً عن مغامرة أو فكرة ملهمة. ساندرا وليامز لم تكن طويلة القامة، لكن ثيابها البيضاء جعلتها تبدو ممشوقة القوام بشكل غير عادي. تصوّرت في ذهنها أنّ عقل يعقوب ليس أقل من عقل هرمس،

ابن براكستيلز، وهي مقارنة تصبّ في مصلحته. لكن يعقوب غادر المتحف وترك ساندرا هناك قبل أن تتمّكن حتى أن تتفوه بكلمة واحدة معه.

وبالرغم من كل شيء، فهذه السيدة المهتمة بالموضة تسافر عادةً وفي حقيبتها أكثر من ثوب واحد. فإذا كان الأبيض مناسباً لساعات الصباح، فربّما كان الأصفر الرملي المبقع باللون الأرجواني مع القبعة السوداء هو الأفضل لسويعات السهرة، لاسيما أنّها تحمل نسخة من قصص بلزاك. بهذه الاستعدادات جلست ساندرا على الشرفة، فجاء يعقوب. بدت ساندرا خارقة الجمال. كانت تبدو بيديها المكتوفتين أنّها غارقة في التفكير، وكأنها تُصغي إلى ما يقوله زوجها، وتراقب الفلاحين العائدين بيوتهم وعلى ظهورهم أحمال الحطب، أو كانت تتأمّل كيف تتحوّل السفوح من الأزرق العادي إلى الداكن، علّها تستنتج الفارق بين الحقيقة والباطل. جلس يعقوب هناك وصالب رجليه، لإخفاء شكل سرواله المتهرىء.

وفي نفسها قالت ساندرا «إنّ ليعقوب شكلاً مميزاً جداً.

كان زوجها، إيفان وليامز، يرمقهما بغيرة واضحة، وهو متّكئ للخلف في مقعده، والجريدة على ركبتيه. لعل أفضل ما يمكن للسيد وليامز عمله هو نشر دراسة عن السياسة الخارجية لمؤسسة شاتام، بالتعاون مع دار مكميلان. والحال هذه، فقد راح يلعن هذا الشعور الطنّان الذي يعاني منه – هذا القلق، والانتفاخ، والحماسة - إنّها الغيرة! أجل، الغيرة! تلك المشاعر التي كان قد أقسم بالتخلّص منها مرة و إلى الأبد.

نهض ووقف إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه يعقوب، وسأله بحماسة غير معهودة: «هل سترافقنا كورينث، يا عزيزي فلاندرز». وأحسَّ بأنه مرتاح لردّ يعقوب، وحُسن تصرفه الثابت والمباشر ولطبيعته الخجول أيضاً.

وبناء على ذلك تأكّد لإيفان وليامز أنّ «هذا الرجل ضليع بأمر السياسة تماماً.

في رسالته بونامي كتب يعقوب «لن أتوانى عن زيارة اليونان سنوياً طالما بقيت حيّاً. بلاد اليونان هي المكان الوحيد الذي يتيح للإنسان تحصين نفسه ضد أمراض الحضارة».

قرأ بونامي هذه الكلمات، فتنّهد وقال: «السّماء وحدها تعلم ما الذي يقصده يعقوب بهذه العبارة». بونامي لم يكن معتاداً على الأشياء الغامضة، وبالتالي من حقّه أن يستشعر الخوف من عبارات يعقوب الملتبسة على عقله. لذلك، فقد نذر نفسه أبداً لتوخي الوضوح، لما هو ملموس وعقلاني.

وبالمناسبة، لا يمكن للمرء أن يجد أبسط من كلمات ساندرا، تلك التي قالتها أثناء نزولها من أعلى جبل كورينث، حيث مشت في الدرب الضيق، بينما رافقها يعقوب في الجانب الوعر من الدرب، بخطوات مرتبكة. وللعلم، ساندرا كانت فقدت أُمّها وهي في الرابعة من عمرها، لكنّها تحمّلت مشاقّ الحياة وصعابها.

قالت ليعقوب: «ما كنت أظنُّ أن أتمكّن من النجاة بحياتي»، وضحكت. ولا شكَّ في أنّها كان لديها مكتبة الصديق العزيز جونز، وظروف الحياة. وهكذا أخبرته عن نشأتها، فقالت: «كنت أترك لنفسي حريّة العمل في المطبخ، والجلوس على ركبة كبير الخدم» وضحكت ثانية، وإنْ بشيء من المرارة هذه المرة.

فكّر يعقوب أنّه لو كان موجوداً معها لتولّى حمايتها. وشعر أنّ حياتها تلك كانت تحيق بها أخطار لا تحصى. وبالتالي فكّر في داخله: «ليس بوسع الناس فهم امرأة تتكلّم بهذه الطريقة».

ابتعدت ساندرا قليلاً من السفح الوعر. وقد رآها يعقوب ترتدي سروالاً قصيراً تحت تنورتها القصيرة.

فكر يعقوب في سرّه «النساء الأخريات من أمثال فاني إلمر لا يرتدين هذه الأشياء، كما لا تلبسها أيضاً تلك الفتاة المدعوة كارسليك. مع هذا فهن يتظاهرن...».

لكنَّ السيدة وليامز تقول كلاماً مباشراً. وقد تعجّب يعقوب من دقّة معرفته شخصياً بأصول السلوك، و أي حدّ يمكن للإنسان أنْ يتكلم أكثر مما يفكر، وكيف للإنسان أن يكون صريحاً مع المرأة، كما تعجَّب بمدى قلّة معرفته بنفسه قبل الآن.

لحق إيفان بيعقوب وساندرا في بعض الطريق. وساروا ثلاثتهم فكانوا يصعدون تلة وينزلون أخرى (لأنَّ أرض اليونان ليست مستوية دائماً، مع أنّها واضحة المعالم، وقليلة الشجر جداً، حتى يمكنك أن ترى الأرض من بين الأوراق. في بلاد اليونان كلّ تلة مقطوعة ومكتملة تماماً، وقلّما تنعكس تضاريسها الخاصة في مياه البحر الزرقاء الغامقة المتلألئة، كونها تتكوّن من مجموعة كبيرة من الجزر ذات الرمل الأبيض. لكن ذلك لا ينفي وجود بعض مجموعات من شجر النخيل التي تنتشر هنا وهناك في الوديان، وترعاها الماعز، جانب بقعٍ متفّرقة من أشجار الزيتون الصغيرة،

وعددٍ من الفجوات البيضاء الموروبة، والتي تنعكس الأشعة في جنبات تلك الأماكن). كان السيد إيفان يجلس مكروباً في ركن العربة المتحرّكة صعوداً وهبوطاً، وكفّه متوترة، كما يظهر من انشداد الجلد بين مفاصل أصابعه، ومن شعر يديه الواقف. وكانت ساندرا تجلس قبالته، متوثّبة، مثل معبد «فكتوري» يتهيأ للطيران.

قال إيفان في نفسه (وهو محض افتراء): «يا لكِ من امرأة عديمة القلب!»

أضاف متشككاً في داخله (وهذا افتراء أيضاً): «وعديمة العقل»!

«وباردة...!»، هجس بداخله في غيرة قاتلة تجاهها.

قبل أن يحين وقت النوم ليلاً، وجد يعقوب صعوبة في الكتابة بونامي.

يعقوب لم يزر سلاميس وماراثون لكنّه شاهد هاتين المدينتين من بعيد. بونامي، يا لك من عجوز طيب!

لكن لا. كان ثمّة شيء غريب في أمر يعقوب. فهو لا يستطيع الكتابة بونامي.

وأخيراً حسم أمره فحدث نفسه: «سأزور أثينا على الرغم من كل شيء». بدا منشرحاً جداً للصنارة التي تشدّه من خاصرته.

كان الزوجان وليامز قد زارا أثينا منذ وقت قريب.

إنّ مدينة أثينا لا تزال قادرة على جذب أنظار الشباب كأغرب تجّمع حضري، كمكان يضم أكبر تشكيلة من الأشياء معاً. فهي مرة ضاحية، وهي

مرة أخرى مدينة خالدة. في بعض الأحيان، تُعرض في المدينة تشكيلة من الجواهر العالمية الرخيصة على أطباق مبطّنة بقماش مخملي، وفي أحيان أخرى تنتصب كامرأة ترتدي تنورة مشمّرة ما فوق الركبتين. ويعقوب حين يتمشّى بعد ظهر يوم لاهب في الجادّة الباريسية، لا يمكنه أن يحددّ أي شكل من أشكال المدينة يلتصق بمشاعره، وهو يبتعد مفسحاً المجال للعربات الملكية الرباعية التي تبدو متداعية وتعبر الشارع بجلاجلها الرنّانة، فيقف الأهالي من الجنسين لتحيّتها، بثيابهم الرخيصة وقبعاتهم السوداء المستديرة وأزيائهم الأوروبية، حتى وإنْ مرَّ أحد الرعيان على مسافة قريبة منها لابساً تنورته الإنجليزية وطاقيته وطماقي ساقيه، وسائقاً عنزاته بين تلك العربات الملكية. وأبداً يبقى الأكروبوليس شامخاً هناك فوق سقف المدينة كموجة عملاقة لا تتزحزح، وتبقى أعمدة البارثينون الصفراء راسخة في وقفتها على سطحه.

وهكذا تبقى أعمدة البارثينون الصفراء فوق الأكروبوليس مرئية طوال النهار. عند غروب الشمس، تُطلق البواخر في خليج بيرايوس نيرانها فيسمع قرع جرس، ويظهر موظف بلباسه الرسمي (صدريته غير مزرّرة). عند ذلك تتوقف النسوة عن حياكة الجوارب السود التي يشتغلنها في ظلِّ تلك الأعمدة، وينادين أطفالهن، فينزل الجميع عن سفح التلّة عائدين إلى بيوتهم.

وها هي أعمدة المبنى والقوصرة ومعبد النصر والإيركتيوم مع ظلالها، تقف راسخة في أمكنتها على جرفٍ صخري، فإذا ما بادرت صباحاً وفتحت نافذتك وانحنيت منها لإلقاء نظرة، فلا بدّ أن تسمع ضجيج الأشياء وفرقعة السياط، في الشارع تحت. وكل شيءٍ هناك في مكانه.

وتُدهشك تلك الدقّة المميزة لمظهر هذه الآثار متغيرة الألوان، بيضاء لامعة حيناً، وصفراء أحياناً، وقد تبدو حمراء في بعض الأوقات، وهي دقّة تفرض انطباعات عن أزليّة الأفكار، وعن انبثاق طاقة روحية من جوف الأرض، طاقة تتبددّ عادةً في أماكن أخرى عبر معابثات طريفة. لكنّ هذه الأفكار عن الديمومة تبقى منفصلة تماماً عن إعجابنا. ومع أنَّ جمال المشهد مُترَع بكثير من الإنسانية التي تُعجزه عن إضعافنا، تعجزه دون تحريك ما تراكم من غبار كثيف في حياتنا – الذكريات والتنازلات والاعتذارات والتضحيات العاطفية – فإنَّ البارثينون يبقى مستقلاً عن ذلك كلّه. فإذا ما فكّرت كيف أمكن لهذا الصرح أن يتحدّى الليل بطوله كل هذه القرون، فإنّك ستبدأ بالربط بين الحرارة اللاهبة (حيث يصل التوهّج أقصى مداه في الظهيرة، حتى تكاد تحجب الطنف)، وبين فكرة الجمال الذي قد يتّصف وحده بالخلود.

ولو أنكّ وازنت بين البارثينون بهيكله الراسخ في صمت كإنجاز فني مدهش ورائع بحق وبين النقوش الجصيّة النافرة، وأغاني الحب الجديدة المثيرة لجعلها تأتلف وألحان الغيتار والغراموفون، فإنَّ البارثينون يبدو هو الأقدر على مقاومة عاديات الزمن برغم الحيف الذي لحق به، وهو الأطول عمراً من وجوه الشارع المتغيرة وعديمة الأهمية، وربّما من هذا العالم كلّه.

وقف يعقوب أمام ذلك المشهد، مستخدماً أصابعه اتقاءً لوهج الشمس وقال: «إنَّ اليونانيين كالناس العارفين كلّهم، لم يكلّفوا أنفسهم مشقّة استكمال المساحات الخلفية لمنحوتاتهم»، تاركين للنّاظر إدراك أنَّ الجانب غير المرئي من تلك المنحوتات لا تزال غير مكتملة.

لاحظ يعقوب أيضاً ذلك التنافر البسيط تقريباً في خطوات العمل الذي «جعل الإغريق منحازين لتفضيل الذّوق الفني في أعمالهم النحتية على الدقّة الرياضية»، تبعاً لما قرأه يعقوب في الدليل الذي يحمله.

وقف يعقوب في النقطة المناسبة تماماً، تلك التي كان يحتلها عادة تمثال الإلهة العظمى أثينا، لتعيين المعالم الأكثر شهرة للمشهد تحته.

وببساطة، كان يعقوب دقيقاً ومجتهداً، لكنَّه مفعم بالكآبة. فضلاً عن ضيقه ذرعاً بالأدلّاء، كما حدث يوم الأحد.

ويوم الأربعاء بعث برقية بونامي يطلب منه أن يوافيه فوراً إلى أثينا، لكنّه ما لبث أن مزق البرقية ورماها في سلة المهملات. لماذا؟

كانت فكرة يعقوب أنَّ «بونامي لن يأتي لسبب وحيد، وأخشى أن يكون هذا عبئاً ثقيلاً، يكمن في شعور متعب، الشعور بالأنانية – يأمل المرء أن يتلاشى»- لكن اتَّضح أنّه يتزايد صعوبة حدّ شبه مستحيل... «وإذا ما طال هذا الوضع أكثر فلن أكون قادراً على تحمله – لكن لو أنَّ أحداً غيري كان يراه في الوقت عينه – وبونامي قابع في غرفته بفندق لنكولن – فرضاً، فأقول لعن الله ذلك الشيء» – أعني لو رأى منظر هيميتوس، وبنتليكوس، ولاكبيتوس من ناحية والبحر من ناحية أخرى، كما يبدو من البارثينون عند الغروب، حيث تتورَّد صفحة السماء، ويكتسي السهل ألواناً شتى، سُمرة الرخام المُصفَر كما يراه أحدهم، فسيكون منظراً مؤثّراً. من حسن الطالع أنَّ يعقوب لم تكن لديه فكرة عن التَّداعي الشخصي، فهو قلَّما كان يفكر بأفلاطون أو سقراط بحدّ ذاتهما. لكنه في المقابل كان لديه إحساس عالٍ بفنِ المعمار. فيعقوب يفضل التماثيل على الصور، لذلك أخذ

يطيل التفكير بمشكلات الحضارة التي وجد لها الإغريق القدماء حلاًّ مميزاً بكلِّ تأكيد، على الرغم أنَّ حلولهم تلك لا تعنينا البتَّة اليوم. حين اندسّ يعقوب في فراشه مساء الأربعاء خطرت له فكرة مفاجئة، فأخذ يتقلّب بشيءٍ من الفوضى، إذ تذكر ساندرا وينتوورث وليامز التي وقع في حبّها.

في اليوم التّالي صعد بنتليكوس.

وفي اليوم الثالث غدا مبكّراً الأكروبوليس، فوجد المكان شبه خالٍ، ربَّما بسبب الرعد، مع أنَّ الشمس تصبّ حممها على الأكروبوليس.

كان في نية يعقوب أن يخلو بنفسه ليقرأ. فعثر على لوحٍ رخامي في مكانٍ ملائم لمتابعة سباق الماراثون، ومظلَّل في الوقت عينه، فجلس وأطلَّ منه على الإريكثيوم الصامد تحت الشمس. فتح كتابه وقرأ صفحة واحدة، ثم علّم بإبهامه العبارة التي تقول: لماذا لا تحكم الدول بالطريقة التي ينبغي أن تحكم بها؟ ثم استأنف القراءة.

مما لا شك فيه أن جلوسه في ذلك المكان المشرف على ميدان سباق الماراثون، ألهب خيال يعقوب، ووسَّع أفق تفكيره. أم تُرى أنّ سفراته الخارجية أكسبته خبرة جيدة في مجال التفكير السياسي؟

سرح ببصره بعيداً لمشاهدة التضاريس الحادَّة، فغرق في تأملاته. فكر بأنَّ اليونان قد ماتت، وأنَّ البارثينون أصبح أثراً بعد عين. أمَّا هو، يعقوب، فموجود حتى اللحظة.

(مرّت عبر المكان مجموعة سيدات حاملات مظلّات ملونة بالأخضر والأبيض–فرنسيات في طريقهن إلى القسطنطينية للالتحاق بأزواجهن هناك).

عاد يعقوب إلى كتابه وقرأ قليلاً. لكنَّه سرعان ما وضعه على الأرض وأخذ في الكتابة، وكأنّه استلهم شيئاً مما قرأ. كانت الملاحظة التي كتبها تتعلّق بأهمية التاريخ – عن الديمقراطية – كإحدى المسائل الحيوية لبناء حياة الناس. وقد تسقط من كتابه بعد عشرين سنة، ولا يمكن لأحد أن يتذكّر منه كلمة واحدة. وهذا مؤسف ومدعاة للألم إلى حدٍّ ما. من الأفضل لو بقيت الديمقراطية شعلة متقّدة.

توقف يعقوب عن الكتابة وبدأ يرسم أنفاً أقنى، بينما كانت السيدات الفرنسيات في الأسفل يزعقن بعيونٍ شاخصات إلى السماء كلّما فتحن مظلّاتهن وأغلقنها، متذمّرات من صعوبة توقع حال الجو–أهو ماطرٌ أم صاحٍ؟

نهض يعقوب ميمّماً شطَر الإريكثيوم. وجد بعض النسوة يتظلَّلن السقف. تمطّى قليلاً، لأنَّ من طبيعة الجسم أنّه يفضل الثبات والتّوازن قبل كل شيء. وهذه هي طريقة التماثيل في إلغاء الأشياءَ! حدّق بالنسوة للحظة، ثمّ قفل راجعاً. رأى السيدة لوسيان غريف تجثم على صخرة. لاحظ أنّها تستهدف رأسه بالضبط بكاميرتها (الكوداك). وعلى الرغم من تقدمّها في السّن وبنيتها الضخمة وحذائها الضيق فقد قفزت إلى الأسفل – فهي تجاوزت سن الكهولة، حتى أنّ ابنتها متزوجة. أجل، السيدة لوسيان قفزت من مكانها لكن ليس قبل أن يراها يعقوب.

«تباً لهذه النسوة، تباً لأمثالها!، قال يعقوب، وعاد لإحضار كتابه الذي تركه على أرض البارثينون. «من المؤسف أنّ أمثالهن يفسدن الأشياء»، أضاف مُتمتِماً وهو يتأبّط كتابه، ويتكّئ على أحد الأعمدة. (ولا أنسى تذكيركم بأنَّ العاصفة ستبدأ حتماً في غضون لحظات، ذلك أنّ الغيوم بدأت تتلبّد في سماء أثينا).

«مثل هؤلاء النساء البائسات»، ردّد يعقوب دون أي شعور بالمرارة، بل بكثير من مشاعر الأسى والخيبة، لأنّ ما حدث ما كان ينبغي أن يحدث أبداً.

(وبصورة عامّة، كان هذا التحرر القوي من الوهم أمراً متوقّعاً بالنسبة إلى شاب في ريعان الصبا مثل يعقوب. فالشبان يملؤهم الغرور وعناد الوهم، مع أنَّهم لا يطول بهم الوقت حتى يصبحوا آباء وأرباب أُسرَ، ومديري بنوك أيضاً).

تأكّد يعقوب من مغادرة النسوة الفرنسيات. تلفّت حوله في حذر، وتقدّم ببطء صوب الإريكثيوم. اختلس النظر إلى تمثال إلهة على يساره، تسند السقف برأسها. ذكره عنفوانها بساندرا وينتوورث وليامز. تطلع إليها مرة أخيرة، وأشاح بنظره بعيداً. شعر باستثارة عارمة، وبالأفكار تتزاحم في رأسه، فاتّجه وحيداً في الجو الحارّ إلى قمة جبل هيميتوس.

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، ذهب بونامي لزيارة كلارا دورانت وتبادل الحديث معها عن يعقوب، وقد يتناول الشاي في منزلها الكائن عند ناصية شارع سلوين، الذي تسدل سواتر مقلَّمة على نوافذه الأمامية في أيام الربيع الحارة. وهناك أيضاً في الساحة الحصباء تجري المراهنة على الخيول، ويجتمع الرجال بصدارياتهم الصفراء، على وقع الأجراس، في انتظار أن تُعلِن الوصيفة عن وجود السيدة دورانت فيدخلون في أدب جمّ.

جلس بونامي مع كلارا في الغرفة الأمامية المشمسة حيث يمكن سماع أصوات الأرغن اليدوي. كانت عربة التنظيف في الشارع تسير على مهل لرش الرصيف بالماء، وأجراس العربات العابرة تدندن. وهناك تُعَرض

الأواني الفضيّة والقطع الملوّنة بالبني والأزرق، والزهريات المعرّقة بأغصان خضر، والمقلّمة باللون الأصفر.

من الواضح أنّ الأحاديث التي دارت بين بونامي وكلارا كانت سخيفة المضمون. وخلال جلستهما القصيرة، اتّسمت ردود بونامي عن استيضاحات كلارا بالتهذيب والهدوء، مُخفياً بداخله مشاعر الدّهشة المتزايدة، (في حين كانت السيدة دورانت في غرفة مجاورة تدير جلسة حوار سياسي مع أحد الضيوف). لكن فائدة الجلسة أنّها أتاحت لبونامي اكتشاف عفوية كلارا، وإن لم يسبر أعماقها كلّها. ودّ بونامي تذكيرها بيعقوب لو لم يشعر بكلِّ تأكيد بأنّها تُحبّ يعقوب بحق – لكن لا حيلة لها.

«لا حيلة أبداً!»، هتف بونامي حالما أغلقوا الباب .وإذ مشى عبر الحديقة بدأ يخالجه شعورٌ غريبٌ جداً، يتعلّق بسلاسة قيادة العربات الآن، والتناظر الحاد في مستنبتات الأزهار، وبالقوة التي لا تتوقف عن الاندفاع بأشكال هندسية دائرية وبطريقة هي الأكثر خواء في هذا العالم، وهذا لم يكن مستغرباً بالنسبة إلى إنسان في مثل مزاجية بونامي. توقف ليشاهد الأولاد وهم يسبحون في بركة، فأخذ يفكر: «هل كلارا هي المرأة الصامتة؟ وهل يمكن ليعقوب أن يتزوجها؟».

تحت الشمس في أثينا، في أثينا المشمسة، يكاد يستحيل تناول شاي العصر، ولا يملّ الكبار من الحديث في السياسة، مكررين مرة بعد مرة مناقشاتهم السياسية، أقول في تلك المدينة جلست ساندرا وينتوورث وليامز بثيابها البيضاء. مدّت رجليها إلى الأمام، واتّكأت بكوعها على مسند الكرسي الخيزران وسط غيمة «متمعجة» من دخان سيجارتها الأزرق المتصاعد في الهواء.

كل شيء بالنسبة إلى ساندرا وينتوورث وليامز، بدءاً من أشجار البرتقال النامية في باحة كونستيتيوشن، والفرقة الموسيقية، وسَحب رجليها إلى الوراء، والسماء، والبيوت، والليمون والورود بمختلف ألوانها وكل شيء – كل شيء أصبح له نكهة مميزة بعد فنجان القهوة الثاني، حتى أنَّها أخذت تُضخم حكاية المرأة الإنجليزية النبيلة والمتهوّرة، التي أفسحت في عربتها مكاناً للسيدة الأمريكية المُسنة (السيدة دوغان) في مدينة مسينا– وهي حكاية لم تكن مختلقة تماماً، مع أنها لا ذكر فيها لإيفان الذي طالته ثرثرة النساء، فاضطر إلى الانتظار طويلاً مبدلاً وقوفه بالتناوب على رجليه، واحدة بعد الأخرى.

«أنا بصدد صياغة حياة الأب داميان شعراً »، قالت السيدة دوغان، المرأة التي فقدت كل شيء في هذه الدنيا - كل شيء، بما في ذلك زوجها، وولدها وكل ما عندها، ولم تعد تملك سوى إيمانها.

كانت ساندرا في تهويماتها من عالم الخصوصية المشترك العام في غاية النشوة.

حين يمضي الوقت يحملنا نهاية كارثية. والآن تتفجر شواظ الكدّ والتبطّل الأبديين لهباً متّقداً كما الفقاعات الصفراء السريعة بين الأوراق الخضراء (وكانت ساندرا تراقبها وهي تحدّق بأشجار البرتقال)، كقبلات تُطبَع على الشفاه الموشكة على الموت. العالمُ يدور، في متاهاتِ الحرارة والصوت المتشابكة – على الرغم من أنّ المساء مُقبلٌ بشحوبه المحبّب، «ذلك أنَّني حساسةٌ لكل جزء منه»، كما فكرت ساندرا. «السيدة دوغان

ستظلُّ تكتب لي حتى النهاية، ولن أخذلها. سأردّ على رسائلها كلّها». والآن مرور الفرقة الموسيقية الملكية من هنا ومعها العلم الإنجليزي يبعث موجات أعمق من المشاعر. لقد غدت الحياة بالنسبة إلى ساندرا مذ رأت يعقوب مجَّسدةً في شيءٍ واحد، جواد لا يركبه سوى الشجعان لملاقاة البحر الداكن– (هكذا تخيلته والنسيم يعابث برقَّة أشجار البرتقال)، فيما تخرج هي نفسها من عساليجه المزُهرة بلون الفضة. كان يعقوب يقف في الساحة، متأبّطاً كتاباً، ويتأمّله ساهماً شارداً. بنية يعقوب حسنة لكنّه قد يغدو بديناً مع مرور الوقت.

ثم ساورتها شكوك في أنّه ليس سوى ريفيٌّ ساذج لا أكثر.

قالت بنزق، وهي ترمي سيجارتها: «إنه هناك، ذاك الفتى، السيد فلاندرز نفسه».

قال إيفان: «لكنّي لا أراه. أين هو».

فأوضحت لزوجها: «إنّه هناك، وهو يبتعد– وراء الأشجار. كلّا، لا يمكنك أنْ تراه. لكني واثقة أنّنا سنلتقيه وجهاً لوجه». وهذا ما حصل فعلاً.

لكن السؤال هو: أي حدّ كان يعقوب فلاندرز ريفياً بسيطاً؟ أيّ حدّ كان هذا الفتى ابن السادسة والعشرين رجلاً ساذجاً؟ لا بدّ أنّ ذلك بحاجة إلى مميزات دالّة. الإنسان يجب ألا يكتفي بما يسمع، ولا حتى بما يحدث. صحيح أنّ بعض الناس يشكلون انطباعات فورية يتعذّر محوها. وبعضهم الآخر تراه يتسكّع ويتلكّأ، مكتفياً بالتنفيخ والزفرات بهذه الصورة أو تلك .وفي كلام السيدات اللّطيفات ما يؤكد لنا أنّ القطط كثيراً ما تكون أفضل من يحكم على

شخصية الإنسان. فالقطّة كما يقال لا تأنس إلا للطيبين. لكن السيدة وايتهورن، مالكة الغرفة التي يسكنها يعقوب، تتقزّز من القطط.

وهناك أيضا رأي وازن جداً وهو أنَّ البحث في طبائع الناس وصل حدّ المبالغة هذه الأيام. لكن في نهاية المطاف أين المشكلة – مثلاً في أن تكون فاني إلمر عاطفية وحسَّاسة، أو أن تكون السيدة دورانت في صلابة الحديد؟ وما معنى أنّ كلارا لم تتحْ لها فرصة التَّصرف بصورة فورية نتيجة لقوة شخصية أمها في الأغلب (كما يدعي المهتمّون بتقييم الشخصية)، وأنَّها في نظر أصحاب العقول الحصيفة وحدهم كانت تبدي غوامض شعورها الذي يُنذِر بخطر حقيقي، ومن شأنه بالتأكيد أن يجعل كلارا تقبل هذه الأيام بشخصٍ ليس جديراً بها لو لم تكن تمتلك خصلة من طباع أمّها، طبعاً بمقاييس المهتمين بتقييم الشخصية– أعني إثبات جرأتها كبطلة. لكن تعالوا نفتّش عن الصفة المناسبة الممكن إطلاقها على كلارا دورانت! بعض الناس يراها بسيطة نوعاً ما. ولهذا السبب بالذّات يقول هؤلاء الخبراء إنّها تروق لديك بونامي – ذلك الشاب ذي الأنف الويلنغتوني. أجل، لقد أصبح بونامي هو الجواد الفائز، إذا شئت. وهذاما يضع حّداً لثرثرة المجتمع. ومن الواضح أنّ هؤلاء يلمّحون بذلك إلى طباعها الشخصية – التي طالما تناولها الناس في أحاديثهم.

ولقد ألمحت جوليا إليوت «أنّ الفتاة من نمط كلارا على وجه الدقة هي التي تحظى في بعض الأحيان بقبول الرجال من أصحاب هذا المزاج....».

وقد علّق زوجها السيد باولي بقوله: «لا بأس، ربّما كان هذا صحيحاً».

على أيّة حال، مهما طال أمد هذه الثرثرات العقيمة وانتقعت بها بطون شخصيات ضحاياها حتى أصبحت طرية ورقيقة، ككبد إوزة على نار حامية، فإنهم لن يصلوا إلى قرارٍ حاسمٍ.

هؤلاء ربّما قالوا مثلاً إنّ «ذلك الشاب، يعقوب فلاندرز، يتمتّع بطلّة مميزة – ومع هذا فهو شخص مضطرب جداً. ومن ثم يبدؤون بمقارنة أنفسهم بيعقوب، وتتذبذب مواقفهم أبداً بين قطبين متناقضين. فهو عندهم يصطاد الثعالب – وهي موضة تلك الأيام، وأنَّه شخص مُفلِس.

سألت جوليا إليوت: «هل عرفتم من كان والده، هذا اليعقوب؟»

قال السيد باولي: «يقولون إنّ لأمّه علاقة بآل روكسبيير».

«مهما يكن، فهو لم يكن على قدر كبير من المواظبة».

«لكن أصدقاءه يحبّونه جداً.

«تقصد صديقه ديك بونامي»؟

«لا. ليس هذا. ومن الواضح أنّ الأمر عكس ما هو بالنسبة إلى يعقوب. فهو رجل سريع الوقوع في الحب، ثمَّ يبقى يتحسر حتى نهاية عمره».

قالت السيدة دورانت، وهي تندفع صوبهم بطريقتها المهيبة: «آه منك، يا سيد باولي، وأردفت تقول: «أتتذكرون السيدة آدامز؟ هذه كانت ابنة شقيقها». فانحنى لها السيد باولي بأدبٍ واضح ومضى لإحضار طبق الفريز.

هكذا نجد أنفسنا أمام ضرورة معرفة مقاصد الآخرين – في النوادي والمجالس – حين يقولون إنّ محاولة فهم الشخصية إنَّما هي تسلية تقنية

روتينية لمن يجلس جنب النار، مسألة لعب بالدبابيس والإبر، بهدف تكوين ملامح محدَّدة حول مساحة فارغة، زخارف وخربشات لا أكثر ولا أقل.

تتلألأ أنوار البوارج المُبحِرة في مياه بحر الشمال، وهي تغادر ميناءها تباعاً بصورة منتظمة. عند صدور الإشارة لها تصوّب السفن مدافعها على الهدف (ويجلس كبير الرُّماة ليعدَّ الثواني في ساعةِ معصمه – ليراقب الهدف عند «الثانية» السادسة) الذي تمزقه النيران قطعاً صغيرة. وبمثل هذه الثقة بالنَّفس يغطس عددٌ من البحَّارة الشباب في أعماق البحر، ويختنقون هناك معاً دون تذمّر(برغم كل إتقانهم لمهنتهم). وينتشر أفراد الجيش كما الهياكل المعدنية عبر حقول الذّرة، صاعدين السفح. يتوقفون، يكرّون قليلاً بهذا الاتجاه وذاك من دون نتيجة، لولا أنّ الاستعانة بنظَّارة ميدانية يمكنهم من رصد وجود مركب، أو مركبين، لا يزال يتحرك في المكان جيئة وذهاباً، ككسرات عود ثقاب مهشَّم.

ويقولون إنّ هذه الأنشطة الاستراتيجية، جانب أنشطة البنوك التي لا تتوقف، والمختبرات والمستشارين، والبيوت التجارية، هي التي تدفع بالعالم إلى التّطور. وهذه الأنشطة كلّها يديرها رجال صقلتهم الخبرة كرجال شرطة لودغيت سيركس. لكنّك ستلاحظ أنّ وجه هذا الشرطي لم يتمّ حشوه باللّباد لينتفخ يبدو متصلباً بسبب قوة الإرادة، بل صار هزيلاً لكثرة ما يبذل من جهد للمحافظة على شكله. حين يرفع يده اليمنى ليؤشر تتوتر عضلاته من الكتف حتى أطراف أصابعه، لكنّها لا تتحول إلى حركات طارئة، أو ملامح ندم بسبب وخزة ضمير أو فوارق دقيقة جداً. وفي الأحوال كلها؛ فالحافلات تتوقف في وقت محدّد.

هذه هي طبيعة حياتنا، يقولون، تسيّرنا طاقة لا يمكن الإمساك بها. ويقولون أيضاً إنَّها تفلت من يد الروائي، إذ تندفع سريعاً عبر شباكهم، وتتركهم ممزقين. هذه هي طريقة حياتنا– تبعاً لتلك الطاقة التي يتعذّر الإمساك بها، كما يقولون.

«أين هم الرجال»، سأل الجنرال غيبون العجوز، وهو يتلفت باحثاً في جنبات الغرفة التي تغصّ عادة بعد ظهر أيام الأحد بالناس المرتدين أرديتهم النظيفة. وأردف: «أين هي البنادق؟».

ذلك دعا السيدة دورانت للتلّفت مثل الموجودين.

ظنت كلارا أنّ والدتها تبحث عنها. فدخلت الغرفة، وما لبثت أن خرجت فوراً.

كان محور الحديث الدائر في منزل آل دورانت هي بلاد الألمان. وما كان من يعقوب(مدفوعاً بتلك الطاقة التي لا يمكن الإمساك بها) إلا أن غادر مسرعاً في «شارع هرمس» متوجها مباشرة لزيارة آل وليامز».

«أوه!!»، هتفت ساندرا بنبرة ودّية غالبتها فجأة. وهتف إيفان: «يا له من حظٍّ رائع»!

قدم الزوجان وليامز عشاء فاخراً ليعقوب في الفندق المطّل على ساحة كونستيتيوشن، حفِلَ بلفافات طازجة في سلالٍ مطلية وبالزبدة الأصلية، فضلاً عن اللّحمة المدهونة بالصلصة، مع كمية كبيرة من الخضار المقطعة بألوان حمراء وخضراء.

مع ذلك، كان هناك شيء من الغرابة. بين وقت وآخر كانوا يضعون طاولات صغيرة على أرض الصالة القرمزية، مُزدانة بالأحرف الأولى لاسم الملك اليوناني، صفراء اللون. كانت ساندرا كعادتها تتناول العشاء معتمرةً قبعتها، مع الوشاح. وكان إيفان دائم التّلفت يميناً وشمالاً من فوق كتفيه، لكنّه يبدو رابط الجأش وهادئاً، ولا يني يتنهّد من وقتٍ لآخر. وبالفعل كان الموقف غريباً. فهؤلاء جميعاً إنجليز، اتفق أنْ التقوا مصادفة مساء أحد أيام أيار بمدينة أثينا. كان يعقوب مشغولاً بتناول هذا الطعام وذاك، ويردّ على أسئلتهما بلباقة، وإن لم يخلُ صوته من نبرةٍ ذات معنى.

كان آل وليامز يتأهبون للسفر صباح اليوم التالي القسطنطينية، كما قالوا.

قالت له ساندرا: «سننطلق من هنا قبل أن تستيقظ».

أجل، سيغادرون وسيبقى يعقوب وحده. أدار إيفان وجهه على مهل وطلب شيئاً ما – قنينة نبيذ – ثمَّ قدَّم ليعقوب قليلاً منها برقّةٍ وحذرٍ، وبلهفة أبويّة حنون، إذا إنّ جاز التعبير. إنّ من الجيد – بالنسبة إلى شاب يافع كيعقوب– أن يُترك وشأنه برأسه. وكان إيفان لا يزال يرى أنّ بلاده، إنجلترا، في أمس الحاجة إلى الشباب الآن، وبأكثر من أيّ وقت مضى. تنهَّد.

سألته ساندرا: «وأنت، ألم تذهب الأكروبوليس ذات يوم»؟

أجاب يعقوب: «بلى، ومشيا معاً إلى النافذة. أما إيفان فأوصى كبير الندل بأن يوقظهم صباحاً في وقتٍ مبكر».

قال يعقوب بصوت أجش: «إنّه أمر مدهش».

فتحت ساندرا عينيها قليلاً جداً. وربَّما اتّسعت نوعاً ما فتحتا منخريها أيضاً.

بدا إيفان وكأنَّه يواجه تحدِّياً لا يعرفه، إذ أقبل نحوهما وهما واقفان معاً وظهراهما إلى النافذة. قال: «سنغدو في تمام السادسة والنصف».

ابتسمت ساندرا لزوجها الذي اقترب من النافذة، لكنّه لم يجد ما يمكن أن يضيفه. فقالت ساندرا بعبارات متقطّعة: «لا بأس. لكن المشوار سيكون جميلاً...؟ أعني إلى الأكروبوليس... أليس كذلك يا إيفان - أم أنَّك متعب جداً؟».

نظر إيفان إليهما، وبالأحرى زوجته، لأنَّ يعقوب كان يحدّق أمامه مباشرة. كان وجه إيفان مكفهراً ونظرته متجّهمة، ووجهه يعبق بالألم – لكن هيهات أن يستدر عطفها. أمَّا اتّقاد حُبّ الأمس مهما بلغ أواره فمن الصعب أن يخفّف من عذابات إيفان.

وهكذا تركاه مع آلامه. فجلس مع سيجارته في الغرفة المخصّصة للتدخين، المطّلة على ساحة كونستيتيوشن.

قالت ساندرا ليعقوب: «إنّ إيفان يشعر براحة أكبر حينما يختلي بنفسه. والآن لم تعد تصلنا الصحف. على أيّ حال، أرى من الأفضل أن يحصل الناس دوماً على ما يريدون... وها أنت ترى هذه الأشياء كلها منذ أن التقيناك... يا له من انطباع يساورني... فأنا أعتقد أنَّك قد تغيَّرت».

قال يعقوب: «هل تريدين زيارة الأكروبوليس، هيابنا إذن».

أجابت ساندرا: «أجل، بحيث لا ينساه المرء أبداً في حياته كلّها».

ردّ يعقوب: «صحيح، وأتمنى أنّ تأتي خلال النهار».

قالت ساندرا، وهي تلوح له بيدها: «ذلك سيكون أجمل».

حانت من يعقوب نظرة مليئة بالغموض.

«لكن ينبغي أن تشاهدي البارثينون في ضوء النهار. ولن تتمكّني من المجيء غداً – هل سيكون الوقت مبكراً جداً؟

سألته: «وأنت، هل بقيت وحدك لساعات وساعات»؟

قال يعقوب: «كانت هناك نسوة بغضيات كثر هذا اليوم».

رددت ساندرا: «نساء بغيضات»؟

«فرنسيات».

فردَّت ساندرا: «لكن شيئاً غريباً جداً طرأ اليوم».

مضت عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، أو نصف ساعة، ولم تقل ساندرا شيئاً.

قال يعقوب: «هذا صحيح».

«عندما يكون المرء في مثل عمرك – في ريعان الشباب. ما الذي يمكن أن يفعله؟ ليس سوى الوقوع في الحُبّ – أجل، هذا مؤكّد! لكن يجب ألا تتعجَّل الأمور. أنا أكبر منك بكثير».

فرقتهما زحمة السابلين والمتفرجين على واجهات المحلات على الرصيف. فسألها يعقوب: «ألا ينبغي علينا متابعة المشوار؟».

قالت بإصرار: «أجل. دعنا نتابع».

ساندرا كانت مصمّمة على البوح له بمكنونها – أو أن تسمعه يعترف، أم هل كانت تتوقع أن يقوم بشيء كانت تريده؟ ابتعدا معاً، وعند خط الأفق فطنت لذلك الشيء، ولم تعد تهدأ.

قال يعقوب: «أعتقد أنّه لم يتح لك مشاهدة مواطنين إنجليز يجلسون في الهواء الطلق مثل هذا».

هتفت فجأة: «لا – أبداً. وهذا ما ستتذكره بعد عودتك إلى إنجلترا – أو تعال معنا إلى القسطنطينية»!

«وبعدئذ...»

تنهَّدت ساندرا، وقالت «يجب أن تزور دلفي، طبعاً. ثمَّ سألت نفسها» ترى ما الذي أريده من يعقوب؟ من المحتمل أنَّني نسيت....

أجل. عليك أن تكون هناك عند السادسة مساء. وستشاهد النسور».

بدا يعقوب متضايقاً، بل يائساً في ضوء المصباح الذي ينير ناصية الشارع، لكنّه ظلَّ متماسكاً. ربّما كان يعاني. لكن كانت له مصداقيته. داخل يعقوب مسكون بشيءٍ لاذع. في أعماقه بذور للتّحرر من وهم كبير، بذور تتأوّج بقوة كلّما التقى نساء في منتصف العمر. فليته سعى جهده للوصول إلى قمة التلة، إذن لما عاودته تلك الحالة – ذلك التحّرر من الوهم المتعلّق بالنسوة الكهلات.

قالت ساندرا، ثم ضحكت: «الفندق مقرف. آخر النزلاء فيه تركوا الكثير من المياه الآسنة في المغاسل. وهذا ما يحدث دوماً».

قال يعقوب وبدا متأثراً جداً: «الناس الذين نلتقيهم أشبه بالوحوش».

فقالت ساندرا: «سأنتظر رسائلك للاطمئنان عنك. اكتب عن كل شيء وأخبرني بكل شاردة وواردة، تماما كما تراه، ولا تنسَ أن تقول لي ما هي حقيقة رأيك».

كانت تلك ليلة ظلماء، حتى أنّ الأكروبوليس إزاء الأفق بدا كتلة مثلّمة ومظلمة.

ردّ يعقوب: «أودّ الكتابة من كلّ قلبي».

«كما أنّنا سنلتقي حتماً بعد عودتنا لندن».

«طبعاً.»

تساءل يعقوب: «أظن أنّهم هنا لا يقفلون الأبواب»؟

قالت بقوة: «بإمكاننا أن نتسلّقها!»

حجبت الغيوم العابرة باتجاه الغرب وجه القمر وأغرقت الأكروبوليس في الظلام. وما لبثت الغيوم أن تلبّدت أكثر، وبدت محمّلة بالرطوبة وبخار الماء.

كانت أثينا في ضوء المصابيح الكهربائية الشاحبة غارقة في العتمة، عدا الشوارع التي بدت شرائط حمراء شفافة، وواجهة القصر غبشاء. وظهرت أرصفة الشحن البحري في تلك الصورة العامة ناتئة على الشاطئ، ومنقّطة بنقاط متفاصلة. كان الظلام يطمس أمواج البحر، فيما بدت ذرا الجبال والجزر الصغيرة حدبات سوداء موشاة بقليلٍ من النور.

تمتم يعقوب بنفسه «أتمنى من كل قلبي أن أعود هنا برفقة شقيقي، إن تمكَّنت».

وقالت ساندرا: «وعندما تأتي أُمّك لندن... ».

كان الظلام لا يزال يلفّ البرّ اليوناني كلّه. ولا بدّ أنّ الغيمة البعيدة عن «يوبويا» تتمسَّح بموجات البحر وتزرعها بقعاً – وفي أعماق البحر بعيداً عن الشاطئ أخذت الدلافين تلهو راسمةً دوائرَ متسَّعة وتغطس أعمق فأعمق. اشتدَّت الريح كثيراً وتراكضت مسرعة صوب بحر مرمرة، بين البر اليوناني وسهوب طروادة.

الريح الشديدة في اليونان ونجود ألبانيا وتركيا تهبّ مُحمّلة بدقائق الرمل والغبار، فتتكاثف مع حبيبات التراب الكبيرة الجافة وترشق قباب الجوامع. الريح تترك أشجار السرو الباسقة تُطَقطِق في تأرجُحها حول شواهد قبور المسلمين.

لذلك أخذت أوشحة ساندرا تطير في الهواء حولها.

قال لها يعقوب: «سأعطيك نسختي من الكتاب، فهل ستحتفظين بها»؟

(الكتاب هو ديوان أشعار جون دون).

هاجت الريح فانقشع الغيم عن نجمةٍ مسافرة. أحياناً كانت تُحيل الأمكنة إلى فضاءات معتمة. وكانت الأنوار تخبو واحداً بعد الآخر، فتجعل المدن الكبرى – باريس، القسطنطينية، لندن – تتحوَّل إلى كتلٍ سوداء ضخمة جداً، بينما بقيت طرق الملاحة البحرية واضحة المعالم. وفي إنجلترا بخاصّة كانت أوراق الأشجار كثيفةً جداً. وربّما عمد رجلٌ عجوز إشعالِ بعض أعواد التنّوب الجافّة في إحدى الغابات الجنوبية فأجفلت الطيور وهربت، وانتابت الأغنام

نوبات من العُطاس. وتمايلت الأزهار قليلاً لتضمّ بعضها بعضاً. لكنَّ سماء إنجلترا كانت رائقةً وأكثرَ صفاءً من المشرق. لا بد أنّ شيئاً قادماً من صوب التلال ذات المروج، شيئاً رطباً ويتّسم باللطف، قد عَبر فضاءها. عصفت الريح المُشبعة بالملح بنافذةِ غرفة نوم بتي فلاندرز. فرفعت السيدة الأرملة جسدها قليلاً واتَّكأت على كوعها. تنهّدت بقوّة كَمَنْ يعود إلى وعيه فجأة بعد غفلة ليدفع عنه الغمّ المقيم ولو قليلاً – أجل، قليلاً أكثر!.

لكن ما لنا ولهذه السيرة. سأعود لأتعَّقب خطوات يعقوب وساندرا في مشوارهما ذاك.

لقد اختفيا. الأكروبوليس وحده بقي هناك. لكن هل وصلا إليه؟ وها هي الأعمدة والمعبد باقية هناك أيضاً. وعليها، تلك الأعمدة والمعبد، تتحطّم مشاعر الأحياء عاماً بعد عام، فما الذي يبقى منها؟

لكن فيما يتعلّق بالسؤال عن الوصول إلى الأكروبوليس، من يا تُرى يفترض أنَّ بإمكاننا الوصول إليه قطّ؟ أم أنّ يعقوب في صباح اليوم التّالي أفاق من نومه ليعثر على شيء صلب، شيء يمكن أن يحتفظ به الأبد؟ وعلى أيّة حال، في الصباح رافق الزوجين إيفان وساندرا في رحلتهما القسطنطينية.

كذلك لا بّد أن ساندرا وينتوورث وليامز عند استيقاظها وجدت نسخة من كتاب جون دون على طاولة الزينة الخاصة بها. وهي ستضعه على الرفّ داخل بيتها الريفيّ الإنجليزي، حيث يحتلُّ حيزاً مناسباً. ولا بدّ أنّها ذات يوم ستضم إليه كتاب سالي دوغان الشَّعري عن حياة الأب داميان، إلى جانب عشرةَ كتب أو اثني عشرَ كتاباً صغيراً. في العادة، حين تتهيّأ ساندرا للمشي عند الغسق كانت تفتح

تلك الكتب واحداً واحداً، فتلتمع عيناها لمرآها (ليس بسبب محتوياتها)، فتُغرق جسدها في الكرسي ذي الذراعين، لاسترجاع روح تلك اللحظة. وأحياناً، حين تكون قلقة كانت تأخذها لتستعيد معها شريط حياتها لحظة بلحظة كما يفعل لاعب الأكروبات بانتقاله من عارضة إلى أخرى. لقد عاشت ساندرا أياماً مليئةً بالذكريات. وساندرا كانت تستجمع لحظات حياتها على وقع تكّات ساعة الحائط الكبيرة عند نهاية الدرج، وتُسائل نفسها: «ما الهدف؟ ما الهدف من ذلك؟».

«لماذا؟ ما الهدف؟» تقول، ثمَّ تُعيد الكتاب إلى مكانه، وتتمشىَّ صوب المرآة وتضغط شعرها. أثناء العشاء، فتحت الآنسة إدواردز فمها لتناول لقمة من لحم الضأن المشوي، لكنّها دهشت بسبب القلق الذي ألمَّ بساندرا فجأةً، وقالت لها: «هل أنت سعيدة يا آنسة إدواردز»، لأنَّ سيسي إدواردز في الواقع لم تفكر بذلك منذ سنوات طويلة.

«ما الهدف؟ ما الهدف؟»، سؤالٌ لا يخطر مثله على بال يعقوب، إذا حكمنا على أفكاره من الطريقة التي يربط بها حذاءه، وكيف يحلق ذقنه ويذهب السرير، حيث يغطّ في نوم عميق حتى لو كانت الريح القوية تهزّ بعصبية كبيرة مصراعي النافذة، وطنين البعوض لا يكفّ عن مهاجمة أذنيه. يعقوب كان شاباً – كان رجلاً إذا شئت. وكانت ساندرا مُحقّة حين رأته ساذجاً يومئذ. لكن الأمر قد لا يكون كذلك حين يصبح في سن الأربعين. في قصائد الديوان، ديوان جون دون، علّم يعقوب الأبيات التي يريدها وكانت أبياتاً متوحشة تماماً. على أي حال من الممكن أن تضيف إليها بعض المقاطع من ألمع أشعار شكسبير أيضاً.

قد يخطر للمرء أنّ الريح تدحرج العتمة أمامها في شوارع أثينا، أجل، تدحرجها بنوع من الاستعلاء المزاجي المانع لأي تحليل دقيق لمشاعر إنسان بمفرده، أو أيَّة معاينة لسمات تلك المشاعر. العتمة تجعل الوجوه كلّها إطلاقا تبدو متشابهة – الوجوه اليونانية، المشرقية، التركية، الإنجليزية – وحين تنجلي العتمة في نهاية الأمر تستعيد الأعمدة والمعابد بياضها، تبدو شاحبة في بداية الأمر لتكتسي من ثم باللون الوردي. وعندئذ ستظهر الأهرامات وكنيسة القديس بطرس، وأخيراً تلوح كنيسة القدّيس باول شيئاً فشيئاً.

من حق المسيحيين أن يستثيروا أكثرية المدن بتأويلاتهم لمعنى النهار. وعندئذ، يصدر المنشقون من شتَّى الطوائف تنقيحاتهم المُشاكسة، لكن بلهجات أقل ترخيماً.

البواخر تترجّف في موج البحر، فتهتُّز كشوكة رنّانة عملاقة، مُعلنةً الحقيقة القديمة قِدَم الحياة – أنّ هناك بحراً غير مبالٍ ومفعماً بالحياة، وتتلاطم فيه الأمواج. لكنَّ صوت الواجب الواهي في هذه الأيام، ذلك الصوت المتسلّل بسلاسة من فوّهة قُمع، يُلمّ أوسع الحشود، وليس الليل سوى زفرةً عميقة بين ضربات مِطرقة – يمكن سماعها من نافذة حتى في وسط مدينة لندن.

لكن لو استثنينا أولئك أصحاب الأعصاب المُجَهدة والمؤَرقين ليلاً، أو المفكّرين الذّين يراقبون الحشود من فوق جرفٍ صخريّ، وأيديهم على عيونهم، فمن الذي يمكنه أن يرى الأشياء على حقيقتها المجرّدة، فلا يرون سوى هيكلها العظمي وحسب؟ والهياكل العظمية في سوربيتون مكسوّة لحماً.

تقول السيدة غراندیج إنّ «غلاية القهوة لا تغلي كما ينبغي في حرارة الشمس صباحاً، وهي تنظر الساعة الموضوعة على سياج الموقد. كانت القطة الفارسية الرمادية تتمّدد على ضفة النافذة، وتُداعب فراشة بمخالب كفها الناعم المستدير. قبل أن يفرغوا من تناول طعام الإفطار(وقد تأخروا هذه المرة عن الموعد اليومي)، وضعوا طفلاً في حضن السيدة غراندیج، وكان عليها أيضاً أن تهتم بالسكرية ريثما ينتهي توم غريندیج من قراءة مقالة عن رياضة الغولف في جريدة «التايمز»، ويحتسي قهوته، ثمَّ يمسح شاربيه، ويخرج إلى مكتبه، كونه المسؤول الأول عن تبديل العملات الأجنبية، وهو يوشك أن ينالَ ترقية. الهيكل العظمي مكسوّ جيداً باللحم. وحتى هذه الليلة الظلماء، حيث العتمة تسوقها الريح في شارع لومبارد وزقاق فيتر وساحة بدفورد حتى هذه الليلة تتحرَّك (ما دام الوقت صيفاً ونحن في ذروة الفصل)، فيما ضوء المصباح الكهربائي يوشّي أشجار الدلب، والستائر ما تزال تمنع الفجر من الدخول الغرفة. وما يزال الناس يتمتمون آخر عبارة قيلت على مطلع الدرج، أو يجهدون أنفسهم، مدفوعين بأحلامهم، لسماع صوت ساعة المنبّه. مثل هذا يحدث حين تتجوّل الريح في الغابة، فُتحرّك الكثير جداً من العساليج الطرية، مثلما تنظَّف قفائر النحل، وتجعل الحشرات تتمايل بين أوراق الأعشاب، بينما تسارع العناكب للاختباء في شقوق لحاء الشجر، في حين يرتجّ الفضاء كلّه بأنفاس الكائنات، ويصبح مرناً بسبب الخيوط العنكبوتية الدقيقة فيه.

وليس سوى هنا – في شارع لومبارد وفي فيتر لين وساحة بدفورد – كلّ حشرة من هذه تحمل في رأسها كرتها الأرضية، حيث الشبكات في الغابة

خطط مُستنبطة لتسهيل إنجاز العمل، وحيث الكلام الرقيق كنز هذه الطبيعة وتلك، وهياج الريح ثورة لا يمكن وصفها للحياة.

لكن الألوان لا تغيب طويلاً، فتعود لتغشى سيقان الأعشاب، وتعصف داخل زهرات التوليب والزعفران، ويوشي جذوع الأشجار بثبات، ويملأ ضباب الفضاء والأعشاب والبحيرات الصغيرة.

وسط هذا المشهد يعلو مبنى البنك الإنجليزي. فيظهر هذا المَعْلَم برأسه المنتصب والمتوّج بشعر ذهبّي، وبجانبه عربة الخيول التي تعبُر جسر لندن، للناظر بلونٍ أشهب، وبلون الفريز والفولاذ. ومع تهادي حركة القطارات المُقبِلة على المحطة تسمع صوتاً يشبه رفيف أجنحة الطير. عندئذ، يزحف النور ليغطي واجهات المباني العالية المظلمة، متسللاً عبر إحدى الفتحات ويوشّي الستائر القرمزية التي تلفحها الريح، ولا يوفّر كؤوس النبيذ الخضراء، وفناجين القهوة، والكراسي الواقفة بشكلٍ منحرف.

ضوء الشمس يسطو على مرايا الحلاقة، والأواني النحاسية اللّامعة، والمقتنيات اليومية الأنيسة. نور الشمس اللّامع المُتطفّل، المدرَّع، زائر نهاري رائع ابتعد من زمان بعيدٍ جداً عن الفوضى، وجفّف ضباب القرون الوسطى الكئيبة. ضوء الشمس هو الذي أخذ رطوبة المستنقعات واستبدل بها الزجاج والحجارة، وهو الذي يمنح عقولنا وأجسامنا دروعاً مقاومة، من شأنها أن تتيح لنا رؤية أنّ وميض حركة الأطراف المنوط بها أداء مختلف الأنشطة اليومية وحركاتها، أفضل من مواكب الجيوش القديمة كلها، تلك التي كانت تُنشر في تشكيلات قتالية فوق السهول.

الفصل الثالث عشر

قال بونامي: «إنّها ذروة الفصل».

كانت الشمس تصبّ شواظ لهيبها على ظهر الكراسي الخضراء في الهايد بارك فتشقّق دهانها، وتقشّر لحاء أشجار الدلب. وهي التي أحالت التربة فيها إلى ذرات ناعمة، وصقلت سطوح الحصى. والهايد بارك مُحاطةٌ دوماً بالنواعير التي لا تتوقف عن الدوران.

قال بونامي ساخراً: «إنها ذروة الموسم».

سخرية بونامي كانت بسبب كلارا دورانت. فقد عاد يعقوب من أثينا أسمراً هزيلاً، وجيوبه مليئة بأوراق نقدية يونانية، لم يبخل ببذلها كلّما جاء إليه حمَّال يطلب بعض الدريهمات، ولاسيما أنّ يعقوب كان صموتاً.

وقد فكر بونامي بمرارة أنّ يعقوب «لم يوجّه إليه ولو كلمة واحدة تدلّ على سعادته لرؤيتي».

على الطريق، فوق جسر سربنتين، لم تتوقف أبداً حركة السيارات. كان الناس من الطبقة الأرستقراطية يسيرون منتصبي القامة، أو يقفزون بخفة فوق عوارض السياج الخشبية، في حين كان الفقراء على ظهورهم يتمددون على ظهرهم، وركبهم المثنية مشرعة للأعلى. وكانت الحيوانات

ترعى القشّ حول الأعمدة المدببة، في حين يتراكض الصغار فوق المنحدرات المعشوشبة، وأذرعهم مفتوحة، أن يقعوا أرضاً.

قال يعقوب موضّحاً: «إنّه منظر حضري».

كانت عبارة «حضري» التي خرجت من شفتيّ يعقوب تعكس بشكلٍ غامض جمال الطَّباع التي كان بونامي في كل يوم يرى أنَّها أكثر نبلاً، وأقوى تدميراً ورهبةً من أيّ وقت مضى، على الرغم من أنّه (بونامي هذا) لا يزال، وربّما سيبقى إلى الأبد، يمتلك طبيعة بربرية ومفعمة بالغموض.

يا لها من مشاعر راقية! ويا لها من صفات! لكن كيف يمكن تجريد بونامي من عواطفه الرائعة جداً، كيف يمكن تعويمه كما يطفو الفلّين على وجه الموج، وحرمانه من بصيرته الثابتة في تقييم الشخصية، من تفكيره العقلاني، وقدرته على أن يجد عزاءً في أعمال الكتاب الكلاسيكيين؟

قال يعقوب مجدداً: «إنها قمة الحضارة».

ويعقوب مولعٌ باستخدام الكلمات اللاتينية.

الشهامة، الفضيلة... مثل هذه الكلمات حين يستخدمها يعقوب في حديثه مع بونامي فإنّ ذلك يعني أنّه في وضع المنتصر، لذلك يبدأ بونامي بالدوران حوله، كما يفعل كلب السبانيل الوفيّ حول صاحبه.

قال بونامي: «واليونان، البارثينون وما إلى ذلك»؟

ردّ يعقوب: «ليس في اليونان أيّ شيء من التصوف الذي نعرفه في أوروبا».

علّق بونامي: «ربّما بسبب الجّو العام، كما أظنّ»، وهل زرت القسطنطينية أيضاً»؟

قال يعقوب: «نعم».

توقف بونامي قليلاً، نقل بحصة، قبل أن يطلق العنان للسانه كلسان عظّاءة، ويطلق بعض الكلمات بسرعة ويقينيّة.

هتف بونامي بشكل خاطف: «أنت يا عزيزي واقع في الحب!»

تورّد وجه يعقوب خجلاً. فقد أصابه كلام بونامي بطعنةٍ قاسية.

حدّق بعيداً أمامه. مركّزاً نظره في نقطة بعيدة، ومسمّراً مثل صنم – «إنَّه كتمثالٍ بديع الجمال!» – هتف بونامي في حدّة، كأدميرال بريطاني، وقفز من مقعده وابتعد. شنَّف أذنه في انتظار صوتٍ يناديه. لم يسمع شيئاً. منعه كبرياؤه من النّظر إلى الوراء، فحثّ الخطا أسرع فأسرع، حتى وجدَ نفسه أمام سيلٍ من السيارات فتوقَّف وأخذ يحدَّق فيها، لاعناً النساء. خطر له أن يتساءل: أين كان يختبئ وجه المرأة الجميل؟ وجه كلارا، وجه فاني، وفلورندا؟ من كانت تلك المخلوقة الحسناء؟

هي ليست كلارا دورانت.

من الضّروري تدريب كلب الصيد، وهو من نوع ترير أبردين. ولأنَّ السيد باولي كان مغادراً في تلك اللحظة، فليس هناك ما هو أفضل من مشوار. هكذا ترافقا معاً، كلارا وباولي، الفتى اللّطيف. وكان باولي يحجز لنفسه غرفة بفندق ألباني، ويعمل مراسلاً لصحيفة «التايمز». وقد اعتاد بأسلوبه الساخر أن يكتب لتلك الصحيفة عن الفنادق الأجنبية وعن

أورورا بوريالیس– أجل، إنّه باولي الذي يُحبّ الشباب ويفضل أن يتمشّى البيكاديللي وذراعه الأيمن على حدبة ظهره.

«شيطان صغير!»، قالت كلارا لكلبها «تروي» وربطَتْه بسلسلته.

كان باولي ينتظر – بل يأمل في – توفّر جوّ من الثقة بينه وبين كلارا. وكانت كلارا مخلصة لأُمّها، ولكنّها قليلاً ما تقدّرها، ذلك أنّ والدتها كانت شديدة الثقة بنفسها، حتى أنها ما كانت تتفّهم أنْ يكون الآخرون – أن يكونوا – «مضحكين مثلي». وهنا كبت كلارا (لأن الكلب يشدها إلى الأمام). وقد رأى باولي أنها كإلهة الصيد، وراح يفتّش في ذهنه عن النمط الممكن أن تكونه من تلك الآلهة– عذراء شاحبة تزين شعرها بشريطٍ قطعَتْهُ من القمر؟ لتكون فسحةً للفتنة في خيالِ باولي.

كانت شاحبة. وأن تتكلَّم مباشرة عن أُمّها – للسيد باولي وحده، الفتى الذي يُحبّها كما يجب أنْ يُحبّها الجميع، لكن من غير الطبيعي أنْ تكلّمها مباشرةً، على الرغم من أنهَّ شعور ممضّ، قد رافقها طوال النهار، أنَّه لا بدَّ من أنْ تفضي بمكنونها لشخصٍ ما.

قادت كلارا كلبها وهي تنحني : «انتظر حتى نعبر الشارع».

وكان لحسن حظّها أن عدّلت وضعها بعد الكبوة.

«إنّها تفكر كثيراً في إنجلترا»، قادت «وهي قلقة جداً...».

وكما في كل مرة فقد خُدِع باولي مجدّداً. فكلارا لم تكن تثق بأحد أبداً.

أراد أن يسأل: «لماذا لم يحلّ الشباب هذا الأمر، ها؟ وما المشكلة بالنسبة إنجلترا؟» وهو سؤالٌ ما كان بإمكان كلارا المسكينة الإجابة عنه نظراً لأنّ كلّ

ما تساءلت عنه، حسبما يُفهم من الحديث الذي دار بين السيدة دورانت والسيد إدغار بشأن سياسة السير إدوار غراي، هو لماذا كان يبدو مجلس الوزراء متّسخاً، ولماذا لم يعد يعقوب أبداً. والآن، ها هي ذي السيدة كاولي جونسون...

أخذت كلارا توزّع فناجين الشاي الجميلة المصنوعة في الصين، وتضحك في سرٍّ لسماعِ مجاملات الضيوف بأنَّها أفضل من يعدّ الشاي في لندن قاطبة.

ولم تتأخر في إخبار الجميع بـــ«أنَّنا نشتريه من محلات بروكل بنك، بشارع كورستر».

أليس من واجبها أن تكون شاكرة؟ وأن تكون سعيدة أيضاً؟

أجل، ولاسيما أنّ أمّها تبدو معافاة وتستمتع كثيراً بتبادل الحديث مع السير إدغار حول المغرب، وفنزويلا أو غيرهما من البلدان.

هجست كلارا فجأة: «يعقوب! يعقوب!» أمَّا السيد باولي، الذي كان طيّباً جداً مع النسوة المتقدّمات بالسن، فتوقَّف متسائلاً ما إذا كانت إلزابيث تتعامل بجلافة مع ابنتها، ثمَّ عاد ليفكر في بونامي ويعقوب – متسائلاً أيّ من الشابين أصغر سنّاً؟ - ثمَّ قفز بتفكيره مباشرة ما سمعه من كلارا بأنَّ عليها أن تدّرب كلبها تروي.

في هذه الأثناء، كانوا قد وصلوا إلى موقع المعرض القديم. وهناك تفرجوا على زهور التوليب. كانت تلك النباتات الشديدة والمجعّدة، بأشكالها التي لها طراوة الشمع، تخرج من الأرض، معافاة ومتطاولة، وبألوان القرمزي والمرجان الزهري. ولكلَّ زهرة ظلالها، وتنمو في مكانها الماسيّ كما خطَّط البستاني.

فكرت كلارا، وتنهدت: «بارنيس لا يتركها تنمو بهذا الشكل».

قال باولي لشخص قابله في الطريق، ورفع قبعته عن رأسه: «أنت تتجاهل أصدقاءك». أجفلت كلارا. لكنّها عبّرت عن شكرها للسيد ليونيل باري لتحيّيه تلك.

يعقوب! يعقوب!» هجست

قالت لكلبها تروي: «لكن ستدهسك السيارات إن أنا تركتك وشأنك».

قال السيد باولي: «إنجلترا تبدو بخير».

كانت لفة الدرابزون أسفل تمثال أخيل ملأى بالمظِّلات والصدّاريات، والسلاسل والخلاخيل الخاصة بالنساء والرجال المتَّكئين في أناقة للاستراحة، دونما اكتراث.

على لافتة هناك قرأت كلارا ما يلي، مع ابتسامة تعلو شفتيها: «هذا التمثال أقامته نساء إنجلترا...» أووه يا سيد باولي! عَدْو، عدو، كل شيء يعدو – ثمَّة جواد كان يعدو، ولا أحدّ على صهوته. الرُّكابان يلوحان في الهواء، وحوافره تلفظ الحصا.

ثمَّ صاحت: «توقف! يا سيد باولي توقف». كانت كلارا ممتقعة وهي ترتجف. تتشبَّث بذراع باولي، وغابت عن الوعي، والدموع تنهمر من عينيها.

«واعجباه!»، قال السيد باولي بعد ساعة، وهو في غرفة جلوسه.

وهذه العبارة، «واعجباه!»، هو التعبير الأكثر عمقاً في دلالته، وإن لم يكن التّعبير الأنسب والأدق، لأن خادمه كان يناوله أزرار قميصه.

جوليا إليوت بدورها رأت الجواد يبتعد، حيث نهضت من مقعدها لتتابع الحدث حتى نهايته، وهو حدث عدَّته مضحكاً إلى حدٍ ما، كونها شخصياً من أسرة رياضية. ومن المؤكَّد أنّ الفارس الفتى أقبَل متثاقلاً، يُجرجر خيبته. كان في غاية الضّيق، فساعده شرطيٌّ على اعتلاء ظهر الحصان، بحضور جوليا إليوت، التي استدارت صوب «ماربل آرك» وهي تبتسم ابتسامة ساخرة في سعيها للخير. جوليا كانت تزور عجوزاً مريضة، تربطها بوالدتها علاقة طيبة، وربّما بالدوق ولنغتون أيضاً. الحقيقة أنّ جوليا كانت تشارك بنات جنسها الحُبّ للمرضى، ومعروفٌ عنها حبّها زيارةَ المحتضرين على فراشهم. كما كانت تشارك الناس أفراحهم، مما أكسبها ثقة الكثيرين. وذلك كانت على معرفة بالأنساب، مما لا يتيسر لباحث في وقائع التاريخ، وتُعتبر إحدى أرقّ النساء وأكثرهن كرماً وعفّة.

وبعد مرورها بتمثال أخيل بنحو خمس دقائق بعد ظُهر أحد أيام الصيف انتبهت إلى نظرةٍ جذلى من فضوليّ بين الحشد. كان صوت حفيف الأشجار مسموعاً، كما طنين العجلات المسرعة، فيما بدا ضجيج الواقع المحيط أشبه بمرثية للشباب الذي ولّى وفصول الصيف الراحلة، ما أثار بداخلها حزناً غريباً، كما لو أنّ الزمن والخلود يتبديان من خلال تنانير السيدات وصداريات- الرجال، وأيقنت أنّ هؤلاء المارة إنما يعبرون إلى هاوية الدمار. مع ذلك، فالسماء تعلم أنّ جوليا لم تكن تشكو الغباء. فهي أشهر من يتقن فن المساومة بين بنات جنسها. وكانت دقيقة جداً في مواعيدها.

وكمثال على ذلك، فقد ضبطت ساعة معصمها على تمام الخامسة إلا عشر دقائق ليتسنى لها أن تصل شارع بروتون في الوقت المناسب، حيث تنتظر السيدة كونغريف وصولها في تمام الخامسة.

وها هي الساعة المُذهَّبة في محلات فيري تدقّ الخامسة تماماً.

نظرت فلورندا إلى الساعة بملامح مُضجرة، كنظرةِ حيوان. نظرت الساعة، ثمَّ إلى الباب، فالمرآة الطويلة قبالتها، بعد أن تخلّصت من عباءتها. اقتربت أكثر من المنضدة، كانت حبلى – لا شك بهذا، كما أخبرتها الأمّ ستيوارت التي اقترحت عليها تناول بعض الأدوية، بناء على استشارة الأصدقاء. لكن فلورندا كانت في وضعٍ نفسيٍّ مزعج فزلّت قدمها فوق أرضية المكان.

وضع النادل كأساً ضخمة من الشراب الوردي المُحلَّى أمام فلورندا. فوقفت ترشف الشراب بـ(شلمونة)، وعينها لا تبارح المرآة، وتراقب الباب، فطيّب خاطرها طعم الشراب الحلو. حين دخل نيك برامهام، بدا واضحاً حتى للنادل السويسري الصغير، أنّ هناك صفقة بينهما. شدّ نيك ثيابه بصورة مضحكة. وقف وأصابعه تتخلل شعره. جلس، كمن سيخضع لاختبار. رازته فلورندا بنظرة، وأطلقت ضحكةً مقهقهة. أجل. ضحكت فلورندا طويلاً، فاستثارت بضحكها النادل السويسري الصغير، الذي يجلس مصالباً رجليه بجانب العمود، حتى أخذ يضحك بدوره.

فتح الباب، فدخل منه ضجيج الشارع المزدحم، شارع ريجنت، بما فيه من سيارات وصخب عارم، وتدفَّقت للداخل أشعةً محمَّلة بالغبار الناعم،

ما عقّد على النادل السويسري الصغير رؤية الزبائن الداخلين. برامهام رفع نظارته عن عينيه.

قالت فلورندا وهي تتأمل شاباً جديداً يدخل: «إنه يشبه يعقوب»

«إنها طريقته في التحديق بالناس». وتوقفت عن الضحك.

كان يعقوب الجالس وسط غبار الهايد بارك مكّباً على ورقة رسم عليها مخطّط البارثينون، أو بعض الضربات بريشته لما يعتبر مبنى البارثينون، أو مخطّطاً أوّلياً للموقع. لكن ما الذي تعنيه مجموعة الحصيات الصقيلة التي تركها في زاوية المخطّط؟ لم يكن هدفه منها إحصاء ما سجَّله يعقوب من ملاحظات، لأنَّه يملك رزمةً من الأوراق، قرأ منها رسالة مطوَّلة متدفقة كتبتها ساندرا قبل يومين في ملتون داور هاوس، وكتاب يعقوب أمامها، وفي ذاكرتها ما تحدثا به، أو ما جربته هيذات لحظة في ركنٍ معتم على الطريق الأكروبوليس، وهو شيء (حسب عقيدتها) لا يمكنها نسيانه أبداً.

قالت ساندرا وهي تتأمل: «إنّه، إنّه يشبه تلك الشخصية في مسرحية موليير».

كانت بذلك تقصد شخصية البطل ألسسيست. وأرادت التلميح إلى قسوته، وأنّها قادرة على خداعه.

«أم أنّ خداعه غير ممكن؟»، فكرت، وهي تدسّ كتاب قصائد «جون دون» في مكانه داخل الحقيبة. «يعقوب»، استمرَّت تفكرَّ، وهي تمشي النافذة، وتتفقد مستنبتات الأزهار في الخارج، في الحديقة المعشوشبة، حيث ترعى البقرات المرقطة تحت شجرات الإجاص. قالت بحسم: «يعقوب سوف يصدم».

في تلك اللحظة، كانت عربة الأطفال تدخل من البوابة الصغيرة للسياج. قبلت يد الطفلة، في العربة، بينما لوّح لها جيمي بيده.

قالت وهي تفكر في يعقوب: «إنّه مجرّد صبيّ صغير».

ومع ذلك فهو – ألسيست؟

دمدم يعقوب: «يا لك من مزعجة!» وهو يمدّ إحدى رجليه أولاً، ومن ثمّ الثانية، متحسّساً جيوب سرواله كلّها بحثاً عن تذكرة المقعد.

قال يعقوب: «أكلها الخروف فيما أعتقد، فلماذا تربون الخرفان؟»

قال الجابي، ويده داخل كيس النقود المنتفخ: «متأسف لإزعاجك».

قال يعقوب: «لا بأس. آمل أن يدفعوا ثمنها، انتظر. كلا. هيا تابع. فلتذهب إلى الجحيم».

وهكذا ذهب الجابي بطيب خاطر ومعه نصف كراون (الكراون يساوي شلنين ونصف)، مُتسامحاً، رحيماً، لكن بكثير من الازدراء لنوعه البشري.

حين تمشي فاني إلمر المسكينة في شارع ستراند، فإنَّها اليوم لا تزال محافظة على هذه الطريقة القاصرة واللامبالية والنبيلة التي اتبعها يعقوب في مخاطبته حرَّاس السكك الحديدية والحمّالين، أو مع السيدة وايتهورن التي استشارته بشأن ابنها الصغير يوم ضربه مدير المدرسة.

الفكرة التي تحملها فاني عن يعقوب ظلّت على مدى الشهرين الفائتين ثابتة وتتغذّى على البطاقات البريدية المصورة، وتتّسم بالغرابة والنُبل والتغاضي الزائد

عمّا هو معتاد. ولكي تدعم رؤيتها تلك فقد اعتادت أن تزور المتحف البريطاني، وتبقى تبحث وهي مطرقة حتى تعثر على كتاب عوليس المهشَّم، فتفتحه لتُفاجأ بحضورٍ صادم ليعقوب، يرافقها بقيّة النهار. لكن حضوره ذاك بدأ يتآكل. وقد كتبت حتى الآن – قصائد، ورسائل لم ترسلها، ورأت وجهه في لوحات الإعلان، وربّما عبرت الطريق لكي يمكن للأرغن اليدوي، أن يحوّل صفناتها المتأمّلة إلى قصائد ملحمية. لكن فاني إلمر أثناء تناول الإفطار (وكانت تتشارك غرفتها مع معلمة)، وعندما تلوّث الزبدة ما حول الطبق، وتغوص أسنان الشوكة في صفار البيض، كانت تعمد مراجعة هذه الرّؤى بكل ما أوتيت من القوة، وتغضب جداً بالفعل، فتتغيّر سحنتها، بعد أن تسمع نصائح مارغريت جاكسون، وتبدو نزقة إلى حدٍّ مبتّذل وعاطفي (حتى وهي تشد رباط حذائها الضخم)، ما دامت هي نفسها مرت بتجارب عشق، وكانت حمقاء.

«من واجب عرّابة الشخص أن تخبره»، قالت فاني، وهي تمُعن النظر داخل نافذة بيكون، بائع المصورات، في شارع ستراند – وأخبرت أحدهم أن لا فائدة من اختلاق المشكلات. وكان الأليق بهم أن يردّدوا ما قالته فاني للتّو، بأنَّ هذه هي الحياة، وهي تنظر إلى الكرة الصفراء الكبيرة المحملة عليها خطوط مسارات البواخر.

ولطالما ردّدت فاني «هذه هي الحياة. أجل، إنّها الحياة».

قال الآنسة باريت: «يا له من وجه عبوس!». عبر الزجاج حيث كانت تقف بصبرٍ نافذ، في انتظار دورها لشراء خريطة للصحراء السّوريّة. ثمَّ أضافت «الفتيات تبدو كبيرات السَّن في هذا الزمن».

خط الاستواء يطفو خلف الدموع.

«البيكاديللي؟»، سألت فاني جابي الحافلة، ثم صعدت. وفي نهاية المطاف، سوف يعود، بل يجب أنْ يرجع إليها (كلارا).

في الوقت عينه، ربّما كان يعقوب يفكّر في روما، بالمعمار، بالقضاء، وهو يجلس تحت شجرة الدردار في الهايد بارك.

توقّفت الحافلة خارج ساحة تشيرنغ كروس. واصطفَّ خلفها طابور من الحافلات والفانات والسيارات الأخرى، بسبب مرور موكبٍ رُفِعَت فيه الرايات حتى الوايتهول. أمَّا الرجال المسنّون فكانوا يتقاطرون نازلين بتثاقل عبر معالم المدينة الغامضة، ليكونوا شهوداً على ما يحدث، وهم يغنّون بحماسة، وعيونهم شاخصة إلى مكان انطلاق الموسيقى في الفضاء، حتى وهم يتلطون في ظلّ عقيدتهم الذهبية.

توقَّفت حركة المرور، ولم يعد الهواء يحمل على أجنحته أشعة الشمس لينشرها، وأصبح الجو خانقاً. مع ذلك استمرَّ تقدُّم موكب المحتفلين، واستمرّت بيارقهم تلمع – حتى ابتعدوا وغيّبهم شارع وايتهول. فعادت حركة المرور إلى مجراها، حيث دارت محركات السيارات بلا انقطاع، وهي تدور حول منعطف شارع كوكسبر، واكتسحت المكاتب الحكومية وتماثيل الفرسان في منطقة الوايتهول، وصولاً إلى مشتل النباتات الشوكية، ومنه محيط الأسطول الكئيب، وساعة ويستمنستر البيضاء الكبيرة.

دقت ساعة «بيغ بن» خمس مرات، فكانت بمثابة تحيّة تبلَّغتها نلسون. واهتزّت أسلاك أدميرالية الإمارة البحرية، مع إعلان ناطق من بعيد، لإبلاغ الجميع وتذكيرهم بأنّ رؤساء الوزراء ونائبي الحاكم كانوا يتحدّثون في

الرايخستاغ. أعلنَ الصوت القادم أنّ القوات دخلت لاهور، وأنّ الامبراطور قد رحلَ، وأعمال الشغب تُشعل شوارع ميلان، وأضاف أنّ شائعات تسري في فيينا وتقول إنّ السفير في القسطنطينية اجتمع مع السلطان (العثماني)، وأنّ الاسطول أصبح في جبل طارق. وتابع الصوت يقول إنّ ذلك ترك أثراً لا يمّحي في نفوس الموظفين في الوايتهول (ومن بينهم تيموثي دورانت) وهم يستمعون إلى تلك الأخبار ويستجلّون غوامضها ويدونونها. وهكذا تراكمت الأوراق، المليئة بتصريحات القياصرة، وبإحصائيات تتعلَّق بحقول الأرز، ودمدماتِ مئات العمال الذين كانوا يدبّرون أعمال العصيان في الشوارع الخلفية، أو الذين يتجمهرون في أسواقِ كلكتا، أو يحشدون قواتهم في مرتفعات ألبانيا، حيث التلال بلون الرمل، وحيث الهياكل العظمية تتناثر بلا مقابر.

كان الصوت يتردَّدُ بوضوح في الحجرة الهادئة المربَّعة، التي تضمّ عدّةَ طاولات ثقيلة، جلس على أحدها رجلٌ مسنّ ليدون ملاحظاته على هوامشِ أوراق مطبوعة بالآلة الكاتبة، ورأس مظلته الفضي يتكئ على صندوقٍ مليءٍ بالكتب.

كان هذا رأس الرجل – الأصلع والذي تظهر فيه شرايين حمراء غائرة – يمثّل رؤوس الجميع في المبنى. لكن رأسه، بعينيه الوادعة المصفرّة، مُحمّل بهمومِ الشارع الثقافية، ليطرحها على زملائه، المهمومين مثله. وهؤلاء كانوا ستة عشر رجلاً، يمتشقون أقلامهم أو ربّما راحوا يدورون في كراسيهم بضجر، وهم الذين يقررون أنَّ مسيرة التاريخ ينبغي أن تتشكّل تلقائياً بهذه الطريقة أو تلك، كما يقرره الأقوياء، وهذا ما يمكن أن تقرأه في وجوههم، بحيث يفرض شيئاً من التماسك المنطقي على الأمراء (الراجات) والقياصرة

ويضبط الهمهمات التي تسود داخل البازارات والتجّمعات السريّة، وتظهر بوضوح في وايتهول، المليء بالجنود اللابسين تنانير قصيرة فوق المرتفعات الألبانية، بغية التَّحكم بأحداث التاريخ.

نظر بيت وشاتام، وبيرك وغلادستون الناحية الأخرى بعيون ثابتة كالخرز وملامح سرمدية هادئة، قد يُحسدون عليها، وسط الصفير والطقطقات من المحتشدين المتّجهين لاختراق الوايتهول حاملين راياتهم. وفوق هذا كان بعضهم يعاني من سوء الهضم، وأحدهم تكسّرت نظّارته في تلك اللحظات، وآخر يتحدّث عن غلاسكو الغد. وبصفة عامة، بدا الجميع إمّا مهتاجاً جداً، أو بديناً، أو شاحباً أو نحيلاً، بحيث يصعب على أيٍّ منهم أنْ يتعامل مع مسيرة التاريخ على طريقة أصحاب الرؤوس الرخامية.

وقف تيمي دورانت للحظة إلى جانب النافذة في غرفته الصغيرة بقيادة الأدميرالية، ليراجع كتاباً موصوفاً، وأخذ يراقب الإعلان الملصق على عمود الكهرباء.

قالت الآنسة توماس، وهي إحدى المشتغلات في الطباعة، لصديقتها إنّه إذا تأخر اجتماع مجلس الوزراء أكثر مما ينبغي فإنّها ستفقد صديقها خارج الموكب.

حين عاد تومي دورانت متأبطاً كتابه الأزرق، شاهد تجمّعاً من الناس عند الناصية. كانوا يتجمهرون حول أحدهم وكأنّه يحتفظ بسرٍّ ما، وهم يتلفتون بعيد، فيما حولهم، ويراقبون الشارع على امتداده. تُرى، ما الشيء الذي كان يحتفظ به ذلك الشخص إيّاه؟

وضع تيموثي (تيمي) كتابه الأزرق أمامه، وانشغل بقراءة ورقة وزّعها وزير الخزانة للإعلام. كان زميله الموظف، السيد كرولي، يُدخل ورقة أخرى في سيخ.

نهض يعقوب من مقعده في الهايد بارك، ثم مزّق تذكرته نتفاً وغادر. «يا له من غروب»، كتبت السيدة فلاندرز في رسالة بعثتها آرشر في سنغافورا. وأضافت: «لا يستطيع المرء أن يقرر ما إذا كان عليه ان يدخل الغرفة».

«من العبث أن تهدر ولو لحظة واحدة».

عندما مشى يعقوب بدت النوافذ الطويلة في قصر كنغستون ورديّة لشدةّ تألقها. حلّق سرب من البطِّ البري فوق بركة سربنتين، ونهضت الأشجار في شموخ مخترقة عنان السماء.

كذلك كتبت السيدة فلاندرز في الورقة أمامها، على الضوء الأحمر: «يعقوب يكدح بعد عودته من رحلته الماتعة...».

ردد الصوت القادم من بعيد في وايتهول: «استقبال السلطان لي كان حافلاً بحق».

قال القسّ المحترم آندرو فلويد، وهو يخرج من محل كارتر في البيكاديللي: «الآن أصبح ذلك الوجه مألوفاً عندي...، ولكن أيّ شيطان...؟». أخذ يتابع يعقوب، وقد استدار الوراء ليتأمله جيداً، لكنه لم يكن متيقّناً تماماً منه....

«آه!. أجل، إنه يعقوب فلاندرز!»، قال وهو يتذكر وجهه في لحظة.

لكن يعقوب كان فتى رقيقاً وطويلاً، وفاقد الإدراك. خطر للسيد آندرو فلويد: «وكنت قد أعرته أعمال بايرون الشعرية». وخطا إلى الأمام، ليتابع حركة يعقوب وهو يعبر الطريق، لكنّه تردّد، مُؤثِراً الانتظار قليلاً، فضاعت منه تلك الفرصة.

في مكان آخر كان هناك موكب آخر بلا رايات يغلق منطقة لونغ آكر. كانت هناك عربات وعجائز مهيبات يتزيّن بأحجار الجمشيت الكريمة، ورجال يحملون القرنفل، عربات صغيرة وسيارات أديرت بشكل معترض، حيث يخطر رجال متخمون، بصدارياتهم البيضاء، يتجهون في تراخ إلى بيوتهم، و الخمائل وصالات البلياردو في بوتني وويمبلدون.

آلتا الأرغن اليدوي تطلقان ألحانها فوق الرصيف. وعدد من الجياد خرجت لتوها من الاسطبل، أقفيتها معلّمة بالأبيض، تسير الهوينى في الطريق وتشبّ إلى الوراء.

السيدة دورانت، في سيارة مع السيد وارتلي، تبدو متوترة مخافة أن يفوتها العرض.

السيد وارتلي المتحفز دوماً، والذي يصل في الوقت المحدّد لحضور العروض، أخذ يمتدح الآنسة كلارا وهو يزرّر قفازيه.

قالت السيدة دورانت، وهي تنظر النوافذ المتوهجة لمحلات صنع العربات في لونغ آكر «من المعيب قضاء ليلة كهذه في المسرح»!

قال السيد وارتلي لكلارا: «عليك أنْ تفكري في أراضيك البور»!

قالت السيدة دورانت ضاحكة: «هذا صحيح! لكن كلارا تفضل العروض المسرحية».

ردت كلارا ونظرها معلق أيضاً في النوافذ المشعة، «في الواقع، لست متأكدة»، وأجفلت.

فقد شاهدت يعقوب.

سألت السيدة دورانت بحدّة، وهي تنحني إلى الأمام: «من هو ذاك؟» لكن لم يكن أحد هناك.

عند الغروب، الوجوه كلّها تتشابه، وتبدو حمراء تحت قوس «أوبرا هاوس»، سواء كانت مستديرة أو نحيلة، مزينة بالمساحيق أو يغطيها الشعر. بعض السيدات كنّ يبحثن عن قضاء لحظات في غرف النّوم المعروقة المجاورة، تحثّهن المصابيح الكبيرة المعلّقة بأنوارها الشاحبة، وبسبب المتسكعين، وبنات الهوى، والاحتفالات الطنّانة، حيث البنات بشعرهن الطويل المنسدل– والأطفال - (إذ تظهر النسوة معلّقات في المرايا الطويلة) لكن على المرء أن يتابع، عليه ألا يسدّ الطريق.

الواقع إنّ أراضي كلارا بحالة جيدة. وما أكثر ما نام الفينيقيون في فيء صخورها الرمادية. مداخن المناجم القديمة فيها مشرعة في الفضاء. والفراشات المبكرة تغبّش مشهد كؤوس زهرات الخَلَنج، ويمكن فيها سماع قرقعة عجلات العربات على الطريق التّحتي، فيما يتواصل شهيق الأمواج وزفيرها في هدوءٍ، وبإلحاحٍ أبدي.

حمت السيدة باسكو عينيها بأصابع يدها في حقلها المزروع بالملفوف وأرسلت ناظريها صوب البحر. كانت هناك باخرتان وقارب صغير تسير بشكل متقاطع. وفوق مياه الخليج واصلت النوارس استهداف جذوع الأشجار الطافية لتستريح عليها، ومن ثمّ تطير عالياً قليلاً وتعود، بينما بقي بعض النوارس ملازماً سطح الموج، وتوقفت عند حافة المياه، حتى غسل القمر بأشعته البيضاء المكان كلّه.

وكانت السيدة باسكو قد دخلت غرفتها منذ فترة طويلة.

أعمدة البارثينون بقيت مغمورة بضوء أحمر، واليونانيات ما يزلن ينسجن جواربهن بأيديهن، ومن وقتٍ لآخر ينادين على طفل ليأتي ويعود إلى ملاحقة الفراشات، حيث يمسكها من رأسها، ويعدو جذلاً كسنونوات الفلاة في يوم قائظ، حيث تتعارك مع فراخها، وتعنفهم وتطعمهم، حتى تدوي مدافع البواخر المسافرة.

وبالمناسبة، حين تنفجر تلك المدافع فإنها تنتشر قبل أن تتّخذ مسارات خاصة بها عبر الأقنية الواصلة بين الجُزُر المتباعدة.

ويهبط اللّيل على اليونان كما السكين الحادّة ويغمرها.

«المدافع؟» قالت بتي فلاندرز، وهي بين اليقظة والغفوة. وتقفز من تحت اللحاف، وتقف عند النافذة المزينة بأهداب العتمة المتماوجة.

«ليس كل هذه المسافة البعيدة»، تقول بتي لنفسها، «إنه البحر». ومن بعيد مجدّداً، يدوي في آذانها صوت مُضجر، كصوت سجادةٍ كبيرة تنفضها امرأة قضت الليل ساهرة. لقد أصبح مورتيفي في عِدَاد المفقودين وتوفي سيبروك، وها هم أبناؤها يذهبون للحرب دفاعاً عن الوطن. لكن، ألا تزال الفراخ بخير؟ وهل هناك من ينزل على درجات السُّلم؟ وربيكا، هل لا ما تزال تعاني من وجع أسنانها؟ كلا. فالنسوة السّاهرات الليل ينفضن سجاداتهن. ودجاجات السيدة فلاندرز ابتعدت قليلاً عن مجاثمها.

الفصل الرابع عشر

«لقد ترك كل شيء على حاله»، قال بونامي وقد أخذته الدهشة. «لا شيء مُرتّب. وها هي رسائله مبعثرة هنا وهناك ليقرأها من يشاء. ترى، ما الذي كان يتوقّعه؟ هل كان يأمل في العودة؟». هذه هي التساؤلات التي خطرت على بال بونامي، وهو يقف وسط غرفةِ يعقوب وأشيائه.

القرن الثامن عشر له خصوصيته المميزة. بيوته التي بنيت قبل أكثر من مئة وخمسين سنة تقريباً. في تلك الأيام كان للغرف أشكالٌ لطيفةٌ، وسقوفها عالية. وكانوا يعلّقون فوق مداخل البيوت الإطارات الخشبية، وينقشون عليها وردة أو جمجمة كبش. وحتى مصاريع الأبواب، المطلية بالأرجواني الغامق غالباً، حتى هذه كانت لها ميزاتها.

تناول بونامي فاتورة تتعلّق بمحصول الصّيد.

قال بونامي: «يبدو أنها فاتورة مسددة»،

كذلك كانت هناك رسائل ساندرا يعقوب.

يومئذ، كانت السيدة دورانت تحضر حفلة في غرينتش.

وقد تمنت السيدة روكسباير السعادة ل....

كان جوُ غرفة يعقوب الفارغة يوحي بالخمول، الذي يفوح حتى من الستائر. الأزهار في المزهرية لم تعُد في مكانها. أحد الألياف التي صُنعِت منها الكرسي خرج وراح يصرّ، مع أنَّ لا أحد يجلس عليها.

توجَّه بونامي إلى النافذة. مرت شاحنة من نوع بكفورد في الشارع. وكانت حافلات الركّاب عند منعطف شارع مودي عالقةً في الزحام، محركاتها تنبض باتساق، فيما تُصدِر العربات التي تجرها الخيول صريراً عندما يكبح الحوذيون جماح خيولهم. علا صوتٌ أجشّ وبائس معلناً عن شيء غامض. وعندها فقط، بدت أوراق العشب كلّها تقفُ بعناد.

«يعقوب! يعقوب»، صرخ بونامي، من مكانه بجانب الشباك. فأحنت الأوراق رؤوسها ثانية حزناً.

«هذه الفوضى تعمّ الأمكنة كلّها!»، هتفت بتي فلاندرز، وهي تفتح باب غرفة نومها بكلّ ما أوتيت من قوة.

استدار بونامي وابتعد عن النافذة.

«ما الذي يمكن أن أفعله بهذه الأشياء، يا سيد بونامي»؟

هذا ما قالته وهي تحمل بيدها حذاء يعقوب القديم.

فهرس

الصفحة

الفصل الأول ٥

الفصل الثاني ١٧

الفصل الثالث ٤١

الفصل الرابع ٦٧

الفصل الخامس ٩٣

الفصل السادس ١٠٧

الفصل السابع ١٢١

الفصل الثامن ١٣٣

الفصل التاسع ١٤٧

الفصل العاشر ١٦٩

الفصل الحادي عشر ١٨٥

الفصل الثاني عشر ٢٠١

الفصل الثالث عشر ٢٤٥

الفصل الرابع عشر ٢٦٣

فرجينيا وولف

- **(**١٨٨٢ - ١٩٤١**)** كاتبة إنكليزية، من أوائل من استخدم تيار الوعي كطريقة سرد.

من أعمالها:

- إلى المنارة.
- السيدة دالواي.
- غرفة تخص المرء وحده .

شاهر حسن عبيد

- مترجم سوري من أعماله المترجمة:
- مولد التراجيديا – فريدريك نيتشه.
- المونسنيور كيشوت – غراهام غرين.
- رحلات في سورية والبلاد المقدسة – جون لويس بيركهارت.

الطبعة الأولى / ٢٠١٩م